ثيودور رايك

الحب بين الشهوة والأنا

ترجمة : ثائر ديب

الحب بين الشهوة والأنا

- الحب بين الشهوة والأنا
- تأليف: ثيودور رايك
- ترجمة: ثائر ديب
- الطبعة الثانية ٢٠٠٠م

- الناشر: دار الحوار

الحبّ بين الشّهوة والأنا

ترجمة: ثائر ديب

القسم الأول

الحب ودوافع الأنا

القسم الثاني

الحب والشهوة

القسم الأول

الحب ودوافع الأنا

مفهوم جديد للحب

كما هو الحال في العلوم الأخرى فإن المكتشفات موجودة أيضاً في السيكولوجيا ، وهي بمثابة لُقىً سعيدة فضلاً عن كونها نتاجاً للعمل الشاق ، الدؤوب والمديد ؛ ذلك أن السيكولوجيين يقومون بحملات جسورة إلى بلدان مجهولة ، وبغزوات لآخر قارّة غامضة على هذه الأرض ، النفس البشرية . بيد أن هذه اللُقى ، مهما تكن ، تختلف عن الكشوف الجديدة في حقول العلم الأخرى ، كالكيمياء ، والفيزياء ، والجيولوجيا . وعلى سبيل المثال ، فإن كل ما إكتشفه السيكولوجيين العظماء ، مثل شوبنهور ، ونيتشه ، وكيركيجارد ، وفرويد ، في أعماق الحياة النفسية كان مُكْتَشفاً من قبل ، ولكن ليس من الناحية السيكولوجية . وكان يعيش بين ظهرانينا غُفْلاً ، غير مميَّز أو مُسَاء فهمه . لم يكن غائباً . وإنما كان محتجباً وحسب . كان يعيش حياته السرية في الأقوال المأثورة ، وفي أعمال الشعراء الإبداعية ، وفي مؤلفات الفلاسفة العظماء ورجال الدين ، وفي ما يتلفَّظ به كثير من البشر الذين هم سيكولوجيون دون أن يعلموا . وكثيراً ما صدر هؤلاء جميعاً عن نفاذ بصيرة حيال ظاهرة لا يدركون كنهها بصورة واعية ، فتلفَّظوا بأقوال مذهلة دون أن يدركوا قيمتها وأثرها السيكولوجيين ، تماماً مثل الهمج البدائيين حين ينثرون حولهم ، بلا إكتراث ، الذهب والمجوهرات دون معرفةٍ بقيمتها .

وبهذا المغنى ، فإنَّ التفحُّص الدقيق لأي إكتشاف سيكولوجي يبيِّن أنه في الحقيقة ضرب من إعادة الاكتشاف . والتبصُّر الذي سبق أن ظهر لأحد ما في لحظة إلهام خاطفة نلتقيه ثانية ، حيث يكتشفه السيكولوجي على نحوٍ مستقل ، واضعاً إياه بلغة علمه ، ومتفحِّصاً إياه بمناهج هذا العلم وبروح البحث .

إن إكتشافي البسيط الذي قمت به منذ سبعة عشر عاماً ، والمتعلّق بطبيعة الحب ومنشئه السيكولوجيين ، له مثل هذا الطابع . فهذه المعرفة كانت معروفة من قبل وفُقِدَتْ ، ولابدَّ من إعادة إكتشافها . ولعلّ في إعادة الاكتشاف هذه من الجدارة مثلما في إيجاد دولار فضيّ على درب سلكه آلاف قبلك دون أن يروه . ولعلّ شعاعاً من الشمس الساطعة وقع على القطعة النقدية في اللحظة ذاتها التي مررتَ بها ، وانعكست الصورة على شبكية عينيك .

حاولت أن أعرض هذا الاكتشاف عرضاً ضافياً في كتاب نشرته منذ عهد قريب «[1]» . وفي هذا الفصل ، حيث لا نعالج سوى الحب بين الجنسين ، وما يدعى بالغرام Romance، يكفي أن نتعرّف على الخطوط العريضة لهذه النظرية . وبما أنني لا أريد أن أكرر نفسي ، سوف أختار مقاربةً جديدة وشكلاً مختلفاً للعرض . وسوف يتيح لي هذا الموجز المكثّف صياغة نظريتي على نحو أدقّ وتصويب بعض الأجزاء من عرضي السابق لها .

في موضوعات واسعة المنظور مثل موضوع البحث السيكولوجي في الحب ، من المفيد أن تنسى كل ما تعرفه ، أو ما تعتقد أنك عرفته عنه ، وأن تلقي جانباً بما قرأته أو سمعته ،وتقارب المشكلة ببساطة كما لو أنها المرة الأولى . ولقد سبق للأمبراطورة أوجيني ، زوجة نابليون الثالث ، أن رأت من نوافذ قصرها مظاهرة للجماهير الجائعة . ولم تفهم مطالب الشعب . وما كان من وصيفتها إلا أن قالت : « ولكن الشعب ، ياصاحبة الجلالة ، يريد أن يأكل » . فردّت الإمبراطورة : « Je n'en vois pas la ne'cessite' » [*] إنهُ لتعليق يدعو إلى السخرية . وها نحن نقول ، ليس بمثل هذه الروح ، بل ببساطة ، إننا لا نرى ضرورة للحب . فما هي الضرورة لأن أشعر بالغرام أو العاطفة تجاه شخص من الجنس الآخر ؟ ما معنى هذا التوق الشديد ؟ هل هو

---

1 ـ نظرات سيكولوجي في الحب ، نيويورك ، 1944 .

* ـ بالفرنسية في النص الأصلي ، لا أرى ضرورة لذلك .

حيويّ ، وضروري كما الهواء ، وكما إشباع الجوع أو العطش ؟ ألا يمكن للمرء أن يصرف العمر كله دون حب ؟ .

قد تبدو هذه الأسئلة ساذجةً ، لكن إجابتها تفضي إلى لبّ المشكلة بأشدِّ الطرق استقامة . والجواب لا شك فيه : ليس الحب ضرورياً ضرورة إشباع حاجتي الجوع والعطش الحيويتين . ليس الحب ضرورياً ضرورة الجنس . قد ينكر الرومانسيون والشباب ذلك ، لكن الوقائع عنيدة جداً . ومما لا يمكن نكرانه أنّ الغرام خبرة يجهلها الكثير من البشر والأعراق ؛ فأسلافنا القدماء لم يعرفوا الحب بالمعنى الذي نعطيه نحن للكلمة . وإذا ما كانت ملايين كثيرة من البشر عبر مئات عديدة من آلاف السنين من التطور البشري قد استطاعت العيش دون حب ، فكيف يمكن لأيٍّ كان أن يؤكِّد أنه حيوي ؟

من الواضح أن الحب لا يولد مع الإنسان وأن هذا الأخير يشعر بالحاجة إلى الحب ويكتسب القدرة عليه لاحقاً . وهذا يسوقنا إلى إستنتاج أنّ الحب لا يكون ممكناً إلا بعد بلوغ طور معين من التطور وأنه نتاج للحضارة ، بل مأستدرك سريعاً وأقول إنه نتاج نوع معين من الحضارة . ويؤكِّد بعض الدارسين الحصيفين للشرق الأدنى أن الحب ، كما نفهمه ، ليس معروفاً لدى كثير من الثقافات الشرقية . (ولعلّ من المفيد التذكير هنا أنه ينبغي عدم الخلط بين الرغبة الجنسية الجامحة والغرام) .

والسؤال الذي يقتضي جواباً هو : لماذا أضحى الحب ضرورياً ؟ ما هو الحب ، وما الذي أتى به إلى الحياة ؟ ما معناه وما بغيته ؟ ليس لديَّ نظرية ناعمة وأنيقة لأقدِّمها . ولكنني أَعِدُ بتقصيّ هذا الموضوع بروح البحث العلمي وبإعتباره خبرة انفعالية قد تكشف للسيكولوجيا عن طابعها ومنشئها . فحتى ظاهرة مراوغة ، وفي بعض الأحيان فانتازية ، مثل الحب ، يمكن النظر إليها بطريقة واقعية ورصينة .

لابدّ في البدء من إيضاح بعض النقاط تفادياً للخلط والتشويش . كنّا قد أشرنا من قبل إلى أن الفروق بين الحب والجنس كثيراً ما تمَّ تجاهلها بحيث ظهرا في أغلب

الحالات كما لو أنهما الشيء ذاته . أما أنا فأؤكّد أنهما متباينان في طابعهما ومنشئهما ، وأود أن أثبت ذلك . لقد تعامل التحليل النفسي مع كلتا الظاهرتين بإعتبارهما ظاهرة واحدة ، ولا يزال . ولم يحصل أي تقدّم في ما يتعلّق بتحليل الحب منذ أن أعلن فرويد أنه ليس سوى جنس مكفوف الهدف . وحين يأخذ المرء في حسبانه أن عمر هذا المفهوم يقارب الأربعين عاماً فإنه سيقرّ أنّ ميدان البحث التحليلي النفسي هو ضَرْبٌ بطيء من البلاد «*» . ويمكن للمحللين النفسانيين أن يقولوا كما قالت الملكة لأليس : « والآن ، ها أنتِ ترين ، إن الأمر يتطلب منكِ الركض بكل ما أوتيتِ من قوة كي تبقين في مكانك » .

ثمة سببٌ آخر لسوء الفهم الذي لا يقتصر على المحللين النفسانيين ، وإنما يتقاسمه معهم غيرهم : إنه الخلط بين أن يكون المرء محبّاً وأن يكون محبوباً . وقد يبدو هذا الخلط مدهشاً لأن كلتا الخبرتين تبدوان جدّ مختلفتين ، بيد أنه غالباً ما يحصل رغم ذلك . وكلّ واحد منا ، أنتم وأنا ، ينزع لأن يخلط بينّ حالتي الكينونة هاتين ، ويعتقد أنه محبٌ بينما هو في الحقيقة يبتغي أن يكون محبوباً أو يحسب أنه مفعم بالعاطفة لأنّ قسطاً وافراً منها يُبْذَلُ تجاهه . وكي أوضح ما أعنيه ، سوف أقصّ عليكم قصة صغيرة سجّلها بينيت سيرف في مجلة السبت الأدبية «۱» : في ملجأ للأيتام كانت هنالك بنت صغيرة منفّرة إلى أبعد حدّ ، وذات عادات سيئة وسلوك مستهجن عزلها عن أترابها . وكان الأطفال يجتنبونها ويكرهها المدرسون . أما القيّمة على الملجأ فكانت تنتظر بلهفة مبرراً منطقياً كي تصرفها إلى مدرسة إصلاحية أو تطردها بطريقة أو بأخرى .

بعد ظهر أحد الأيام بدا كما لو أن فرصة القيّمة قد حانت . ذلك أنّ فتاةً أخرى كانت تشارك الأولى حجرتها كارهةً نقلت أن جارتها تُجري مراسلة سرية مع أحد ما من خارج الملجأ . قالت الفتاة : «لقد رأيتها وهي تكتب الرسائل يومياً منذ أسبوع وإلى

---

* - إشارة إلى حكاية الأطفال الشهيرة « اليس في بلاد العجائب » .

۱ - روى القصة في الأصل مايرليفين في Collier's Magazine

الآن . ومنذ برهة أخذتْ رسالة وأخفتها في شجرة قرب جدار القرميد » .

بالكاد استطاعت مديرة الملجأ ومساعدتها إخفاء سرورهما . واتفقتا : « سوف نعرف في الحال قرارة الأمر . أرنا أين تركتْ الرسالة » .

وبالفعل ، فقد وجدنا الرسالة بين أغصان الشجرة . وانقضّت المديرة عليها ، وقرأتها ، ومن ثم هزّت رأسها وناولتها بصمت إلى مساعدتها .

كان مكتوباً : « إلى كل من يجد هذه الورقة : أحبك » .

هل تعبّر رسالة الفتاة الصغيرة في هذه القصة عن حاجتها لأن تحبّ أحداً ما ، كائناً من يكون ؟ لا بالتأكيد ! ففي الملجأ مئات ممن قد تحبّهم . صحيح أن ما تقوله الرسالة هو « إلى كل من يجد هذه الورقة : أحبك » ، ولكن معناها هو بالأحرى : « إلى كل من يجد هذه الورقة : أريد أن تحبني » ، أو « أنا مستعدة لأن أحبك إذا ما بذلت نحوي قليلاً من العاطفة » . أليس المحزن في القصة هو أنّ الطفلة لم تكن تشعر أنها محبوبة ؟ ألم يكن الآخرون يجتنبونها وينفرون منها ؟ وشعور المديرة بالخجل ، ألا يُظْهر بوضوح كافٍ سبب هذا الوضع ؟ إنّ الطفلة الصغيرة تتوق للحب ؛ تريد أن تكون محبوبة من أحد ما . وفي الواقع ، إن رسالتها المحزنة تسأل : « أما من أحد في هذا العالم يريد أن يهتمّ بي ؟ »

ولكن ما دام كون المرء محبّاً يختلف عن كونه محبوباً كما تبينّ الملاحظة السيكولوجية ، فكيف أمكن الخلط بينهما ؟ والجواب ، بالطبع ، هو أنّ هنالك صلة بينهما ، أو علاقة متبادلة . فكل من يحبّ شخصاً ما يأمل ، بصورة واعية أو لا واعية ، أن يكون محبوباً من قبل هذا الشخص . وليس صحيحاً أبداً أنّ هذه الاستجابة Response تشكّل شرطاً للعاطفة ، وإنما هي المكافأة المتوقعة التي يُكافأ بها المرء على شعوره هو . فأنْ يحبّ المرء ليس سوى شارع باتجاه وحيد . ولعل الحب لن يدوم طويلاً دون بصيص من هذا الأمل . وحين سأل ضابط بحري فتاته عند وداعها قبل أن يمضي في البحر : « أتنتظرينني ، حتى لو لم أعد لسنين ؟ » ردّت الفتاة ردّاً رائعاً : « إنْ أردتَ أن أنتظرك » . ذلك أنّ من المهم بالنسبة لها ، وبالنسبة لكل منا ، أن تكون

مطلوبة . وليس ثمة شك في أن رغبة المرء بأن يكون محبوباً هي أقدم من حافز الحب لديه .

لقد صغتُ على نحو مؤقت الفكرة التي مفادها أنّ المغازلة أو التودّد هي في الأصل عَرْض لا واع للرغبة : « أنظر ، أودّ أن تحبني بهذه الطريقة » . فنحن في إظهارنا الحنان والعاطفة نشير إلى ما ينبغي على الشخص الآخر أن يبذله تجاهنا . وبالتالي فإن حبّك للآخر ليس طريقة وحسب لكسب حبّ الآخر لك وإنما هو هدفك أيضاً . وباتباعنا هذا الالتفاف نصل إلى الرغبة الأصلية . والانزياحShiftمن كون المرء محبّاً إلى أمنيته أن يكون محبوباً هو المقابل والمكسب . أن نفعل للآخرين ما نريد منهم فعله لنا هو شكل بدائي من العَرض بالمقلوب Presentation By Reversal . ولا أستطيع أن أتمالك نفسي عن ملاحظة أنّ هذه الطريقة في إظهار الأشياء لا تصبح ضرورية إلا حين نفتقد العاطفة ونرغب بها . وإذا ما كنت قد فسّرت التعابير اللاواعية على نحو صائب ، فإنّ المعنى الأساسي يجد تعبيراً واضحاً في هذه الأغنية التي يغنيها الأطفال أثناء لعبهم :

أحبّ القهوة ،
أحبّ الشاي ؛
أحبّ البنات
عندما يحببنني .

ولعل من المناسب ، قبل أن نتابع ، إبداء بعض الملاحظات حول الطابع العام لموضوعنا ، خاصة وأن هذه الملاحظات تتعلّق بمجمل الإشكالية التي سنعالجها في الفصول اللاحقة . أيّ نوعٍ من الإشكاليات هو الحب ؟ الحب إشكالية قيمة ؛ أي أن ظاهرة الحب يستحيل تفسيرها ما دامت الفروق في القيمة غير محسوسة أو مُدركة . وأنا أشدّد على الفروق في القيمة لأنّ من الممكن تماماً إدراك ما في خصال الأشخاص من فروق دون تقييمها . فالقبائل البدائية ونصف المتحضرة قادرة تماماً على فعل ذلك . ولكن مثل هذا التفريق ليس كافياً .

لا تصبح ولادة الحب ممكنة إلا حين تُضْفَى على شخص ما قيمة تفوق القيمة

المضفاة على شخص آخر أو بالأحرى على كثير من الأشخاص . أما حين تعتبر شخصاً ما مساوياً لك ، فكيف يمكنك أن تحبه أو تحبها ؟ وما الذي يدفعك عندها إلى ذلك ؟ وأين يكمن ما يحرّض على مثل هذا الشعور الغريب ؟ وجوابي هو أنّ الحب لا يكون ممكناً إلا حين تعزو إلى شخص آخر قيمة أسمى من القيمة التي تعزوها إلى ذاتك ، وحين تراه أو تراها ، من نواحٍ محدّدة على الأقل ، بمثابة شخصية متفوقة عليك .

إنه لمن المدهش أن نجد ضرورياً التأكيد على أنّ إشكالية الحب لا يمكن تخيّلها دون هذا المعنى المميّز للقيمة . ومع ذلك فإن هذا القول كان مستحيلاً ما دامت مقبولة عموماً لدى الأطباء النفسانيين والسيكولوجيين وجهة النظر التحليلية النفسية التي تعتبر الحب شكلاً من الرغبة الجنسية التي تجردت عن الجنس . بيد أن الازدهار الزائف لهذه النظرية والذي كان مشروطاً بتضخيم ونفخ مصطلح الجنس تمّ تجاوزه الآن .

ليس مهماً ما إذا كانت القيم المضفاة على موضوع معين حقيقية أو متخيَّلة . ولعل دراسة الحب هي ضرب من البحث في الوهم ، ولكن القيم الوهمية لها واقعها النفسي . ولقد عانى ملايين البشر وماتوا من أجل هذه القيم الوهمية خلال آلاف السنين من تطور الحضارة . والآن ، وبعد أن وضعتُ أساساً مفاده أن الحب لا يكون ممكناً إلا حين يتمّ تقييم الأفراد على نحوٍ متباين ، سوف أعود إلى فكرة أنّ الحب يظهر متأخراً نسبياً في تاريخ النوع البشري . فالقدرة على تقييم البشر والحاجة إلى هذا التقييم لا تتواجد إلا بعد بلوغ طورٍ معين من تطور الحضارة وتطور الأفراد .

الاستعداد الانفعالي

لقد سبق لقصة الغرام الفردي أن حُكِيَتْ وأُنشِدَت مئات آلاف المرات ، في مئات آلاف القصائد ، والروايات ، والمسرحيات . لكن السيكولوجيا لم تحْكِها . وهكذا حدث أن العلم الوحيد الذي يُفْتَرض به أن يكون قادراً على وصف الظاهرة وتفسيرها أضحى عيياً وأخرس أمامها . ألا يمكن لنا أن نتناول هذه الظاهرة بلغة العلم ؟ وهل في الموضوع ما يمتنع على البحث ؟ مهما تكن الأسباب ، فإن القصة السيكولوجية للحب بقيت غير محكية .

ولقد أدرك الشعراء العظماء أنّ الحب إشكالية سيكولوجية . فباسانيو ، حين كان عليه أن يختار بين الصناديق الثلاثة ، يسمع هذه الأغنية :

قُلْ لي ، أين يولد الحب
في العقل أم في القلب ؟(*)

بيد أن حلّ الإشكالية ليس مهمة الشاعر . وما يقدّمه ليس حلاً وإنما إلماعاً . وهو لا يفسِّر ؛ إنما يلمِّح إلى التفسير . لا يحلّ الأحجية وإنما يشير إلى الحل على شكل فزُّورة . ومثل كاهن إغريقي ، يخفي ما تشتمل عليه الصور البلاغية الغامضة والمترعة بالمعنى . فالمعنى موجود ، ولكنه لا يتكشَّفَ ولا تسمعه سوى الآذان القادرة على سماع ما لم يُقَلْ .

يدرك السيكولوجيون أن ثمّة أشياء غير ملموسة في هذه الإشكالية ، ولكنهم

* ـ من مسرحية شكسبير « تاجر البندقية » .

يعنون بغير الملموس شيئاً لا يجب مسّه . في حين أن هذا الإهمال للموضوع ، حتى لا نقول هذا التجنّب ، هو بالأحرى غير مفهوم . لعلهم لا يؤمنون بوجود الحب . لكن الشك ليس مبرراً . إذْ أنَّ الإيمان ليس ضرورياً . والسيكولوجي الذي يبحث في حقل الدين لا حاجة به لأن يؤمن بالله . كلا ، ليس عدم الإيمان ، وإنما عدم الثقة بأنفسهم ، هو ما يجعلهم يشيحون بوجوههم عن هذه الإشكالية . وليسوا هم من يواجهها بإزدراء ، بل هي التي تواجههم وتواجه عجزهم .

كل المحاولات القليلة الجهيضة التي بذلها السيكولوجيون لتفسير ظاهرة الحب الرومانسي الغريبة إنطلقت من الموقع ذاته : يولد الحب عندما يشعر شخصان من جنسين مختلفين بانجذاب أحدهما إلى الآخر . وبعبارة أخرى ، فإن الحب يولد عندما يلتقي الولد والبنت . ولكن إذا كان الحب يولد في هذه اللحظة ، فمتى كان جنيناً ؟ إذ لا بدّ أنه كان موجوداً في مكان خفي قبل فترة طويلة من ولادته .

وباعتقادي أن الحالة الإنفعالية قبل اللقاء ربما كانت الجزء الأشد أهمية من القصة غير المحكية . ذلك أن الإستعداد ، وإنْ لم يكن كل شيء ، هو قسم هام وكبير . فالوقوع في الحب مأثرة إنفعالية لها تاريخ طويل قبل أن تجد تحققها . وأن تكون في حالة حب لهو أمر أكثر وضوحاً بالتأكيد من السيروروات السابقة على ذلك والتي تحدث في القرار المظلم للنفس البشرية وتجعل تطور الحب ممكناً .

كي نجيب على السؤال ، لماذا أضحى الحب ضرورياً ، لا بدّ في البدء من دراسة الحالة الإنفعالية للشخص الذي لم يصبح محبّاً بعد ولكنه سيصير . ذلك أن منطلقات واضحة ومحدّدة لا بدّ أن تتواجد داخل هذا الشخص فتجعله مستعداً للغرام . إذاً ، ما الذي كانت عليه حالة جون السيكولوجية قبل أن يقع في حب جين ؟ بيد أن سؤالنا ، كيف يبدو المحبّ المقبل ، ليس فيه من المعقولية إلا بقدر ما في إستفسار البنت الصغيرة : « ماما ، كيف يبدو اللص ؟ » فالجواب عسير ؛ إذْ يمكن أن يكون طويلاً أو قصيراً ، سميناً أو نحيلاً ، أشقر أو أسمر . وبالمثل ، فإن من الصعب القول كيف كان

يبدو توم ، أو ديك ، أو هاري(*) قبل أن يصبحوا مُغْرَمين .

ومع ذلك ، فإن من الممكن عموماً توصيف السمات الإنفعالية لهذه الحالة . ثمة شعور معين بالحنين Nostalgia ، والقلق والإستياء لدى جون ، توم ، ديك ، أو هاري . وهو لا يعي بالضرورة هذه الحالة . وإذا ما وعاها فإنه قد يجد لها كثيراً من الأسباب ، فقد يقول أنه غير راضٍ عن عمله أو عن وضعه في العائلة ، وإذا ما كان شديد الإستبطان (**) Introspection ، فقد يكتشف أن جذر متاعبه لا يكمن في الظروف الخارجية بقدر ما يكمن في عدم رضاه عن ذاته . وعبر ممارستي ، كنت أجد على الدوام ، كلما إستطعت النفاذ إلى الحالة الإنفعالية ، أنّ الغرام ينمو على تربة عدم الرضا عن الذات .

إن القلق ، والفزع ، والإستياء الملحوظ قبل بزوغ الحب هي أعراض ثابتة في سيكولوجيا هذه الحالة . وهي طرف الخيط الذي يفضي إلى لبّ الإشكالية . ومهما اختلفت الحالات باختلاف الأفراد قبل أن يجدوا أنفسهم مغرمين ، فإن السمة المشتركة هي هذا الإستياء . وبالطبع فإن عمق هذا المزاج Moodيتنوّع إلى أبعد حدّ ، من الإضطراب الخفيف إلى الضيق الحاد ، ومن الإنزعاج الذي نادراً ما يُحسّ إلى الزلازل الإنفعالية . لقد وقع روميو في حب جولييت كردّ فعل مباشر على إخفاقه مع روزالين . وقبل أن يلتقيَ جولييت كان ضحيةً لسوداوية Melancholyعميقة .

الحب فرار من الذات ، ترياق للنفور منها ، وفي بعض الأحيان ترياق حتى لكره الذات الذي يشعر به المرء . إن جون ، توم ،.ديك وهاري يريدون الإبتعاد عن ذواتهم ؛ وإيجاد ملاذ لهم في الغرام لأنهم تعبوا من كونهم أنفسهم . أما إذا كانوا راضين عن ذواتهم ، فإن الحب لا يمكن أن يمسّهم .

إن حالتهم قبل أن يَفِدَ الغرام إلى حيواتهم هي حالة حرجة ، لها طابع الأزمة

* ـ اسماء انجليزية شائعة ، تُستخدم كما نستخدم اسميّ زيد وعمر في العربية .

** ـ الاستبطان ، فحص المرء أفكاره ودوافعه ومشاعره .

الداخلية . وفي هذا الوقت تظهر مسألة القيمة ، لأن الإشكالية التي يواجهها كل هؤلاء الأشخاص ، مع أنهم لا يدركونها عادةً ،هي إشكالية التقييم الذاتي . ترى ، ما هو سبب عدم رضاهم عن ذواتهم ؟ إنهم يشعرون بالإحباط بصورة لا واعية إذْ يقارنون ما هم عليه مع ما يتمنون أن يكونوه ، وما أنجزوه مع ما يرغبون بتحقيقه . ويشعرون بالإحباط بصورة لا واعية إذْ يخشون من أنهم قد أخفقوا ، ويجدون أنفسهم عاجزين عن بلوغ ما توقعوه لأنفسهم .

كتب باسكال مرة أن النفس كريهة (« Le Moi est haissable ») . ويبدو أن مثل هذا الشعور بالنفور من الذات أو حتى كرهها يظهر دورياً لدى كل من يترعرع في نموذجنا الثقافي . وظهور هذا العامل الإنتقادي الذاتي وتكرّر ظهوره هو سمة لها دلالتها لدى الأشخاص الطمّاحين الذين يتشددون على أنفسهم بالمطالب . إن سوء ظن المرء بنفسه وعدم ثقته بها ، والشعور بالنقص ، والرغبة بذات أفضل هي خطوات تمهيدية ضرورية لتطور الحب ، والذي هو محاولة لإعادة توطيد تقدير المرء لذاته . أما إذا كنّا راضين عن أنفسنا ،فلماذا ننشد ذاتاً أخرى أفضل ونسعى خلفها ؟ والحب يعقب النفور من الذات . وهو يتلو الهمود وفي بعض الأحيان يتلو اليأس[1] . ومن خلال

1 ـ عبّر الشاعر الفلسفي أندريو مارفل عن هذه المشاعر في قصيدته « تعريف الحب » منذ حوالي أربعمائة سنة مضت :

كمولد النفيس والغريب
حبّي نادر المولد :
عن اليأس منفطر
وعبر المستحيل .
وحده القنوط الرحب
أراني شيئاً فائقاً كهذا
بينما الأمل الواهن لم يقوَ أبداً على الطيران
وعبثاً ظلّ يخفق بجناحيه المبهرجين .

شدّة الحب يمكن لنا أن نقدّر قوة الشعور بالنقص والتي دفعت النّواس في الإتجاه الآخر .

إن عدم الانسجام ضمن الذات مشروط بمقارنة لا واعية بين أنانا الفعلي والشخص المثالي الذي نودّ أن نكونه ، والذي هو أكثر وسامة ، وأفضل ، وأذكى ، وأشجع ، وأكثر فعالية مما نحن عليه . وكل واحد تقريباً يخلق في أواخر طفولته صورة لمثل هذه الذات الأسمى ، والتي ندعوها مثال الأنا Ego– ideal · وهذه الذات الخيالية ، هذا الشخص الذي ليس نحن بل ما نودّ أن نكونه ، ليس من خلق الذات وحسب ،وليس مجرد نتاج لتخيّل الفرد . فثمة أشخاص محددون في حياة كل طفل يتخذهم بمثابة نماذج ـ مثلاً ، الأطفال الآخرون الذين يمتدحهم الآباء والمدرّسون والذين يبدون كما لو أنهم قد حازوا على الفضائل كلها وحققوا كل ما هو بعيد عن المتناول . وفضلاً عن هؤلاء الأشخاص الواقعيين ، فإن أشخاصاً متخيَّلين يؤثرون على الطفل من خلال قصص الأطفال وكتبهم . وتصبح هذه الشخصيات القصصية موديلاتModelsيودّ الطفل أو المراهق أن يصوغ شخصيته على غرارها . ونحن ندعو هذه الشخصيات موديلات الأناEgo – Models .

وتسبق موديلات الأنا خلق مثال الأنا وهي ، بعبارة أدقّ ، الأسلاف الواقعية أو المتخيَّلة للمثال الأسمى ، الذي لا يُطال . وثمة أنتقال سهل من موديل الأنا إلى مثال الأنا . ونحن جميعاً نصرف طاقة انفعالية مُعتبرة خلال قسط كبير من عمرنا جاهدين لمضاهاة هذا المخلوق المتخيَّل ، الذات المثالية . إنَّ الأفكار المتعلّقة به تشغل استيهامنا اللاواعي ، حتى لو كنا في بعض الأحيان منصرفين ومنكبّين على تحقيق غايات الحياة اليومية . نحن نعلم أن لدينا نواقص ، وأخطاء،ومواطن ضعف ، ونحن مستعدون لتقبّلها إلى هذا الحد أو ذاك . أما في استيهامنا ، والذي نحلم خلاله بمثال الأنا ، فإننا نبلغ مرتبة الكمال . فمثال الأنا هو ذاتنا المرغوبة . وسوف تشغل الحبيبة مكانه لاحقاً ؛ فهي انتقاله إلى الحياة الواقعية . وهي الحلم بذات أسمى وقد تحقق . وهي تنجز بشخصها ما لم نستطع نحن بلوغه . فيها يصبح الاستيهام مجسَّداً . فموضوع الحب

يتمتع بتلك الخصائص التي نفتقر إليها على نحوٍ مؤسٍ ، يُفلح حيث نخفق ، ويحقق الآمال التي أنكرناها على أنفسنا . إنّ ذلك النوع الخاص من الحنين والذي ندعوه حباً يواصل التشوّف إلى ذات مثالية .

بيد أننا استبقنا ذروة التطور الانفعالي . نحن لا نزال في ميدان الاستيهام ؛ أما الواقع ، ومعه تحقق هذه الأحلام ، فلا يزال نائياً . وفي بناء مثال الأنا نحن مقيدون إلى الشعور بالفجوة بينه وبين ذاتنا الفعلية . وكلما كنّا أكثر طموحاً ، كلما ازدادت حدة شعورنا بالهوة التي تفصلنا عن أن نصبح هذه الشخصية الحلمية . وتبينّ الخبرات التحليلية كيف تحلّ شخصية الحبيبة لاحقاً محلّ الرغبة بذات أفضل . ويمكن لنا دراسة هذا التطور في قصة نشوء الحب لدى الأطفال . وتتذكّر شابة متزوجة كم كانت متيّمة وهي بعدُ طفلة بفتاة أخرى . كانت معجبة بها وتودّ البقاء بقربها دوماً ، ومع ذلك فقد كانت في الوقت ذاته تخجل أشدّ الخجل من مقاربتها ، وتشعر أن قلبها يخفق حين تنظر إليها الفتاة المحبوبة ، وهلمجرا . ولقد اعتادت قبل النوم أن تستحضر في مخيلتها صورة تلك الفتاة وعلى الدوام كان حلم اليقظة السعيد هذا يبزغ باستيهام أنها هي نفسها ستنهض في الغد وعلى رأسها تلك الخصلات الذهبية بدلاً من شعرها الغامق .

في آلاف الأمثلة كهذا المثال ندرك أن المحبوب هو بديل Substitute ، إنه الوريث لمثال الأنا . فهذا المثال ، وقد انزاح من ذات خيالية إلى شخص متخيَّل ، يتثبّت في النهاية على شخص واقعي بخصال « نادرة في روعتها الفريدة ، ومدهشة في تضافرها » . وهكذا فإن الوقوع في الحب يعني أسْرُ صورةٍ متخيَّلة Capture Of Image فالموضوع تمّ خلقه قبل أن يظهر ؛ وكان حاضراً في الاستيهام قبل أن يتواجد في الواقع . وليس ثمة حب من أول نظرة لأن كل شيء كان مُعدّاً من الناحية السيكولوجية . والوقوع في الحب يعني ملاقاة الصورة المتخيَّلة . وهذه الصورة هي التي تملي اختيار الحب . فدانتي لم يتعرّف ببياتريش أبداً ، وبترارك لم يعرف على الاطلاق لورا التي كتب لها سونيتاته المشبوبة . ومارك توين وقع في حب صورة فوتوغرافية لفتاة لم يرها في حياته .

إنّ الصورة الحلمية لشريكنا المقبل تعيش وجوداً مديداً ،مبهماً . فنحن جميعاً كنا في البدء نحبّ الحبّ . والانتقال من الصورة المثالية إلى الموضوع الواقعي هو سيرورة يسيرة وغير حرجة ، خاصة لدى الرجال . ولقد شكت فتاة كانت قد رأت شاباً محدداً مرة واحدة من أنها تتمنى لو أن بمقدورها وضع حدٍّ لأحلام اليقظة المتعلقة به . « لا أعرفه ؛ وليس لدي عنه سوى القليل كي أنشغل باستيهامات تدور حوله . إنني استبق الواقع إلى حدٍّ كبير . لعله ليس كما أتخيّله . أريد أن أقابله ثانية فعليٌ أن أعرف كيف وإلى من تتجه أحلام يقظتي » . إنَّ هنا بعض الواقعية في قلب الشعور الرومانسي . أما الكثير من الشباب الذكور فهم أقلُّ واقعية ، ولكن موضوع الحلم يكون موجوداً لدى كلا الجنسين قبل الموضوع الواقعي ، وحضور الحلم يولّد أمنية وإرادة لقائه مجسّداً . إنها رغبة شبيهة برغبة كاتب مسرحي يريد رؤية الشخصيات التي تصوّرها تظهر وتتحرك على الخشبة الواقعية . أما رافع الستارة عن مثل هذا العرض فهو دوماً تشديد حلم اليقظة المتعلّق بمثال .

تضارب الإرادات

لطالما وصف العشاق والشعراء انفعالات المحبّ لدى مصادفته المحبوب وصفاً مشرقاً نابضاً بالحياة بحيث لا يمكن لنا أن نجاري هؤلاء المختصّين . ونحن نود بالأحرى أن نفهم السيرورة اللاواعية التي تفضي إلى بداية الهوى . ولقد ميزنا في الأطوار التمهيدية بمثابة عوامل حاسمة عدم الرضا عن الذات الناجم عن عدم تحقيق المتطلبات الداخلية ، وخلق أناً مثاليّ ، وانزياحه إلى شخص متخيَّل . وعندما تتّسع الشقة بين الذات والمثال ، وعندما يزداد التوق والحنين إلى هذا المثال ، فإنها تكون اللحظة التي يبدو فيها موضوع واقعي جديراً بعاطفتنا ، وخليقاً بأن يصبح تشخيصاً لأحلام يقظتنا السرية . وقد تكون مزايا هذا الشخص واقعية أو متخيّلة ؛ فهذا التمييز ليس مهماً . ونحن جميعاً نعرف شباباً تظهر لهم إوزّاتهم دوماً على أنها بجعات . وهاهو الشبح المتصوَّر منسبقاً يتجسّد الآن لدرجة أن طبيعته لا يعود ممكناً إدراكها باعتبارها تخييل Imaginary[1] .

تظهر القيم المتفوقة لدى المحبوب جدّ جلية وطاغية بحيث أن نوعاً من الدهشة العاجزة قد يكون هو الشعور الأول لدى الشباب ، إعجاب لا يجرؤ على مقاربة الموضوع ويُقصي المقارنة مع الذات . أما التفحّص التحليلي النفسي لهذه الحالة فقد يكشف لحناً لا واعياً مصاحباً لهذه الثيمة Theme ، لحناً من الحسد والتملّك ، ضرباً من

1 ـ « المجنون ، والعاشق والشاعر جميعهم مصنوعون من الخيال » . (شكسبير) .

الجشع ، ورغبة بحيازة الموضوع ، واستدماجه Incorporation مع مواهبه الطبيعية إلى الذات . وعندما تظهر مثل هذه السمة ، يصبح واضحاً أن الشخص الذي تريده هو الشخص الذي تريد أن تكونه . وقد يبدو غريباً أن يبدأ الحب بصورة لا واعية بمثابة حسد وغيرة ؛ لكن ذلك لا يبدو بمثل هذه الغرابة حين نأخذ في الحسبان ما سلف : الإحباط الداخلي لدى الشخص ، الإحساس بنواقصه وعدم جدارته ، النفور من ذاته ورغبته بذات أفضل . إن الحسد لهو الجانب غير الملحوظ من الإعجاب الذي يثيره المحبوب . ويمكن القول أن الحب ينبثق من روح الحسد والغيرة اللاواعيين .

أليس هذا الشخص الآخر كل ما تبغيه ؟ أليس مدهشاً أن يكون هو أو هي ؟ إنَّ الفرد الذي يريد التخلّص من ذاته المنغِّصة يودّ أنْ يتبادل الأمكنة مع هذا الشخص الذي يثيرْ إعجابه . وهنا الحدّ الذي يتمّ عنده تصور الغرام ، وتصوّر الحب الحقيقي فضلاً عن الافتتان ، والذي هو سرابه(*) . إن الحب الذي لا يكلّ عن العطاء كان مرة ، وفي منشئه الخفيّ ، حافزاً للإنتزاع ، لحيازة وتملّك مزايا الموضوع النفسية والجسدية . والحب هكذا هو التغلّب على هذه النزوعات اللاواعية من الحسد ، والغيرة ، والجشع ؛ محاولة ناجحة لتجنيب الذات مشقّة هذه الانفعالات المتزايدة . ولقد استبق غوته هذا التبصّر السيكولوجي حين قال : « في مواجهة التفوق الكبير للآخر ما من دواء سوى الحب » . وبالطبع فإن الغرام لا يشير إلا إلى مخرج واحد فقط من مخارج هذه الحالة الانفعالية المتوترة . وثمة مخارج أخرى - مثلاً ، الكراهية ، أو صرف الاهتمام ، أو عدم الاكتراث بمعنى آخر .

عند التفحّص التحليلي لبدايته اللاواعية فإنَّ الحب لا يبدو ذاك الانفعال السكّري العذب الذي تشتمل عليه حكايات الغرام ؛ فثمة حسد ، وغيرة ، وتناول للموضوع بروح السلب Rapacity واشتهاء ما هو للغير . يريد المحب أن يعانق محبوبته ويعاملها بحنان ، لكن النزوعات اللاواعية الأولى هي الطمع ، ورغبة الاستيلاء عليها

* - fata margana .

وامتلاكها ، وإجبارها على أن تكون له . وتشتد هذه الدوافع وتصبح أكثر إلحاحاً إذا ما قوبلت بفتور واقعي أو مُصطنع من قبل المحبوب ، ذلك أنّ المحب لا بد أن يشعر بشدة التعارض بين موقفه الانفعالي وموقف الموضوع . قال شاب عن فتاة كانت تبدو متحفظة : « إنها تجعلني أشعر بالصغر وعدم الأهمية » . وقالت فتاة عن رجل : « كيف يجرؤ على مثل هذه الثقة بالنفس » . إن الإهمال البارد ، وعدم الاهتمام الفاتر ، والنأي والتدمير الهادىء للموضوع المفتون تفعل فعلها في الرجل لا باعتبارها منغّصات تبعد عنه ما هو راغب فيه كلما حاول بلوغه وحسب ، بل باعتبارها تحدياً يواجهه بالضبط . إن عدم تأثر الفتاة بالاهتياج والاضطراب اللذين يشعر بهما في داخله يوقظ لديه أمنية أنْ يغمرها برغبته الخاصة : « سوف تستيقظ وتغنيّ ! » إنها لا تبدو رابطة الجأش ، واثقة من نفسها ، ومكتفية بذاتها وحسب ، بل وأيضاً عصيّة لا تُطال ، وهذا الموقف يثير لديه كل نزوات الانتزاع . ولقد دهش رجل فكّر بفتاة محددة عندما تمتم : « سوف أجعلها ؛ أقسم ، سوف أجعلها تحبني » .

إنه الآن يشعر بالتوتر القائم من قبل في داخله بمثابة توترٍ بينه وبين الموضوع . وأؤكّد أن هذا التوتر هو واحد من الشروط السيكولوجية الأساسية لتطور الغرام . فمن دونه قد تثير المحبوبة كثيراً من الإعجاب ، والودّ ، والتعاطف ، والرفقة والانسجام ،لكنها لا تستطيع أن توقظ مشاعر الغرام . ومن دون هذا التوتر يمكنك أن تفكر بإمرأة إلى حدّ العبادة ، لكنك لن تشعر بها مثل فيروس ينغل في دمك . فهذا التوتر الخلّاق هو بمثابة شرط مسبق لازم للغرام ، لدرجة أن تجدده ودوامه هو الذي يحفظ وجود هذا الأخير . أما حين لا يوجد مثل هذا التوتر الخلّاق ، فإن من الممكن أن يكون هنالك حافز جنسي ولكن ليس ثمة حافز للحب ،ليس ثمة هذا الشعور المحدَّد ، هذا الترقّب الذي يقطع الأنفاس ،هذا الوعد بالسعادة المسمّى غراماً . إن الحب محاولة لتجسير الفجوة بين شخصين ، بيد أن الحاجة للجسر تؤكّد على وجود هذه الهوّة .

يبدو أن لمسة الفتور والنأي تعزّز هذا التوتر ، ولعلّها واحدة من الشروط التي تساند تطوره ، فضلاً عن إثارتها لرغبة الانتزاع . ولقد رأيت خلال الأعوام ، القليلة

الأخيرة كثيراً من الفتيات ، طموحهن الكبير هو أن يكنّ خليلات جاهزات لتمشية حال الرجال Rough and ready . ويبدو أنهنّ يفكّرن بأنّ من الضروري أن يكنّ جدّ ودودات مع الجنس الآخر ، وأنْ يمحين الفوارق النفسية بين الجنسين ، ويستخدمن لغة سوقية بل ويحكين الحكايا الوسخة كي يجذبن الرجال . وبإعتقادي أنهنَّ مخطئات وأنهن يُطِحْنَ هكذا بفُرَصِهِنّ مع الشباب بصورة لا واعية . فالألفة التي ينشدنها لا تقتضي توليد قلّة الاحترام بل على العكس ، فإنها قد تولّد رفقة طيبة وعلاقة أخوية رائعة ، ولكن من المؤكد أن هذه ليست الحالة الانفعالية التي ينبثق منها الغرام . فغياب التوتر الخلّاق يحوْل دون تطور الغرام أو يقضي عليه في المهد . وان تكوني صديقة شاب لهو شيء جميل ، ذلك أنه يمكنك مقاسمته كل ضروب التجارب والمغامرات ، ولكن ليس تجربة الحب الأرقى . والحب ينتهي إلى الإتحاد النفسي ، بيد أنه يبدأ من إدراك شكل محدد من أشكال الاختلاف .

إن الخطوة التي لا يمكن تفاديها في تقدم الحب هي التحول عن الحسد اللاواعي الذي يجد فيه الهوى واحداً من جذوره . فإذا لم يختف الحسد ، فإنه يؤدي إلى مشاعر العداء . ما من حسد ودّي . فهذا الانفعال يشتمل ضمناً على كل بذور الكراهية ،خاصةً حين لا يكون المرء راضياً عن نفسه . وهذا النوع من الحسد هو مواصلة لشعور مستمدّ من فترة الحضانة وأفضل ما يعبّر عنه هي عبارة « أنا أيضاً » التي غالباً ما نسمع الأطفال يتلفّظون بها . وهو يتحول بسرعة إلى نقمة على الآخر المتمتع بامتياز . وهكذا فإن الطور التالي من التطور اللاواعي يتّسم بالعداء تجاه الشخص « المحبوب » . والعداء ، أو الكراهية ، هو سَلَفٌ لا واعٍ للحب ،على الرغم ، بالطبع ، من أنّ العاطفة قد لا تعقبه بالضرورة[1] .

---

1 ـ لعل من المفيد أن نتذكر أن هذا المفهوم الذي يبدو فيه العداء بمثابة السلف اللاواعي بالضرورة للحب . يفترق بصورة حاسمة عن فكرة التجاذب الوجدانيambivalence في التحليل النفسي .

بضغط من الحسد تُجرى محاولة مركَّزة للحطّ من قيمة الشخص المحسود والذي
محطّ إعجاب ، وللإقلال من شأنه في أفكار المرء ، وتلطيخ صورته ، التي تهدّد
ـصاء كل ما عداها والتحكّم بالنفس على نحو كليّاني Totalitarian . وفي بعض الأحيان
تتكلّل هذه الثورة الانفعالية ضد ديكتاتورية شخص واحد بالظَفَر ، ولكنها غالباً
تكون محاولة عقيمة للحفاظ على حرية المرء وإستقلاله . ويحدث أحياناً ـ وكثيراً
يصوّر كتّابنا المسرحيون وروائيونا هذه الحالة ـ أن يؤدي الصراع الداخلي حتى إلى
ـارب مُعْلَن لإرادة المحب وإرادة المحبوب ، وإلى مشاهد عنف . ومن الممكن للحقد
ـاري أن يُنشب أظفاره بين شخصين قُدِّرَ لهما أن يكونا حبيبين وقد يخلق جواً شبيهاً
الك الذي يسبق العاصفة . ففي بعض الأحيان لا يكون هنالك سوى ترقّب صامت
ـن الإثنين ، كل منهما يناور من أجل إحتلال موقع أفضل ، ويناوش تحقيقاً لمنفعة .
ـكن مقارنة كرّهما وفرّهما بحركة الثنائي الراقص . فعندما ينقل الرجل ساقاً إلى
ـمام ، تبعد المرأة ساقها إلى الخلف ، والعكس بالعكس . وفي هذا الوقت يمكن
ـعور بإرادة الانتزاع والهيمنة على نحو لا واعٍ . ومن ثم فإنّ من المستحيل غالباً أن
ـدد ما إذا كانت هذه الحاجة أم التوق الشديد للحب هي الحاجة الأقوى .

غالباً ما تخفق محاولة صرف الصورة Imageمن إستيهام المرء لأنّ قوتها أصبحت
ـديدة جداً . وإذاً فإن هذه هي اللحظة المناسبة للقيام بهجوم مضاد وبالطاقة القصوى
ـن قبل النزوعات المعاكسة . إن موجةً مضادةً تغمر الشخص وتطغى عليه ، وذلك
ـلباً حين يشعر أنه قد صار آمناً ،بعيداً عن الخطر . إنّ الرجال والنساء (والرجال
ـثر) يهدهدون أنفسهم إلى مثل هذا الأمن الغادر قبل فترة قصيرة من أخذهم على حين
ـرّة . وفي بعض الأحيان يبلغ تمنّعهم عن الاستسلام لهواهم حد حماية الذات .
« هروب إلى الأمام ») . ولقد قالت فتاة في مثل هذه الحالة : « أعلم أنني لا أريد أن
ـبه ، لكنني أتمنى أن لا أفكّر فيه كثيراً إلى هذا الحد » . وفي بعض الأحيان ، حتى
ـوف من الوقوع في الحب يأتي متأخراً جداً . أشبه بشخص في زنزانة ينتابه الذعر إذ
ـكّر أنه موقوف .

إن أثر الهجوم المضاد العنيف هو كنس كل المشاعر السلبية ، وإنتصار الحنان والعاطفة . وسرعان ما يزول كل أثر يدلّ على أن الحب لم يحرز نصره إلا بعد معركة مريرة في العالم السفلي .

جوهر الغرام

يبدو الغرام ، في أوجهِ وفي إكتماله ، كما ندرسه لدى جون وجين ، وكأنه يطمس كل الأطوار السابقة ، ويمحو كل المصاعب والعثرات الموجودة ضمن الأنا . فالرغبة القديمة برقيّ الذات ، وبذاتٍ أفضل ،وأنبل ، تكون قد اختفت أو بالأحرى تحققت في الشخص المحبوب . لقد أصبح الأنا أخصب وأرحب . ولم يعد ضرورياً للمرء أبداً أن يكون كاملاً بذاته فموضوع الحب يظهر بوصفه تشخيصاً للكمال . وما من سبب ، بعد ، لعدم الرضا عن الذات وعن القسمة . بل على العكس ، فإن المحبّ يعتقد أنه « شخص محظوظ » . ألم يحظَ بكنز لا يستحقه ؟ إنه يشعر بإتّضاع Humilityلم يكن يعلم أنه قادر على تحمّله ، مع أنه يشعر بالزهو والافتخار في الوقت ذاته . ولقد قالت بنت وقعت في الحب للمرة الأولى مخاطبةً أمها : « أشكركِ لأنك وهبتني الحياة » . فباكتساب ذات أفضل ، يمثّلها الموضوع ، يبدو المحبّ متفوقاً على نفسه . ويشعر أن في داخله ذخيرة عظيمة من القوة والطاقة التي لم ينتفع بها من قبل ، كما يشعر بنهوض مفاجىء في الأنا . إنها فرصة جديدة للعيش ناجمة عن الإقدام وعن الثقة بالنفس وما أنجزته . وفي ظلّ سلطان هذا السحر وطغيانه ، يختفي الحسد والجشع . فمن يحبّ يودّ أن يعطي ، وتبدو شهية العطاء لديه مفتوحةً لا تنضب . ويخلي العداء المكان للحنان ؛ والحسد للودّ .

والسؤال الذي يهمّنا هنا هو : هل يبلغ الفرد هدفه (أو هدفها) السيكولوجي في الغرام ؟ هل ينال ما تمنّى الحصول عليه ؟ هل يحلّ الغرام الإشكالية التي نغّصته بصورة لا واعية ؟ إنْ كان يفعل ، فإننا لندرك أيّ إسهام عظيم هو إسهام الحب في السعادة

البشرية ، وندرك لماذا يمضي جون وجين ، وآلاف الثنائيات مثلهما ، متألقين ومشرقين بكل الرضا . لقد رأينا جون في البداية غير راضٍ عن نفسه ، بصورة لا واعية ، لأنه لم يرتفع إلى مستوى متطلباته الداخلية الخاصة ؛ ومن ثم رأيناه حاسداً لجين ، حاسداً لمواهبها ، وهدوئها ، وثقتها بنفسها . ولقد لاحظنا أن الضغينة والنقمة التي يشعر بها تجاهها في لا وعيه ، والتي هي شديدة الشبه بما يعتمل لدى المُعْدَم تجاه الثريّ ، هي حافز لإنتزاعها والهيمنة عليها . وهذه الانفعالات لا يظهر إي منها على السطح بعد . فقد غمرتها الموجة المضادة وبدا كما لو أن الاكتمال بالغرام يعني الإقلاع عن كل هذه المطالب اللاواعية .

ولكن لو نظرنا إلى ما هو أعمق ، إلى ما تحت السطح النفسي ، فسوف نلمس أن هذه الانفعالات قد غُمرت ولكنها لم تُطْرَد . فأهداف الحب يتمّ بلوغها بطريقة حاذقة ن خلال نوع من التسوية السيكولوجية . ولقد قلت من قبل أن عدم الرضا الداخلي ن الذات يتلاشى لأن المحبوب شغل مكان الذات الأفضل المرغوبة . وتحقّق مثال الأنا بالوكالة Byproxy . وتم إشباع الرغبة بإمتلاك الموضوع بواسطة الشكل اللطيف للغرام . كما بلغت نزوة الانتزاع هدفها . وعن طريق إلتفاف لا واعٍ ، تحققت الرغبة في جعل الشخص المحسود والمثير للإعجاب ملكية خاصة . وفي هذا الوقت يتمّ الشعور بالإنسجام الصارخ لدرجة أن العاشقين يؤكدان أنهما ليسا شخصين إثنين أبداً وإنما شخص واحد وحيد . وفي هذا التوحّد ، هذا الاندماج النفسي ، تتكلّل بالظفر النزوعات الخفية على الرغم من أنها الآن مغمورة . فهذه النزوات المهزومة تواصل وجودها على نحوٍ خفيّ وتشكل حركة سرّية بينما يحكم الحب . وهي مستعدة دائماً للظهور إذا ما ضعفت هذه الحكومة . وتتجلّى قوتها حين يفشل الغرام ، وحين يعاود الشخصَ عدمُ الرضا ، عن المحبوب في البداية ، ومن ثم عن نفسه .

يمكن للوهج أن يخبو وكأنه لم يكن أبداً . كل أمارات الحب يمكن أن تكون موجودة دون انفعالاته . ويمكن عندها مقارنة مشاعر المحب بمشاعر رجل يواظب على الكنيسة بعد أن ألحد . ولقد قال رجل أثناء التحليل : « إنه عصر آخر ذاك الذي قبّلتها

فيه ، أو أنني كنتُ واجداً آخر » . يمكن للأحلام العذبة أن تنقلب الآن إلى كابوس . ويرتدّ النوّاس ، وتنتعش معه من جديد كل المشاعر القديمة : يظهر العداء مرة ثانيةً ، وشهوة الهيمنة ، وأخيراً الحسد والغيرة . ولن أعالج هنا هذه الأطوار ، فقد سبق لي أن عالجت سيكولوجيتها في كتاب سابق .

علّق الكاتب الفرنسي بول جيرالدي مرةً أن قصة علاقة الحب « هي دراما معركتها مع الزمن » . ويبدو أنّ الزمن يقف عادةً في صفّ النزوعات المكبوته وأنّ الغرام لا بدّ أن يَفْسَد . وفي بعض الأحيان يبقى الحب على قيد الحياة بينما يتبخّر الهوى . ويحدث تحوّل إلى الرفقة والصداقة ، قد تبقى فيه من الغرام السابق أشدّ السمات نفاسةً . وعند هذا الحد ، فإن التوتر الخلّاق ، الذي إنبثق منه الحب ، يتضاءل إلى حدّه الأصغري . وبدلاً من الشعور المشبوب فإنّ الثنائي الآن يرعى أحدهما الآخر ، وهذا إنفعال من نوع مختلف ، أكثر رسوخاً ودواماً .

لقد بلغنا الآن نقطة حيث يمكن أن نجيب على بعض الأسئلة ا لتي أثارت فضولنا . ما الذي يجعل الحب ضرورياً ؟ لقد أضحى ضرورياً مع التطور الثقافي للشخصية . ولقد ارتبط صميمياً بالتطلّب المتزايد الذي يفرضه المرء على نفسه ولا يستطيع أن يحقّقه . وتنشأ الرغبة بالحب من الشعور بأنني تعبت من كوني نفسي . ومكان مثال الأنا والذات الأفضل الخيالية ، يقبل المحبُّ موضوع الحب بمثابته تحققاً لأحلام يقظته . فالحب ليس نشداناً للذات ، بل للذات الأفضل . ولا يمكن لهذا الهوى أن ينشأ لدى الفرد إلا بعد أن يصبح قادراً على تمييز قيم أسمى لدى الآخر . وكل من يميّز على هذا النحو لا بدّ أن يكون قد بلغ مسبقاً مستوىً ثقافياً معيناً . ومن دون هذا التمييز ومن دون الرغبة بإمتلاك هذه القيم الأسمى ، ما من شخص يمكنه أن يقع في الحب . وليس هنالك تقييم مماثل يؤثر على الرغبة الجنسية ، التي هي ، تبعاً للنظرية التحليلية النفسية ، منشأ الحب .

طابع الغرام قريب من طابع الطموح ، تلك الزلّة التي بها تهلك الملائكة . فهو قائم على رغبة مُتْلِفة لدى المرء في كسب مكانة رفيعة ، وتحقيق مقصد سامٍ ، والسعي

لأن يصبح أفضل بكثير مما هو بالفعل»[1] . وفي بعض الأحيان يدرك بعض الأشخاص جيداً أن الطموح الأصلي المتعلّق بذواتهم يحلّ محلّه في الحب هذا الطموح الآخر . ولقد قالت لي فتاة منذ بضعة أيام : « إنْ لم يكن بمقدوري أن أكون شيئاً ما أنا نفسي ، فإنني أريد الزواج من شخص يمكنه أن يكون كذلك » . ونحن لا نقدّر جيداً الدور العظيم الذي تلعبه في حضارتنا حاجة النساء الانفعالية لأن يكنَّ فخورات برجالهن . فمعظم النساء يشعرن بخطأ أن يحببن من يحتقرنه ، ويخجلن من التورط الانفعالي مع رجل لا يحترمنه فينقمن عندئذٍ على الرجل وعلى أنفسهن . وما كل شمعة تريد أن تمنح الضوء ، ولكن كل شمعة تتمنى أن تسطع . والحب يزيح أهمية الذات وإكبارها إلى إهتمام بالموضوع ، الذي يصبح الآن هو الشخص الهام إلى درجة التضحية بالنفس من أجله وإنكار كل سعي وراء الشرف الشخصي . ولا يمكن أن يكون مصادفة أننا نستخدم تعابير متشابهة للحب والطموح الجامحين : إفترسه أو أتلفه الطموح ، طموح جامح ، وهلمجرا . إنه اللهب ذاته ذاك الذي يتأجج في كليهما . وتفسّر هذه القرابة أيضاً لماذا لا يمكن للحب والطموح بلوغ غاياتهما في الوقت ذاته . فهما قوتان متنافستان . ومَنْ يبقى شديد الطموح لا يمكن أن يكون عاشقاً مولهاً . ومن يقع في الحب يتخلّى في الحال عن طموحه إلى بلوغ الأنا المثالي . ويستبدل بهذا الطموح طموحاً آخر ، طموحاً إلى انتزاع وامتلاك موضوع الحب الذي حلّ محلّ مثال الأنا . صحيح أنّ بمقدورك أن تعبد أرباباً عدّة ، بيد أنك لا يمكن ان تعبدهم بنفس التكريس والحماس . ولعل هذه الألفة بين الحب والطموح تساعدنا على أن نفهم لماذا يمتاز التوق الشديد للحب لدى الرجال بطابع أشدّ عنفاً بكثير منه لدى النساء ولماذا لا يمكن لهذا التوق ، بالرغم من ذلك ، أن يغطّي كامل محتوى حياة الرجل . وفي جميع الأحوال فإن الحب مرتبط بالطموح بصورة أكثر صميمية من إرتباطه بالحافز الجنسي .

---

1 - في كتابي السابق ، نظرات سيكولوجي في الحب ، أكّدت على التشابه بين الحب والتعصب الفني والديني . ولم أكن مخطئاً في تمييزه على هذا النحو . فهو عضو في هذه العائلة ، ولكن الطموح هو أقرب الأنسباء إلى الحب .

قارن أحدهم الحب الأفلاطوني ببندقية لا نعلم أنه معمرة .حسناً ، إنَّ ذلك ليبدو طريفاً ولا بد أنكم ستبتسمون ، كما هي العادة ، عندما تفتضح فكرة طنانة رنانة .بيد أنكم ستدركون حين تستعيدون جديتكم أن هذه ليست دعابة مليحة . فأنتم تعلمون أن ما يدعى بالحب الأفلاطوني ليس المثال Ideaكما يظهر في محاورات أفلاطون ، بل هو بعيد عنه ، وأنَّ الحب ، بالمعنى الذي نعطيه إياه ، لا يمكن أن يتسم بمثل هذا الخطأ . فترافق الحب في معظم الحالات مع الرغبة الجنسية ليس له علاقة بطبيعة الحب ذاته . والكيميائي الذي يدرس التحام مادتين سوف لن يؤكد أنهما المادة ذاتها أوأن لهما نفس الخواص . فأُلفتهما لا تعني أنهما متطابقتين أو أن لهما الصيغة ذاتها . والحكم الخاطىء على الحب بأنه جنس مكفوف الهدف بناءً على هذا الترافق الحميمي كان واحدا من الأخطاء القاتلة في التحليل النفسي . وسوف تكون مهمتناهي أن نجد كيف حصل إلتحام الحب والجنس ، ما الذي سبقه ، وما هي النتائج ؟

ويبدو لي أن ما وجدناه حول منشأ الحب وتطوره لا يترك مجالاً للشك فيما يتعلّق بالاستنتاجين التاليين : ليس الحب متأصلاً في الحوافز الجنسية ، وإنما هو نتاج لتطور أنا الفرد ، وخاصة للرغبة برقي الذات وإكتمالها .

الحب ارتكاس انفعالي على إشتداد الشعور اللاواعي بالحسد والجشع وما ينتج عنهما من نزوعات عدوانية وتملّكية تجاه الموضوع . ومن الملائم أن نميّز الحب الرومانسي بمثابته رغبةً بالانتزاع أو حافزاً للتملّك مكفوف الهدف .

لست عازماً على الإجابة على كل الأسئلة المتعلّقة بطابع الغرام وتطوره ، ولكنني بلغت نقطةً في البحث هي أقرب إلى جوهر الإشكالية من محاولات السيكولوجيين السابقة . وحالما تمّ بلوغ هذه النقطة ، فإن أسئلة جديدة تطرح نفسها . ويدرك الباحث أن جهوده ، التي بدت للوهلة الأولى وكأنها قد حلّت المشكلة ، لا تتعدّى ما في كشف أمكنة الإخفاء التي تحجب غيرها عن النظر من إنجاز متواضع . فالبحث يعني نقل علامات الاستفهام من نقطة إلى أخرى .

ثمة أسئلة كثيرة ، قديمة وجديدة ، تجب مناقشتها ، لكن الحيز المتاح لسيكولوجيا

الغرام ضمن حدود موضوعنا هو حيّز محدود . ولذا سوف نهتمّ بإثنين فقط من الأسئلة التي تستحق إهتمام السيكولوجيين . إن الترافق الصميمي للحب والجنس واضح جداً ، ولقد وُضِعَ الجنس ويُوضَعُ على نحو ثابت في المقدمة من قبل المحللين والأطباء النفسانيين ، بحيث غفلوا زمناً طويلاً عن أنّ منشأ الحب هو التربة الداكنة لدوافع الأنا . فقدوم الحب إلى الوجود كارتكاس لارادة الانتزاع والهيمنة ، اللتين يثيرهما الحسد والجشع ، سوف يسم طابعه إلى الأبد . والانتصار على قوى السلب اللاواعية هذه ، والولادة المجيدة من هذه الهيولى Chaos لا يعني أن هذه النزوات الجبارة قد هُزمت مرّة وإلى الأبد . إنها تمضي تحت الأرض ، ولكنها لا تكفّ عن عملها السري ، ولا بد من إرضائها وتسكينها من وقت لآخر . لا بد من عقد تسوية معها . وهكذا نجد خلائط عجيبة من الحنان والهيمنة ، من الحب والقسوة ، التحامات وتحالفات غريبة بين هذين الدافعين المتعاكسين ، فهذان العدوّان القديمان يتوصلان في بعض الأحيان إلى تفاهم على حساب موضوع الحب .

أما الإشكالية الأخرى فتتعلّق بما للغرام من طابع هروبي . « ابرودبابيس ، ابرودبابيس ، حين تتزوج البنت ، فإن عناءها يبدأ(*) » . هل هذا صحيح ؟ ألم تبدأ مشاكلها من قبل ، وحاولت الفرار منها إلى الغرام والزواج ؟ بيد أنها تبدأ عندئذ من جديد . ويجب أن لا ننسى أنّ في جذر الغرام كان ثمة هروب ناجم عن إنعدام الأمن الداخلي وعن عدم الرضا ، وأن الحب لم يصبح ممكناً إلا بالتغلّب على هذا التنافر العميق . فالشخص لا يستطيع أن يحبّ ما لم يستعد شجاعته إلى حدّ معين ـ وبلغة المقامرة ، ما لم يستردّ خسارته . والحب يعيد الطمأنينة ، ويبني الأنا ، لكن الأمن المُسْتَحْصَل على هذا النحو ليس أمناً دائماً[1] . ولقد قالت فتاة أثناء التحليل النفساني :

* ـ مقطع من أغنية. أضاعت الترجمة ما فيها من إيقاع .

1 ـ ليس مفهوماً بَعْدُ جيداً إلى أي حدٍّ يُدار الحب التعيس بصورة لا واعية من قبل الأشخاص أنفسهم من اجل إشباع نزوعات الإثم والعقاب الذاتيين اللاواعية . ويمكن إثبات وجود مثل هذه الإدارة ليس من خلال الاختيار غير =

« حين لا أكون واثقة من نفسي ، فإنني لا أميل إليه البتة » . وقالت أخرى : « إنَّ كوني أكبر منه سناً ، وكوني لست جذّابة أو لدي ما أفخر به يجعلني أتجمّد تجاهه » . وكذلك فإن رجلاً لا يتقبّل ذاته ولا يمتلك ما يكفي من الاحترام لذاته سوف لن يكون قادراً على الحب . مَنْ ليس لديه ما يكفي من الشجاعة والثقة بالنفس لن يكسب عاطفة الآخر . وحده الجَسُور من يستحقّ الحلوة .

الملائم للموضوعات وحسب وإنما أيضاً من خلال الخطوات الخاطئة والأفعال التي تؤدي إلى الهزيمة . إن تصميماً حديدياً على الإخفاق يوجّه كل حركات هؤلاء العشاق التعساء إلى أن يبلغوا في النهاية غايتهم اللاواعية ألا وهي الإحباط . إن لديهم نوعاً من الحاسة السادسة التي تجد دوماً طرقاً ووسائل لقلب كل تجربة حب إلى إخفاق وفشل . إن الحاجة إلى موضوع حب مبخّس هي تعبير عن موقف مازوخي لا واع أو عن تقييم وضيع للذات .

لو أنَّ الحب كان حُبّاً ...

نادراً ما يشكُّ البشر بوجود الحب ، لكن الكثيرين يتنصّلون منه . وخلال سنوات ممارستي الطويلة لم أصادف شخصاً واحداً يؤكّد أنه لم يؤمن بالحب أبداً في حياته . ومعظم الرجال الذين إستجوبتهم أقرّوا أنهم مرة على الأقل ، ولفترة تطول أو تَقْصُر ، وقعوا في الحب ، لكنهم كانوا مقتنعين الآن أن الحب هراء أو شعور صبياني في أحسن الأحوال . ويعتقد بعض هؤلاء أنهم واقعيون تماماً . وحين يؤكّدون أن الحبّ ليس إلا رغبة جنسية خفيّة ، لا يدركون أنّ هذا القول هو أكثر فانتازية من إحدى حكايات ألف ليلة وليلة . ومن الملحوظ أن هؤلاء الناس لا يبدّدون وقتهم بالشكوك وإنما هم واثقون تماماً من كونهم على حقّ . أما بين المثقفين فيتمّ التعبير عن الشكوك بطريقة طريفة . ففي أحد المشاهد من رواية The way into the open لآرثر شنيتزلر ، يسأل كاتب كاتباً آخر : « قل لي ، يانورنبرغر ، أما تزال تؤمن بالموت ؟ فعن الحب لن أسألك أبداً » . ومنذ بضعة أيام ، اقترح كاتب أمريكي بكل جدّية حذف كلمة حبّ من معجم اللغة الإنكليزية لأنها تنطوي على خداع للذات .

إن ثمّة هوة هائلة بين المؤمنين وغير المؤمنين . وما من إنتقال تدريجي ؛ وإنما فجوة كتلك التي بين التقى والإلحاد . وإليكم مقارنة بسيطة نقبسها من المعجم : يقرأ المرء في المعجم معاني العاطفة والحنان المُعطاة لكلمة الحب ، ومن ثم يجد ، بعد بضعة أسطر ، معنىً جديداً لهذه المفردة : « 4) - في عديد من الألعاب (التنس) = صفر للفريقين » .

بيد أنني ، عند الحديث عن هؤلاء الشكّاكين ؛ لطالما أعدت التذكير برجل عالجته في فيينا منذ عدة سنوات .وكنت أسترجع، لا الميّزات الخاصة للحالة ، وإنما جملة واحدة قيلت أثناء الجلسة التحليلية والظروف التي قيلت فيها . كان المريض شاباً ، مثقفاً نمطيّاً جاء إلى التحليل بسبب هُجَاس Obsessionخطير نوعاً ما . وكانت الشكوك التي ترافقت مع عصابه تطال قسطاً كبيراً من حياته ، فضلاً عن علاقته بفتاة تكبره سناً ، ولم تُخْفِ عنه رغبتها في أن يتزوجها . ولقد مرّت هذه العلاقة ، التي بدأت قبل مجيئه إلى التحليل وأصبحت متقطعةً خلاله ، في عديد من حالات الصعود والهبوط كما يحضل عادة عندما يقع شخصان ، كل منهما عصابيّ إلى أبعد حدّ ، ضحيةً للصراع المحتدم بين العداء والعاطفة . ولقد أظهر كل من هذين الشخصين المهذّبين واللطيفين أسوأ ما لديه .

في مؤلّفه مقال في أهواء الحب لاحظ باسكال أن المرء حين لا يحب كثيراً جداً ، فإنه لا يحب بما فيه الكفاية . وتبدو هذه الحكمة مؤثّرة ، ولكننا ، إذا ما تأملناها مليّاً ، سنجد أنها عبارة جوفاء . فالكثير جداً هو أكبر مما فيه الكفاية ، وقد تكون هذه الزيادة مقداراً كبيراً جداً من شيء حسن ولا يلبث أن يتحول إلى شيء مزعج وبغيض . وحب قليل يقطع شوطاً طويلاً ، وكثير جداً من الحب يمضي بعيداً جداً . ومن الواضح أنّ التحدّر الخفيّ للحب من نزوات الجشع والسلب سوف يحدد تقلّباته . فإذا ما بلغ أقاصيه ، فإنه سيتخطى ذاته ويتكشف بكل جلاء كارتكاس للتملّك وإرادة الانتزاع . وعندئذ فإن النزوعات المغمورة تبرز من جديد إلى السطح .

لم تستطع هذه المرأة ، اللائبة على زواج الرجل منها ، أن تحجم عن جعله يعلم كم كانت تشعر بالانجراح من جرّاء إهماله الحقيقي أو المتخيل لها . وشعرت ، وقد وقعت ضحيةً لميلها Inclination العنيف ، أنّ معاناتها من عدم اهتمامه كانت أقلّ لو لم يتركها في شكّ حيال نواياه الحقيقية . قالت مرة : « لا أريد أن يكون موجوداً ، أو إنْ كان موجوداً ، فلا أريد أن أحبه . أتمنى لو أستطيع إخماده في داخلي أو أن أكون العمر كله معه » . لقد أدركتْ جيداً أن عُصابه جعل من العسير عليه أن يتوصل إلى قرار .

وتحقّقت من أنّ عليها الانتظار ، لكن نفاذ صبرها اشتدّ لأن كل أصدقائها ومعارفها كانوا يعتبرونها مخطوبين . ولقد جعلت ظروف معينة ، لا استطيع مناقشتها هنا ، من المستحيل تكذيب هذه الإشاعة . وغالباً ما شعرت المرأة ليس بالانجراح وحده بل وأيضاً بالغيظ من الرجل ومن شكوكه المستديمة .

كان من المغري بالنسبة لها في بعض الأحيان أن تصرخ : « كُفَّ عن عزمك ! » ولغيرتها كانت تغتاظ كلما فضّل رفقةً أخرى على رفقتها ، وغالباً ما كانت تترك لبعض الضغط أن ينفذ إلى السطح ، حتى بوجوده أحياناً . ولقد دفعها نفاذ صبرها إلى الاتصال به يومياً تقريباً ، كي تخطو الخطوة الأولى باتجاه تحديد المواعيد ، وكي تدفعه إلى قرارات ثانوية كانت من ضمن مصالحه الخاصة بصورة رئيسية . وأدركت ، لكونها أكثر واقعية منه ، أن هذا الوضع يمكن أن يبقى على حاله فترة أطول لأن العلاقة كان قد مرّ عليها سنوات عدّة . وفي هذا الوضع [illegible] أصبح ضرورياً أكثر أن تدفعه إلى الاختيار . فقد انقضى من حياتها قسطها الأجمل . و[illegible] مزيج من العاطفة والعناد كانت مصممةً على الزواج من هذا الرجل بالذات على الرغم من كل عيوبه ، والتي كانت تراها بوضوح . لم تكن تخرج مع غيره من الرجال لأنها كانت تريد البقاء في البيت عندما يتصل بها . ولم تكن تريد أن تدعه يعلم مقدار تعويلها عليه ، لكن طبيعتها النزوية وافتقارها إلى ضبط النفس غالباً ما جعلاها تفقد صبرها ، وتجد منفذاً له على حساب محاكمتها السليمة . ولطالما تكررت المشاهد والجدالات العاصفة ، والتي كان يثيرها الشكّ الذي خلّفه الرجل لديها . لم تكن هذه المنازعات منازعات حبيبين ، بل منازعات شخصين يكره أحدهما الآخر ، ولكنهما مكّرسين كلٌ للآخر . وعلى الدوام كان يعقب ذلك مصالحات تفضي بدورها إلى خلافات جديدة . غالباً ما ناقشا إلى أيّ حدٍّ يحب أحدهما الآخر ولماذا ، ولماذا لا . لكن الحب لا يُناقش وإنما يُعاش . لقد كان الوضع بمثابة صورة معكوسة تقريباً للنموذج التقليدي المألوف . الفتاة تخطب ودّ الرجل بينما هو مُعرِض عنها ومتحفّظ ومتظاهر بالخفر . ويبقى صحيحاً أيضاً أن نفاذ صبرها كان يتفاقم أحياناً برغباتها الجنسية غير المحققة .

ومع ذلك فإن الرجل كان متعلّقاً بها وكان قادراً بصورة جيدة على تقدير خصالها الإنسانية والثقافية الممتازة حق قدرها . وتكشّفت حياته الجنسية عن الموقف النمطي لمجموعة كبيرة من الرجال الذين يعانون من الكفّ الجنسي مع من يحترمونهن من النساء ويعتبرونهن أنداداً لأمهاتهم وأخواتهم ، في حين لا يُعانون مثل هذا الكبح تجاه الأخريات اللواتي لا يقدّرونهن بل ويحتقرونهن . وهذا الرجل ، وقد حالت بواعث عديدة (اتضحت أثناء التحليل) بينه وبين اتخاذ قرار ، وخشية فقدان حريته ، كان يتظاهر بالإذعان في بعض القضايا الثانوية . وكان يستمتع بحياة العزوبية على الرغم من أطوار الهمود والوحدة المتكررة ، ويُبدي مقاومة دمثة ولكن حازمة ضدّ جهود صديقته الدؤوبة الرامية إلى دفعه صوب ميناء الحياة الزوجية . ومن جهة أخرى ، لم يكن يريد أبداً أن ينحلّ الرباط الذي يجمعهما سوية . كان يعرف على الدوام كيف يسترضي الفتاة ويُمارس عليها سحره حين تشعر بالانجراح ، وكيف يستخدم سلطته عليها لإبقائها في حيرة من أمرها . فكلما بذلت جهداً لتحرير نفسها من هذا النوع من القيد ، كان سحره الأسود الحاذق يجترح أخدوعةً . ففي حين وطدّ عزمه على أن لا يغار أبداً ، استغلّ بحنكة حاجتها له وأبعد عنها غيره من المريدين . وبدا موقفه ، آنئذ ، شبيهاً بموقف تلك الشخصية في عمل موتزارت الناي السحريّ : « لا أستطيع أن أقسركِ على حبي ، ولكنني لن أمنحكِ حريتكِ » .

لم يكلّ هذا الرجل أثناء التحليل عن تأكيدكم كم كان مرتبكاً ومغتاظاً لأن الفتاة كانت تدفعه ، وبطريقتها المستبدّة ، كي يظل برفقتها ، ولأنها كانت تجعله يذهب إلى العزائم والسينما بينما هو راغب بأن يكون في مكان آخر ، ولأنها كانت تستبقيه على الهاتف في حين يريد أن يعمل . بل وكان حانقاً جداً لدرجة أنه تذمّر بشدّة من نزوعها إلى التملّك . ولقد كان ، وهو الأضعف بكثير من أن يقول لا ، عاجزاً عن أن يقبل لنفسه أنه استمدّ سروراً خفياً من هذه العبودية ، والتي نادراً ما تمرّد عليها . وكان واضحاً أنه غالباً ما رتّب الوضع الذي يبقيه تابعاً . لم يكن محباً حقيقياً بالتأكيد ، ولكن تعلّقه بالفتاة كان قوياً . ولقد عبّر مرّة عن ضيمه وبطريقته المهتاجة قائلاً : « إنها نزّاعة

إلى التملّك على نحو مرعب ، وعلى الدوام تريد أن تتمسك بي ، وتتشبث وتقبض عليّ . إنها لا تعتقني ولو ليوم واحد . إنها تُطبقُ عليّ بين براثنها ولا تدعني وحدي » . وختم اتهامه قانطاً من نزوع الفتاة إلى التملّك : « وتقول إنها تحرص عليَّ ، وتُحبني كل الحب . لو أنَّ الحب كان حباً ! » .

كانت عبارته الأخيرة ، والتي نطقها بطريقته النزوية ، تخطرُ على ذهني كلما كان عليَّ أن أعالج عصابيين يعانون من مصاعب في حياتهم الحبيّة . إنَّ ما قصده بهذه العبارة واضح تماماً . ما يدعوه الناس حباً ليس حباً أبداً . إنه شهوة السلطة ، حافز للانتزاع والتملّك ، أو رغبة جنسية خام . لو أن ما يُدعى حباً كان مجرد توق للرفقة ، واهتمام برفاه الآخر ، وأخذ وبذل للحنان وقبول لعيوب الآخر ، لكانت الحياة رائعة . إنَّ عبارته لا تنكر وجود الحب ، ولكنها تشكو من طبيعته .

قد يقول شخص متدين ، وبتوق مماثل : « لو أن المسيحية كانت مسيحية ! لو أن ملايين البشر ممن يدّعون الإيمان بالمسيح كانوا فقط مُفعمين حقاً بروحية المخلّص الذي راح يكرز على تلال الجليل ! ولكنهم لا يوالون سوى الرسالة التي تُميت لا الروح التي تهب الحياة » . أليسَ صموئيل بتلر هو من أكدّ أن المفاهيم الأخلاقية للمسيحية لم تُمارس أبداً على الأرض ؟ إنها القصة القديمة عن الهوة التي تفصل الفكرة الخالصة عن تجسيدها الأرضيّ ، وتفصل الوعد الفتّان بالمثل الأعلى عن عتمة الواقع وحلكته . لكن هذا الفارق لا يمكن تفاديه لأنّ المثل الأعلى بعيد عن متناول الكائنات الفانية . فهو ليس محض ادّعاء لا يتحقق . إنه أيضاً مطلب لا يُلبى . فإذا ما أردت أن تطلق نار مسدسك ، عليك أن تصوّب على نقطة أعلى من الدريئة كي تُصيبها . ولكن إذا صوّبت أعلى بكثير فسوف تخطىء الهدف .

ما الذي يمكن قوله عن النقطة التي أثارها المريض ؟ من الجدير بالملاحظة أنه في شكواه لم يأخذ بالحسبان طبيعة عاطفته الخاصة القاصرة . فمن الواضح أن مقدرته على الحب كانت أكثر محدودية من مقدرة الفتاة . لقد كان مكرّساً لها دون شكّ على طريقته ، لكن هذه الطريقة كانت طريقة خاصة بالتأكيد . ألم يجد لذةً خفية في التعذيب

الحاذق الذي كان يُخضِعها له ؟ لقد تشكّى من نزوعها إلى التملّك ، ولكن هل كان أقلّ منها نزوعاً إلى التملّك ؟ ألم يكن يعيدها إليه بخيط خفيّ ، غيوراً من تحررها المحتمل ؟

كل ذلك عن الجانب الشخصي لهذه الحالة ، فماذا عن صورتها العامة ؟ لا بد أن نقرّ بأن المريض معذور إلى حد بعيد في صرخته : « لو أن الحب كان حباً ! » ، فكل ضروب الانفعال يطلقون عليها اسم الحب . يالهذه الكلمة كم أُسيء استعمالها ! ولكن هذه إشكالية أكثر عمقاً وليست مسألة تصنيف وحسب .

إن الارتكاس ضد قوى الهيمنة والتملّك لا يمكنه أن يزيل هذه القوى تماماً . فالمادة الأصلية التي يُصنع منها الحب حاضرة أيضاً في التحّول الجديد لدافع التسلّط . فالحب يبدأ برغبة في التشبّه بالموضوع الذي يثير الإعجاب ؛ وغالباً ما ينتهي بالرغبة في صياغة الموضوع على صورة المحب . ويبدو أن هذا النزوع يشير إلى أن شهوة الانتزاع القديمة المكبوتة تكون لها اليد الطولى في النهاية . ويمكن لهذه الرغبة الخفية أن تؤدي وبصورة طبيعية إلى تضارب في الإرادات ، وإلى نزاع صامت في الظلام .

هذا العنصر الجديد في الحب ، والذي هو نتاج للتمرد والارتكاس اللاواعيين ، يشبه حافز الانتزاع . إنه من نسل الطاغية القديم ، في دمه لوثة الاستبداد والهيمنة ، على الرغم من أنه الشكل الألطف للطغيان .

إن النفاذ إلى طبيعة الحب لا يُسْكِت النقمة ضده إلا إلى حد معين . ولا بد من النظر في هذه الظاهرة بالنسبة لكل فرد على حدة ؛ ففي الحب خير للشخص إن كان في هذا الشخص خير للحب . وإذا ما كان شخصان في حب ، فإنّ كلًّا منهما يجاهد كي يكون الآخر ، لكن هذا النزوع يمكن أن يبلغ تقريباً غايته بطريقة سلمية . والأزواج الكهول ، والذين عاش بعضهم طويلاً مع البعض الآخر ، غالباً ما يُبدون تشابهاً فيزيائياً شديداً . ويبدو كما لو أن الرغبة القديمة ، التي كانت ذات مرة حافزاً مشبوباً وضارياً ، تتحقق على نحو لطيف بمرور الوقت .

عندما يرتفع المرء في الهواء عالياً بما فيه الكفاية ، فإن كل شيء يبدو صغيراً

جداً . حقاً إن هنالك هوّة بين فكرة الحب وواقعه ، ولكن لماذا نتحسّر على ما ليس هو ونستنكف عمّا هو عليه ؟ ليس بإمكاننا أن نتنصّل من الوقائع السيكولوجية إلا بقدر ما يمكننا التنصّل من الوقائع البيولوجية . والطبيعة لا تعترف بذاك النوع من التفكير الذي يقول : لا يمكن للأمر أن يكون على هذا النحو ، لأنه لا يجب أن يكون عليه . إن المحب ليفعل أحسن ما لديه بأحسن ما لديه . ومن الممكن أن نكون واقعيين نوعاً ما ونواجه الوقائع حتى عندما تتعلّق بأضاليل تعزّ علينا .

غالبا جدا ما نتلقّى أفكارنا عن الانفعالات من الأدب والسينما ، لا من الحياة . ومن ثم ندهش ويخيب أملنا عندما لا يتوافق الواقع مع تطلعاتنا . ولكن لا حاجة حتى بالمثل العليا لأن تبقى طفولية ؛ إن بإمكانها أن تتقدّم في العمر . وفي بعض الأحيان يكون لدى أطفالنا تصورات مسبقة تدهشنا ، لكنهم يتخلّون عنها بمرور الزمن . وحين هاجرت أسرتي إلى الولايات المتحدة منذ سبعة أعوام ، فإن ابنتي ثيودورا ، وكان عمرها آنذاك أربعة أعوام ، سألت أمها ونحن نهبط من السفينة في نيويورك : « ماما ، لماذا يتكلم كل هؤلاء الناس مثل شيرلي تمبل ؟ » لقد أدركتْ أن كلام الناس حولها شبيه بكلام النجمة الصغيرة في فيلم شاهدته في أوروبا . ولا بد أنها فكّرت أنّ شيرلي تمبل هي صاحبة أو خالقة هذه اللغة . لكنها اكتشفت بعد ذلك أن اللغة الانكليزية ليست ملكاً لشيرلي وحدها إنّ وقتاً طويلاً ينقضي قبل أن نتعلّم نحن البالغون أن الحب في الواقع لا يشبه صورته الهوليوودية . وكم من الأفضل أن نكون يافعين ونتعلّم من أن نكون كهولاً ونعرف .

قوة جديدة تدخل ميدان الجنس

كيف دخل الغرام ميدان الدافع الجنسي الخام ؟ نحن نعلم أنه قَدِمَ من بلاد أخرى ، وأنه ليس من مواطنيّ هذه الأرض . ليس جنساً مموّهاً ، كما يؤكدّ صليبيو التحليل النفسي ، كما أنه لم يفدْ كضيف محتفى به ، وإنما عُومل في البدء بمثابة متطفل بغيض . وبعض الأشخاص يرونه هكذا إلى الآن . ولا شكّ أن الحب هو مهاجر في قارّة الغرائز القديمة ، مهاجر غريب بين مواطنيها . وإني لواثق أنهم جَفِلوا في البدء لقدومه .

لا يمكن للحب أن يتطور في حياة الفرد إلا بعد بلوغ طور يتمّ فيه ليس تمييز الفروق الشخصية بين الأشخاص وحسب ، بل وتقييمها أيضاً . وهذا التقييم يقتضي حالة ذهنية متطورة . فالطفل الذي بلغ الطور الذي يقارن فيه نفسه مع غيره ويشعر بأنه أدنى منه ويحسده (أليست هذه شروط الحب الأساسية ؟) لا يمكن أن يكون في مرحلة الطفولة الأولى . والجنس ، الذي لا يميّز القيمة الشخصية ، يمكن أن يستيقظ باكراً ، أما الحب فلا . وغالباً ما يُعلن المحللون النفسانيون أن التطور الجنسي الباكر علامة على توقّد ذهني باكر . ولكنني أخالفهم الرأي ، كما فعلتُ غالباً من قبل . فهنا ، كما في كل مكان آخر ، ينزع المحللون إلى خلط الحب والجنس . إن الاهتمام والنشاط الجنسيين الباكرين يعبّران عن حالة الطفل التكوينية أو يمكن أن يكونا نتيجة للتنبيه الخارجي المفرط . ومن جهة أخرى ، فإن الاستعداد الباكر للشعور بالعاطفة يثبت حقاً أن الطفل موهوب على نحوٍ استثنائي ، فهو يعني أن الطفل قد خَبِرَ باكراً وأدرك الفروق والقيم الفردية . وفي الواقع ، فإن المعلّمين والمرّبين ، فضلاً عن

الأهل ، يلاحظون باستحسان العاطفة المبكرة لدى الأطفال ، في حين أنهم ينفّرون من أية علائم تدلّ على الجنسية المبكرة .

ما هي موضوعات الحب الأولى لدى الأطفال ؟ غالباً ما تمّ تقديم الجواب بخفةٍ وتسّرع : الأشخاص الراشدون ، الأهل ، المربيات ، المعلمون . لكن هذا الجواب هو واحد من تلك الأقوال الارتجالية التي لا تحتوي من الصدق سوى مقدار زهيدٌ. وبالطبع ، فإن الأطفال يتعلّمون التعاطف مع الراشدين الذين يحيطون بهم ويرعونهم ، لكن عاطفتهم الحقيقية تتجه إلى أطفال آخرين . فالراشدون بعيدون عن متناولهم ؛ وهم ، في الواقع من نوع آخر بنظر الطفل . والإعجاب بهم والحلم بانتزاعهم يعني أن الطفل يشعر مسبقاً أنه قريب منهم ، وأنه قرين لهم بطريقة أو بأخرى . ولكن ، قبل أن يبلغ الطفل هذا الطور ، يكون الراشدون أبعد سيكولوجياً بكثير من أن يكونوا موضوعات للحب . فأنت لا تطلب الثريّا .

أليست واحدة من الأمنيات العظمى والأكثر إلحاحاً لدى أي طفل أن يكبر ، وأن يكون مثل هؤلاء الأشخاص الذين يثيرون إعجابه ؟ حقاً إنها لكذلك ، لكن هذه الأمنية ، إذا ما برزت لدى الطفل على نحوٍ أصيل ولم يقحمها الأهل أو الأطفال الأكبر سناً في دماغه ، فإنها تبرز متأخرةً . وحتى عندئذ ، فإنها تبقى لفترة طويلة مجرد فكرة دون أي وجود واقعي ، مجرد إمكانية نظرية . ولقد تذكّر أحد المرضى أنه في مرحلة صباه الباكر لم يكن ليقتنع إلا قسراً بأنه مع مرور الزمن سيكبر ويصبح رجلاً . وظلّ محتفظاً لزمن طويل بفكرتُه الأصلية التي مفادها أنَّ الرجال والأولاد مجموعتان متميزتان ومختلفتان أشدّ الاختلاف ، وأن الرجال سيبقون دوماً رجالاً والأولاد أولاداً . (وهذا يتعارض مع المثل الشائع الذي يقول إنَّ الرجال يظلون أولاداً على الدوام) . كما كان يشعر أن ثمة فجوة لا يمكن سدّها بين المجموعتين .

أول موضوع حقيقي للحب لدى الطفل هو طفل آخر ، يثير إعجابه وحسده وكراهيته ، طفل واضح التفوق تماماً ، على الرغم ـ بالطبع ـ من عدم الإقرار بهذا التفوق عن طيب خاطر . والاكتشاف المدهش الآخر الذي ينتظر السيكولوجيين هو أن

موضوع هذا الحب الباكر هو عادةً من الجنس ذاته . ولكن ذلك لن يدهش المحللين النفسانيين، فلطالما أكدوا أن الجنسية المثلية هي واحدة من السمات المنحرفة العديدة للحياة الجنسية الطفلية . وعلى أية حال ، فإن وجهة نظرنا لن تريحهم كثيراً ، ذلك أننا لا نشير إلى الجنسية المثلية ، بل إلى العاطفة تجاه الجنس المماثل ، والتي هي ظاهرة مختلفة تماماً .

من السهل أن نفهم لماذا يتمّ اختيار موضوعات الحب الأولى من بين أطفال الجنس ذاته . فهنالك ، بالطبع ، التآلف في الطبع والمزاجCongenialityبين الأولاد . إنَّ لهم نفس الاهتمامات ، ويشعرون بنفس المطامح ، ويلعبون نفس الألعاب . إنهم يتباهون بأنفسهم على المواهب ذاتها ويقدّرون نفس الإمكانيات ، والبراعات ، والمهارات . أما مع البنات في هذا السن فليس لدى الأولاد أي اهتمام مشترك . ولا يلتمس الصبيان رفقة البنات الصغيرات ، بل ويجتنبونهن أحياناً لبعض الوقت ، وهكذا يسخر الأولاد من الذي يلعب مع البنات ويدعونه مخنّثاً . ومن الإعجاب ، والحسد ، والتملّك الذي يبديه ولد تجاه آخر ، غالباً ما يتطور الحب الأول ، الخجول نوعاً ما . ففي تغلبه على المشاعر السلبية الأصلية ، يُولع الولد الصغير بولد آخر أقوى منه أو أذكى أو أشدّ براعة . ويصبح هذا الولد الآخر مثال الأنا بالنسبة للأول . ولا حاجة بي لأن أكرر أن هذه العاطفة لا علاقة لها بالنشاط الجنسي . فالدافع الجنسي يمضي في طريقه الخاص . ومن الممكن تماماً ــ وبمقدور أي محلل نفساني إثبات ذلك ــ أن يشعر ولد محدد بالعاطفة تجاه ولد آخر يثير إعجابه ، ويمارس مع ذلك بعض العبث الجنسي مع بنت صغيرة أو حتى مع ولد ثالث لا يميل إليه على نحوٍ خاص أو يُعجب به . وعلى هذا النحو يبدو الجنس والعاطفة منفصلين باكراً .

إذا كان موضوع الولد المختار هو طفل آخر من جنسه ـ وينطبق الشيء ذاته ، بالطبع ، على البنات ، فموضوعاتهن الحبيّة هنَّ بنات أخريات يُثرن إعجابهن ـ فإن حب الجنس الآخر يصبح من الواجب تفسيره . وها أنا أؤكّد ثانيةً أنَّ ظهور حب الجنس الآخر هو الأمر الغامض ، وليس ظهور الرغبات الجنسية . وعلى أية حال ، فإن ذلك لا يبدو وكأنه إشكالية سيكولوجية بالنسبة لأولئك الذين يعتبرون الحب جنساً

بمكفوف الهدف . فهم يعتبرون أن الدافع الجنسي المكفوف يحيد باتجاه العاطفة . ولكنّ ذلك هو إشكالية بالنسبة لنا نحن الذين نؤكد أنّ الحب أمر مختلف . وإذاً ، كيف يمكن للأطفال من الجنس الآخر أن يصبحوا ، ببطء أو فجأة ، موضوعات للحب ؟ أليس ثمة فجوة بين الأطفال من الجنسين ؟ ألا يفضّل الصبيان رفقة الصبيان والبنات رفقة البنات ؟

إن هذه الفجوة موجودة ، والجهد السيكولوجي المبذول لتجاوزها هو حدث جديد في حياة الولد . ومن الواضح أنّ هنالك عاملين يتضافران في تأثيرهما . إن تغيرات البلوغ الإنفعالية البعيدة المدى تزيد من قلق الولد . فهي تعمّق عدم الرضا عن الذات وتعزّز الرغبة في إشباع متطلبات الأنا المضطرب . فضلاً عن تعزيزها الرغبة في تجاوز الذات . كما نجد في الوقت نفسه لدى الولد شعوراً بأن رفقة الأولاد الآخرين لم تعد تشبعه تماماً . لعلهم يذكّرونه بنفسه إلى حد بعيد . ونحن نجدُ هذا التطور الانفعالي ذاته لدى البنات ـ مع بعض فوارق قائمة على الميزات الجنسية المتباينة . وهكذا ، فإن العامل الأول هو التوق إلى التخلّص من الذات ومن الآخرين الذين يشبهونها كثيراً . ولهذا العامل طبيعة الإبعاد والدفع . وبعبارة أخرى ، إنه نوع من النفور اللاواعي من الذات ومن العصابة القديمة .

أما من جهة ثانية فثمة جذب وشدّ . فالدافع الجنسي يدلّ على الطريق الذي يؤدي إلى موضوعات جديدة . مع أنه ليس الدافع الجنسي من يسوق الشخص إلى تولّي هذا الدرب . وليس الجنس من يقدّم الباعث على المضيّ فيه ، وإنما هو مجرد صوّة على طريق الهائم الذي يبتغي الفرار من نفسه . والدفع والشدّ هما اللذان يحددان معاً انزياح العاطفة إلى الجنس الآخر . وهكذا يتعاون عدم رضا الولد عن ذاته وعن أقرانه من نفس الجنس مع حاجات البلوغ الجنسية المتزايدة ويغيّران الاتجاه الذي تتبعه العاطفة .

آمل أن يكون واضحاً أنّ وجهة النظر هذه لا يمكن أن تُفهم بنفس المعنى الذي للتصّور التحليلي الخاطىء والذي يعدّ الحب بمثابة تطور جنسي مكبوح . فما أشير إليه هنا لا يعني إلا أنّ انقلاب العاطفة باتجاه الجنس الآخر يفسّره جزئياً التأثير الذي يمارسه

الحافز الجنسي المشتدّ عند البلوغ . أما منشأ الحب وطابعه فليسا مشروطين أبداً بهذا التطور المتأخر . ذلك أنّ الرغبة العاطفية كانت موجودة قبل ذلك .

بين محّرضات الحب الناشىء ليس ثمة حوافز جنسية يتمّ الشعور بها تجاه الموضوع . ثمة توق للإمساك بالبنت المحبوبة ، والاحتفاظ بها ، وجعلها مُلكاً للمُحب . ولكن تفكير الولد لا يُسبغ على هذا التملّك أيّ معنى جنسي . إنه يفكر بجعلها ملكاً له ، وليس بـ « تطبيقها » ، كما يقول التعبير العاميّ . وهذا الحنان فيه من التملّك أكثر مما فيه من الجنس ، ومن الطمع أكثر من الشهوانية . ما الذي قالته جولييت لروميو ؟ إنها تتمنى أن يمضي ولكن . . .

. . . ليس أبعد من عصفورٍ ولدٍ لعوبٍ
يدعه يتقافز عن يده قليلاً ،
مثل سجين بائسٍ في أصفاده المجدولة ،
وبخيط من حرير يعيده ثانيةً إليه ،
هكذا المُحبُّ يغار من حرية محبوبه .

« هكذا المحب يغار من حرية محبوبه » ؛ ليست هذه لغة الجنس ، بل لغة التملّك في هيئة ساحرة من الحنان .

ما هي الخصال التي يعجب بها الولد لدى البنت ؟ ما الذي لديها ليثير حسده ؟ ما الذي يعجب البنت لديه ويجعلها « محبّة غيورة » ؟ إنَّ الإجابة على هذه الأسئلة لا بد أن تقدّم لنا معلومات هامة جداً فيما يتعلق بتطور الغرام في تظاهراته الأولى . وأنا أقترح ما يلي : في الأصل ، إنَّ ما لدى البنت ويثير الإعجاب هو الجمال أما لدى الصبي فهو القوة . أم أنه بالأحرى تضافر القوة والشجاعة هو ما يجذب البنت ؟ إن الخصال التي تثير الإعجاب والحسد في البداية هي خصال فيزيائية ، تتعلّق بجسد الموضوع . ورويداً رويداً تحلّ محلها خصال أخرى . وعندها فإنّ الجمال لا يعود القيمة الوحيدة . ثمة رشاقة الحركة ، واللطافة ، والرقة ، وغيرها من الخصال التي تعبّر عن شخصية الفتاة ويتمّ تقديرها حق قدرها . ويمكن تلخيص هذا التغير بالقول إن

الولد ينجذب في البداية إلى ما لدى البنت من أنوثةFemalenessومن ثم إلى ما لديهن من نسويةFemininity . وبالطبع ، فإن قوى الجذب من النوع الأول تواصل عملها بينما تتطور القوى الأخرى . والبنات اللواتي لا يثير إعجابهن في البداية سوى قوة الأولاد وشجاعتهم يبدأن بتقدير ما لدى الأولاد من عزم وذكاء ، وتدهشهن قدرتهم الذهنية ونشاطهم وتثير حسدهن . (« ما الذي لا يفكر به ذلك الرجل ! إنه يعرف كل شيء ! ») . وهكذا فإن الشكل الجديد من الإعجاب والذي يتطور انطلاقاً من الإعجاب القديم هو انتقال من الانجذاب الناجم عن المظهر إلى انجذاب ناجم عن تقدير الشخصية . وفي حين تظل الخصال التي أثارت الإعجاب في السابق محتفظة بقيمتها ، فإنّ الخصال الجديدة تضخّم الشعور الأصلي وتُضفي عليه غلالةً زاهيةً ومغايرة .

التجسير بالاستيهام

في الفصل السابق برز إلى السطح سؤال لم يكن متوقعاً . فموضوعات الحب الأولى ، الأشخاص الذين أثاروا أشدّ الإعجاب والحسد ، هم من الجنس نفسه . كيف ، إذاً ، يحدث انزياح الإعجاب باتجاه الجنس الآخر ؟ وإذا كان المحبوب (وليس المرغوب به جنسياً !) تمثيلاً لمثال الأنا الخاص بالمرء ، فكيف يمكن ، مثلاً ، لمثال أنا الولد أن يتحوّل بحيث يقع هذا الولد في حبّ بنت ؟ إنّ سيرورة كهذه لهي بعيدة الاحتمال . ولعلني أخفقت في أن أوضح تماماً أن المحبوب لا يمثّل مثال الأنا تماماً ، وإنما هو يصبح بديلاً له . فالموضوع لا يتطابق مع الذات الأفضل المثالية ، وإنما يتمّم الأنا بحيث يصبح دافع الكمال الذاتي نافلاً .

واسمحوا لي أن أعترف صراحةً بأنه ليس لدي تفسير جاهز مسبقاً لتغيّر موضوعات الحب . وبأنه لا يمكنني عند هذا الحدّ من بحثي سوى أن أقدّم نظرية تحتاج من التحقّق والإثبات أكثر مما هو متوفر لديّ بعد . لست أزعمُ أنني أقدّم حلاً نهائياً لهذه الإشكالية ، وإنما مقاربة لها هي أقرب إلى المحاولة ، وأنا أعلم ما في نظريتي من ضعف ، كما أنني مستعدّ للتخلي عنها فوراً حالما تظهر نظرية أفضل .

كما بيّنت آنفاً ، فإن تحوّلات البلوغ الكبيرة هي المسؤولة إلى حدّ بعيد عن انتقال العاطفة باتجاه الجنس الآخر . فالحافز الجنسي المشتدّ يكشف الطريق الذي سيتخذه التوق الشديد إلى الحنان . وفي طور معين من أطوار هذا النمو الفردي تظهر أحلام يقظة جديدة غريبة تتركّز على الجنس الآخر ، أو بالأحرى على فرد من الجنس الآخر . ولقد علمنا لأول مرة بوجود هذه الأحلام لدى التحليل النفساني لاستيهامات

الاستمناء ، والتي يتمّ فيها تخيّل واستحضار شريك من الجنس الآخر . ويقوم الأولاد أو البنات بلعب دور مضاعف في هذه الاستيهامات . وعلى سبيل المثال ، فإن الولد يتخيّل كيف يمكن أن تتصرف في أوضاع معينة بنت يعرفها أو يتخيّلها . وفي عديد من استيهامات الاستمناء يتلفّظ الولد نفسه بكلماتٍ يتخيّل أن البنت تتلفّظ بها ، ويومىء بإيماءاتها أو يقلّد حركاتها ، وذلك ، عادة ، في ممارسة للحب متخيَّلة بالطبع . ومن الواضح أن اضطلاعه بدور البنت فضلاً عن دوره الخاص هو نتيجة لوضع طارىء . فالشريك غائب ، وعلى ممثل واحد أن يقوم بدورين في آنٍ واحد .

إن هذه الاستيهامات الجنسية هي عملياً مواصلةٌ لمسرحية شغلت الذهن في الطفولة ، ومواصلة الاستيهام يبدأ من إمكانية متخيَّلة : لو أنني وُلِدتُ بنتاً (وبالنسبة للبنت : لو أنني وُلِدتُ صبياً) . وثمة أفكار خيالية طفولية مماثلة أو مسرحيات ذهنية تتركّز حول الرغبة بأن يكون الطفل ملكاً ، وملكةً ، وهلمجرا . ومن ثم فإن مواصلة مثل هذا التفكير المتقطّع ، ومثل هذه البروفات الذهنية المتعلّقة بتغيّر جنسي مُتخيَّل ، تتمّ بالاتجاه التالي : ما الذي أودّ أن أبدو عليه عندئذ ؟ ما الذي أودّ أن أكونه لو كان التغيير ممكناً ؟ ويشبه حلم اليقظة هذا شبهاً نموذجياً الحلم المتبوع بمواصلة فكرة «Si J'étais Rois» (*) وهذا الاحتمال الذهني ، هذا الوهم العجيب ، نجده عند أي طفل بعد أن يكتشف ، مباشرة ، لا الاختلاف الجنسي بحد ذاته ، وإنما أهميته الانفعالية ، وبعد أن يلاحظ أن أفراد الجنس الآخر يبدون ويتصرفون على نحو مغاير ، وبعد أن يقيّم هذه التباينات في فكره لبعض الوقت . (إنّ في شكل وطبع الجنس الآخر شيئاً ما لا يُصدَّق بالنسبة للأصغر سناً) . ويمكن التحقّق بالتحليل النفساني من أنّ مثل هذه الأفكار المؤقتة ، والأوهام العابرة ، موجودة لدى أي ولد ـ و ، بالطبع ، وإلى حدٍّ بعيد ، لدى أي بنت . وهي تعاود الظهور في استيهامات المراهقين اللاواعية كما تشكّل

---

*ـ بالفرنسية في النص الأصلي : « لو كنتُ ملكاً ».

لاحقاً عنصراً مُهملاً ولكن مهماً في العديد من أعرض العصابيين والذهانيين[1] .

لستُ أعزو هذه الأوهام إلى العامل الأصلي والبيولوجي المتعلّق بثنائية الجنس لدى الفرد ، وإنما إلى قوة الخيال لدى الأطفال في مسرحياتهم الذهنية . ومعظم هذه الاستيهامات ترتّد إلى اللاوعي لأنها تتعارض بصورة فاقعة مع حقيقة جنس المرء الخاص الثابت الذي لا يمكن تبديله . إنها تُطرَح جانباً وتُدان باعتبارها نوعاًمن السخف . وبالطبع ، فإن تأثيرات إنفعالية أخرى تؤثر فيها إلى جانب الحسّ السليم ؛ وسرعان ما يمتنع الطفل بصورة واعية عن الاضطلاع بدور الجنس الآخر ويبدأ بتفضيل جنسه الخاص ، الذي يتصوّر أنه الجنس المرغوب والمحسود . ومن الواضح ـ وهذا ما أودّ التعبير عنه بحذر ـ أنَّ هذه الاستيهامات تحيا لاحقاً حياة سريّ ولفترة طويلة . ونادراً ما تخترق مستوى التفكير الواعي ، كما هي الحال لدى الجنسيين المثليين ، ولكنها تستمّد قوة مستجدّة من مصادر خفية . وهي لا تبرز إلى السطح بشكلها الأصلي ، ولكنها تعاود الظهور ، متحولةً في أحلام اليقظة لدى البلوغ : ما نوع البنت التي سأميل إليها وأحبها ؟ كيف ستبدو البنت التي أحبها وكيف ستتصرف ؟

تحلّ الهيئةFigureالاستيهامية للذات التي تلعب دور الجنس الآخر تحلّ الآن الهيئة الحلمية لموضوع حبيّ محتمل من الجنس الآخر . وهكذا فإن رغبة المرء بأن يكون مثل شخص من الجنس الآخر تُخلي مكانها للرغبة بتملّك ذلك الشخص ملكية خاصة . ويبدو أن أهمية وعاقبة حلم اليقظة لدى الفتاة بأن تكون ولداً هي أكبر من أهمية وعاقبة الرغبة المعاكسة لدى الولد ، وذلك في نموذجنا الثقافي على الأقل حيث يبدو دور الرجل محسوداً من قبل البنت المراهقة أكثر مما يحسد الولد الدور النسوي[2] . ومن المفهوم أن

---

1 ـ إن ظهور هذه الاستيهامات لا يفوت ، بالطبع ، ملاحظة فرويد السيكولوجية ، ولكنه لا يتعامل معها إلا بالارتباط مع تكوّن الجنسية المثلية ، والشكل الأنثوي للمازوخية ، وعقدة الخصاء لدى الرجال والنساء .

2 ـ يورد البروفسور ج . و . ألبورت في كتابه الشخصية : تأويل سيكولوجي ، =

هيئة الأنا المكمِّل ، والمغاير جنسياً ، هي من إبداع الخيال ، ولكنه ليس مجرد إبداع هازل . فهي تكشف لا عن الإعجاب فقط ، بل وعن نزوعات الحسد أو العداء تجاه الجنس الآخر . وإذا ما كنا قد أخذنا بالحسبان سابقاً الجسر الواصل بين مثل هذه الأسس الانفعالية والحب ، إلا أنه يحتاج هنا إلى إعادة بحث .

تحاول هذه النظرية التحليلية النفسية ـ الجديدة أن تفسّر كيف تمّ التحضير لتحوّل العاطفة من الجنس المماثل إلى الجنس الآخر . إن عدم الرضا عن الذات يتواصل ويستبدل أثره أو يزيحه . فالانجذاب إلى الجنس الآخر يتيسّر من خلال تحوّل حلم اليقظة السري الذي يظهر فيه الأنا في هيئة مُؤَمْثَلةIdealizedمن الجنس الآخر . وهذه النسخة الاستيهامية الأنثوية أو الذكورية للذات هي الحلقة المفقودة في سلسلة العوامل التي تجسّر الهوة بين الاختيار الأصلي والاختيار اللاحق لموضوعات الحب . فهي ، كما اعتقد ، تفسّر انزياح العاطفة من الجنس المماثل إلى الجنس الآخر . ذلك أن الهيئة الاستيهامية للذات في دور البنت تتطور إلى هيئة مُتخيَّلة لبنت مثالية محبوبة . ويمكن مقارنة هذه النقلة بتلك التي تتمّ من بروفة يؤدي فيها الممثل دور ممثل آخر غائب ، فضلاً عن دوره الخاص ، إلى عرض حقيقي ، يؤدي فيه كل ممثل دوره .

أنا لا أخفي حقيقة أن النظرية التي اقدمها هنا هي أول محاولة لحلّ هذه الإشكالية . وهكذا فإن فيها نواقص وعيوب مثل هذه المقاربة . ويبدو أن ملاحظات وخبرات كثيرة في الممارسة التحليلية تُفضي إلى إعادة بناءٍ سيكولوجيةٍ من هذا النوع أو من نوع يشبهه . ولكن هذه الإشكالية تحتاج إلى مزيد من الشرح والدراسة . فالظاهرة بحد ذاتها هي بعيدة عن أن تكون مفهومة تماماً . ولا يمكنني أن أقدّم بمثابة دليل سوى خبرتي ، والتي تبدو وكأنها تدعم نظرية المثال المتمِّمComplementary idealمن الجنس الآخر ودوره في تطور الحب لدى المراهق .

نيويورك ، 1937 ، نتائج استبيان مجهول المصدر يبيّن أن البنات يتمنين أن يكنّ من الجنس الآخر أكثر بثلاثة أضعاف من الأولاد .

إنِ هذا ليذكّرني أن بين يديّ سلطة تخوّلني التعريج على شكسبير . ففي العديد من كوميدياته نجد أن ثمة من يتنكّر بزيّ فرد من الجنس الآخر . بورشيا المحبَّبة ، روزالين الظريفة ، جيسيكا البارعة ، جميعهن يظهرن في هيئة رجّالية . وكل من يصغي إلى أقوالهن سوف لن يشكّ في أن هذا التحوّل هو أكثر من تمويه . فهاته الفتيات لا يتمنين أن يظهرنَ بمظهر الرجال وحسب ، بل وأن يكنَّ رجالاً أيضاً . ومن الواضح أنهنّ يلعبن جيداً دور الرجل نظراً لتدرّبهن على الدور مراتٍ كثيرة في تخيّلاتهن . ولنَقُل أنهن ، وقد عزمْنَ على أن يكنَّ رجالاً ، يحققن مثال الأنا الخاص بهن من الجنس الآخر ، الأمر الذي يتيح لهنَّ إظهار ما حلمن بأن يظهرن عليه وما سيكون عليه سلوكهن إذا ما كنَّ رجالاً . هذا هو المعنى الخفيّ أو اللاواعي للتنكّر . والشخصيات الأخرى تقبلهن كرجال وتنخدع بمظهرهن وكلامهن وطرائقهن الذكورية . وهنّ يلعبن الدور بحمّية . لكن النهاية هي ذاتها دوماً ؛ حيث يعدن فتيات مرة أخرى ولا يستطعن مقاومة طالب يدهنّ فترة أطول فيرتمين بين ذراعيه . إنهن يرتكسن كما لو أن أداء الدور كان قد استنفد إمكانية التخيّل وكما لو أنهن مستعدات الآن لقبول الرجل الواقعي مكان مثال الأنا الذكوري الذي كان ، من قبل ، حاضراً من خلال التنكّر . إن هذا التمثيل هو مسرحية الفتاة البالغة التي تواصل استيهاماتها الحياة لفترة قصيرة . لكن هذا التمثيل والتفكير ليس سوى الجسر المفضي إلى المحبوب . فسرعان ما يحتّل هذا الأخير مكان مثال الأنا ، وتتخلّى هي للرجل الواقعي عن الدور المزعوم .

أليس تحوّلاً واضحاً لمثال الأنا من الذات إلى رجلٍ ما نراه في مثل هذا التنكّر الهازل وفي الإرباكات والأخطاء التي تُفضي إلى النهاية السعيدة ؟؟ ألا يظهر بمثابة كوميديا الأخطاء في المسرحيات الاليزابيثية ما يحدث في استيهام الكثير من المراهقين بمثابة إمكانية ذهنية ؟ وفي النهاية فإن رجلاً مطلوباً ومرغوباً يقتحم المشهد الذي كانت تهيمن عليه في السابق الشخصية المُؤَمثلة للحالمة نفسها لاعبةً دور الرجل . فبعد الأداء التنكّري يأتي الأداء الواقعي ، لكن دوريّ المؤدّي على الخشبة الذهنية يكونان مقلوبين . إن التنكّر الهازل لدى شخصيات شكسبير ودلالته في مسرحية الحب يدفعني

إلى أن أتوقع أن الشاعر قد أدرك بصورة لا واعية أن سعي المرء إلى مثال عن طريق الانتحال الموهوم لدور الجنس الآخر يقوم بمهمة سرية في محاولة الوصول إلى الحب . وفي النهاية تعبر السيدة هذا الجسر ، ولكن ليس قبل أن تقتنع بأن الرجل جدير بالمكان الذي كان يحتلّه مثال أناها من قبل .

أوّل البارحة

آلاف عديدة من الكتب والمقالات كُتبت حول تاريخ الحب . انثروبولوجيون ومؤرّخون ، سيكولوجيون وفلاسفة وعلماء من كل الأمم انشغلوا بهذا الموضوع بكل دأب وعناء . ومن بينهم أسماء مشهورة تماماً : سبنسر ، وسترمارك ، هافلوك إليس ، فرويد ، موللر لاير ، لوقا ، فان دي فيلد ، وكثيرون غيرهم . ونحن نثمّن عالياً فضائل هؤلاء البحاثة ،لكن قيمة بحثهم آذاها مفهومهم عن الحب . فالحب بالنسبة لغالبيتهم هو جزء من الجنس أو مشتّق منه . وهم لا يدركون أن الحب مغاير للجنس تماماً في منشئه وطابعه فضلاً عن كونه منبثقاً من جذور مختلفة تماماً

تاريخ الحُب موضوع خاص ، تجب معالجته على نحوٍ مستقل عن تاريخ الجنس إلى أن يلتحم الحافزان واحدهما مع الآخر . وسوف ألجأ إلى مقارنة بغية توضيح الفارق : يمكن مقارنة تقصيّ تاريخ الجنس ببحث الجيولوجي الذي يعزل طبقة من الطبقات المشكّلة لجبل ما ويستدلّ منها على التغيرات التي حدثت في زمن ما قبل التاريخ . أما تقصيّ التاريخ الباكر للحب فهو مثل عمل الأركيولوجي الذي ينقّب في خرائب هيكل قديم مبنيّ بحجارة تمّ اقتلاعها من مقلع مجاور . والفارق بين هذين الاستقصاءين ليس مجرد فارق في عمر الشيء المستقصى عنه وحسب ؛ إنه فارق في طبيعة الموضوع ،على الرغم من عناية كلا الرجلين بالتاريخ . فالبحث من النوع الأول هو جزء من العلم الطبيعي ، أما البحث من النوع الثاني فهو جزء من تاريخ الحضارة . صحيح أن الموضوعين يتداخلان في كثير من النقاط ،لكنهما ليسا الموضوع ذاته . وكثيراً

ما يحتاج الأركيولوجي إلى عون الجيولوجي ، لكن منهجيهما متباينان تباين موضوعيهما ، وهو تباين يبقى قائماً على الرغم من تعاون الرجلين في بعض الأحيان .

طوال عصور أقام البشر المتواجدون على ظهر البسيطة علاقاتهم الجنسية ، وعاشوا حيواتهم دون حب . والإنسان البدائي ، الذي حظي بالمأكل ، والمأوى ، والنساء بمثابتهن موضوعات جنسية ، لم يشعر بأي حافز للحب . لم يكن الحب حاجة حيوية ، واستطاع الإنسان البدائي ، أن يحيا على نحو مريح دون أن يتنبه إلى ما يدعى بالغرام .

ويبقى تاريخ الحب ، وإلى حدٍّ بعيد ، مجهولاً بالنسبة لنا . كيف أتى الحب إلى هذا العالم ؟ ولماذا ومتى ؟ كيف كانت أشكاله الأصلية ، وفي ظلّ أية ظروف اتحد الجنس مع الحب ؟ ليس لدينا أجوبة ـ وما من أحد لديه ـ وتخمينات الجميع بهذا الصدد لا تتميّز عن بعضها البعض . وما سترونه هنا هو حدس محض ، مؤسّس على أدلّة ظرفية مستمدّة من الخبرات التحليلية . إنها محاولة في إعادة البناء ، أعزو إليها درجة من الاحتمال ، لا أكثر ولا أقل . ويبدو لي أن إعادة البناء هذه ربما كانت أقرب إلى القصة الواقعية من أية محاولة أعرفها . وبعد كل شيء ، فإنه ليس ثمة حاجة لأي تبرير أو أعذار . ويبقى أن امتياز بعض المحللين النفسانيين يكمن في إخفائهم الافتقار للخيال خلف الولوع بالأدلة والبراهين في حين يكون واضحاً أن ما من أحد يمكنه أن يكون في منجى . وهكذا فإن تاريخ الحب ، في المحاولات القليلة التي قام بها محللون نفسانيون لإعادة البناء هذه ، كان له طابع الحكاية التي تسبق النوم

ثمة شيء واحد محقّق ولا يقبل الجدل : الحب أحدث سناً من الجنس بكثير . لقد ظهر الجنس باكراً على هذا الكوكب وهنا يبقى . وحتى لو أمكن ردّ منشأ الحب إلى زمن سابق على زمننا بآلاف عديدة من السنين فإنه يبقى أحدث سناً من الجنس . فقد وجد الجنس بوجود البشر الذين يتنفسون على هذه الأرض . وهو قديم قدم جسد المرأة . أما الحب فقد ظهر متأخراً جداً . . . بل وربما لم يكن ظهوره الأول مرتبطاً بالجنس ، وإنما بعلاقات أخرى . ولقد دخل الحب متأخراً كثيراً إلى العلاقة بين

الجنسين . لم يكن له منشأ مغاير لمنشأ الجنس وحسب ، بل وعاش وجوداً منفصلاً لزمن طويل كما كان له تطوره المختلف . لقد وُجِدَ الجنس قبل أن يتعلّم الإنسان الوقوف منتصباً ، وقبل أن يلهج باللغة أو يكتشف النار . كان موجوداً حينما خرج الإنسان للصيد والقنص ؛ ولقد رافقه منذ الأطوار المديدة من حياته التي كان فيها شبيهاً بالحيوان . أما الحب فلا يكون ممكناً قبل أن يتمّ بلوغ طور متقدّم نسبياً من التطور . فهو نتاج الحضارة . ويدلّ ظهوره على أن الدوافع العمياء والعنيفة قد تمّ ضبطها وتحويلها جزئياً .

لا أعتقد أن العاطفة تنجم عن العلاقة بين الجنسين ، وإنما هي التحمت مع الجنس لاحقاً . ونحن نعدّ الحب بمثابة نتيجة لارتكاس انفعالي ضد الحسد الأصلي ، والغيرة ، والتملك ، وبمثابة تغلّب على نزوات العداء والجشع . ومثل هذه المشاعر لم توجد بين الجنسين في المجتمع البدائي إلى أي حدّ مُعتبر . لكنها برزت إلى الوجود بين أعضاء الجنس الواحد . فبين الرجل والرجل كان ثمة نزاع ، وحسد ، وغيرة ؛ كان ثمة إعجاب وطموح لأن يكون واحدهما مثل الآخر المتفوق . وحتى مثل هذه الحالة الانفعالية لم تصبح ممكنةً إلا بعد أن بلغت عملية التفريقDe fferentiationمستوىً محدداً وتمّ إدراك أن شخصاً محدداً ليس متمايزاً وحسب ، بل أعلى أو أدنى من غيره أيضاً . وهذه المقدرة على تمييز القيم هي طور متأخر من الحضارة . ولقد نشأت العاطفة من الصراع بين نزوعات العدوان والتملّك والنزوات المضادة لها . وهكذا فإن حقلها الأول لم يكن مُلتقى الرجل والمرأة ، وإنما البقعة حيث يلتقي أعضاء القبيلة الواحدة أو الجماعة الاجتماعية الواحدة - ليس المكان السرّي للقاء اثنين ، وإنما مكان الاجتماع العام للجماعة نصف المتحضرة

وبعد زمن طويل ، بعد آلاف كثيرة من السنين ، تحول الحب من هذا الإعجاب الأصلي للرجل برجل آخر إلى ميدان العلاقة الجنسية . ولم تصبح مثل هذه النقلة ممكنة إلا عندما نشأ توتر بين الجنسين ، وعندما جعل النزاع الحلّ ضرورياً ، وعندما تحولت النساء من أدوات للإشباع الجنسي إلى موضوعات للحسد والإعجاب . ولذا فإنني أزعم

أن مكان ولادة الحب لم يكن قرب غرفة النوم البدائية للزوجين اللذين يقيمان علاقات جنسية ، وإنما في الأمكنة حيث يقيم المجتمع البدائي مبارياته ، ورقصاته ، ومناقشاته . والمشاعر العاطفية المبهمة الأولى ربطت أعضاء الجنس الواحد مع بعضهم البعض كتعبير عن انتزاع نزوات التنافس ، والحسد ، والعداء . وهذه التطورات المقترحة تتساوق عموماً مع تلك التي نلاحظها لدى الفرد ، الذي تظهر لديه العواطف الأولى بين الأخوة والأقران الذين كانوا منافسين له قبل أن يصبحوا أصدقاء .

ولكن كيف دخل الحب إلى العلاقة بين الجنسين ؟ نحن لا نعرف . ولكنني مقتنع بأنه لم يكن هنالك منذ البداية . وهاكم حدسي : كانت المرأة في البداية مجرد موضوع جنسي للرجل ومعاوناً له في العمل[1] . ولم يكن الاتصال الجنسي في البداية مختلفاً كثيراً عن الاغتصاب . فالرجل البدائي كان ينقّض على المرأة بضراوة ويسيطر عليها بالقوة . (صوّر الفنان الفلمنكي رويس مثل هذا العراك بين رجل الكهوف والأنثى) . والتعابير العامية مثل « ساحر النساء » و « ذئب »(*) تذكّرنا بصورة لا واعية بهذه الأشكال البدائية من ممارسة الحب . كان الجنس مترافقاً في البداية مع العدوانية ، والوحشية ، والقسوة من قبل الذكر ، وكان انتزاعاً عنيفاً للأنثى التي قاومت بكل ما لديها من قوة . كان الرجال يعاملون النساء بخشونة ويجبرونهن على اتخاذ

1 ـ لا آخذ بالحسبان هنا الطور الأمومي الذي ربما يكون قد سبق حكم الذكور في المجتمع . ونحن نعرف اليوم قبائل فيها النساء هنَّ الجنس المهيمن ، كما نعرف بقايا من النظام الأمومي القديم ما تزال موجودة في العديد من الطقوس . ولعله مرّ على المجتمع البدائي عموماً زمن كانت فيه نساء عملاقات ، مثل الأمازونيات ، هن اللواتي يحكمن المجتمع . ونحن لا نعرف كيف أخلى هذا الطور من التفوق النسوي المكان لحكم الرجال . والطور الطويل من الحقّ الأمومي في الحضارة الإنسانية ، مقارناً بالفترات الباكرة من حياة الطفل مع أمه ، ربما تبعه زمن بدأت فيه المعركة بين الجنسين بتمرد الذكر ، الذي أخضع النساء في النهاية لحكمه .

* ـ Wolf ، ذئب ، وأيضاً زير نساء . . .

موقف الدفاع . كان ذلك هو عالم الرجل .وكانت ولادة الإنسان امرأة ،حينئذ ، تعني حياة مشقّة ذليلة .

ليس لدينا أدنى فكرة حول كيفية تغيّر العلاقات الجنسية وتلطّفها وفقدانها لعنصر القوة ، وتحت تأثير ماذا . لا شكّ أن هذا التغير يدلّ على ثورة في التطور القبـ ـ تاريخي للإنسان . ثورة لطّفت الطابع الوحشي للفعل الذي كان تعدّياً عنيفاً أكثر منه اتصالاً جنسياً ، ولم يكن الارتياح الجسدي فيه ليترافق مع الحنان . وما كانت تشعر به المرأة لم يكن في البداية مهماً . والعضّة كانت هي القبلة في هذا الطور القبـ ـ تاريخي .والفعل العدواني الهادف إلى الإشباع الجنسي ، وإلى إنقاص التوتر الفيزيائي ، لم يكن متبوعاً بأي انفعال . وما يزال شيء من الضراوة والهمجية متبّقياً من هذا الاتصال الجنسي شبه الحيواني حتى يومنا هذا[1] . وحتى الآن ما يزال طابعه قريباً جداً من طابع الصراع الضاري والمضني . واللغة الفرنسية تستخدم للتعبير عن الاتصال الجنسي عبارة **Faire L'animal Avec Deux Dos** .

---

١ ـ وصفت امرأة شابة سلوك زوجها في الأشهر الأولى من الحياة الزوجية كما يلي : « إن طريقته في ممارسة الحب كانت ، ببساطة ، عسكرية ، وكان جسدي ساحة العَرْض » . وإنها لمدهشة حقاً تلك الخراقة والافتقار للفهم السيكولوجي والتي يبديها العديد من الرجال المثقفين في مقاربتهم الجنسية . وإذا ما استخدمت تشبيهاً ، فإن كثيراً من الرجال يبدون وكأنهم يفضلون تحطيم الباب بدلاً من فتحه . ولقد اشتكت امرأة من قوة وخشونة زوجها حديث العهد قائلة : « إن الأمر كما لو أنه يريد توضيب حقيبة السفر » . وتشعر معظم النساء أن مقاربة الرجال الجنسية جدّ منقطعة ومنفصلة عن سلوكهم الاجتماعي العادي تجاه النساء . وتعتقد النساء أنه ليست هنالك أية انتقالات ، أو أنها قليلة جداً ، من المغازلة إلى الجنس . وحسب تعبير أحد المريضات ، فإن الجنس لدى الرجال « فوري جداً . وتوقّعُ أن الرجل سينتظر إلى أن أكون مستعدةً هو بمثابة طلب للقمر » .

وحتى بعد أن حصل تغيّر أساسي ، فإن العلاقة الجنسية لم تكن سوى إرضاء للدافع الجنسي الفجّ . لم تكن علاقة شخصية . وبعد الإطلاق لم يكن هنالك سوى اللامبالاة تجاه الشريك ، دون أي أثر للحنان . ولم يربط الرجل ولا المرأة الجنس بالتشارك والرفقة . اثنان يلتقيان ويقيمان اتصالاً جنسياً ثم ينفصلان . ولم يكن ثمة أي رباط آخر بين الاثنين . كانت اهتماماتهما متباينة . ولم يكن بينهما ما هو مشترك إلى جانب الاحساس الجسدي الذي يدوم دقائق معدودات . والتغيرات التي أدّت إلى إنقاص العنف في الجنس (والتي لا نستطيع تخمين طبيعتها) لم تسهم أي إسهام في تشكيل التشارك الانفعالي بين الجنسين .

ويبدو من الواضح أن هذا التغير الأول في طابع العلاقة الجنسية كان من فعل النساء . وما تزال مجهولة تلك الوسائل وتلك الظروف التي في ظلّها جعلت النساءُ الرجالَ يتخلّون عن عنفهم ووحشيتهم في إشباع الحافز الجنسي . ومن المؤكد أن هذا التغيّر لم يحصل فجأة . ولعل تلطيف العنف الذي كان موجوداً في المقاربة الجنسية الأصلية قد استغرق قروناً عديدة . ولكنه كان انتصاراً أحرزته النساء . فما عدن بحاجة لأن يخفن من الأذى والانجراح في العلاقات الجنسية . وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو أنسنةHumatizationالجنس ، منذ آلاف السنين الحالية . ولكن يجب أن لا ننسى أن همجية الرجل لم تُستأصل تماماً أبداً . وما تزال لدى النساء بقايا من الخوف البدائي تجاه جنسية الذكر . وهذا ارتكاس أوليّ يتم التأكيد عليه في موقف النساء الهستيريات . (قال لي فرويد مرة : « المرأة التي لا تكون على الأقل هستيرية هي بقرة ») .

حتى بعد هذا التغيّر لم يكن هناك أي تبدّل أساسي في العلاقة بين الجنبسين . ففي عصر الماموث والذئب الكبير لم يكن للأنثى كبير سلطة على الرجال . لعل الرجل كان مستعداً آنذاك لأن يقدّم من أجلها شيئاً ما ، ولكن ليس روحه بالتأكيد . ولم تصبح النساء ذوات سلطة إلا بعد أن كان الرجال قد بدأوا يحلمون بهنّ في يقظتهم ، ذلك أنهنّ ، رغم كل شيء ، أكثر إغواءً في الاستيهامات منهنّ في الواقع .

البارحة

حصلت الثورة الثانية مع دخول الحب إلى الحياة الجنسية أو مع ولادة الغرام ، كما نقول اليوم . وكان هذا تقدّماً على طريق الحضارة الإنسانية بمثل أهمية تحرير العبيد . ونحن لسنا قادرين على تحديد تاريخ هذا الحدث العظيم شأنه شأن التطور الثوري الأول في الحياة الجنسية والذي سبقه بآلاف عديدة من السنين[1] . هل يمكننا أن نخمن كيف اندفع الحب ـ ولنسمّه الغرام ـ إلى ميدان الجنس ؟ ها أنا أعترف صراحةً أن الفرضية التي سأقدمها ليست قائمة إلا على عديد من التبصّرات المستحصلة من التحليل النفساني لرجال ونساء من زمننا ، ، وعلى مقارنة هذه النتائج مع آثار تطور ممكن يمكن لنا أن ندرسه في مساهمات مؤرّخي الحضارة والاثنولوجيين . وإنني لأزعم أن

---

1 ـ إميل لوقا (درجات الغلمة الثلاث Die drei stufen der Erotik)، و دينيس دي روجيمون (الحب في العالم الغربي ، نيويورك ، 1941) ، وغيرهما من الكتاب (أندريه موريس ، وجوه الحب Visages de L'amour ، نيويورك ، 1942) أكّدوا أن الحب نشأ في زمن التروبادور ، بين القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ، وأنه أُدْخِلَ عن طريق عبادة السيدة العذراء . ومعظم هؤلاء المؤلفين يعتبرون الحب ، بالطبع ، شكلاً سامياً ، وروحانياً من الدافع الجنسي . ولا حاجة بي للاشارة إلى أن البحّاثة الذين يزعمون معرفة ميلاد الحب في تاريخ النوع البشري يخلطون مرحلة الذروة من تطوره مع بدايته . إن في مثل هذه الأقوال من الفانتازيا بقدر ما في تأكيد مؤرّخ للأدب أن التراجيديا ظهرت أولّ ما ظهرت في مسرحيات شكسبير .

هذا التطور كان من فعل النساء . فقد علّمن الرجال الحب مثلما عملن من قبل على تلطيف الهمجية في التعبير الجنسي الذكري . وإنني لأتخيّل أن معاملة النساء في الحياة اليومية كانت خشنة ، وعلى الأقل لا مبالية ، وأن الرجال كانوا يفضّلون رفقة الرجال ، وينظرون إلى النساء نظرة دونية ويعتبرونهنّ بمثابة موضوعات جنسية ومعاونات في العمل وحسب . وفي هذا الزمن أقام البشر نظاماً بطريركياً ومؤسّسة القبيلة . وكانت كل المنطلقات السيكولوجية للغرام مُفتقدةً ؛ لم يكن هنالك أي توتر انفعالي ، ولا حسد أو غيرة ، ولا حاجة للإنتزاع . كان الرجال ينالون إشباعهم بمجرد الامتلاك الجسدي للنساء . وكانوا يستعملون النساء جنسياً ثم يلقون بهنّ جانباً . لم يكن للنساء أية أهمية كأشخاص وإنما كأدوات جنسية وحسب . ولم تتغيّر الحياة الجنسية أو أنها تغيّرت بحدود تطور الماموث إلى فيل . وحده تطور العاطفة غيّر طابعها ووسّع ميدانها .

مع الحب جاء إلى العالم شيء جديد ، تمكن مقارنته بظهور الإنسان بين الثدييات البدائية . ولا بد أن بعض النساء قد تمرّدن على اعتبارهنّ مجرد متاع للرجل ، ولا بدّ أن ذلك قد خلق وضعاً أفضل لتبرعم الغرام . وباعتقادي أن قلّة من النساء المتفوقات ، أو مجموعة منهنّ ، قد خلقن جوّاً انفعالياً في موقفهن من الرجال أثار توتراً ، وحسداً ، وإعجاباً نافراً كان بمثابة عنصر جديد في العلاقة بين الجنسين . فالنساء اللواتي كنّ في البدء مجرّد موضوعات للاشباع الجنسي ـ ويمكن القول أيضاً ، مجرد ضحايا لحافز الرجال الجنسي ـ غيّرن الوضع إلى وضع صرن فيه موضوعات للتوق ، ولم يعد الرجال يرغبون بهن جنسياً وحسب بل ويغازلونهن أيضاً . ويمكن لنا أن نخمّن أن البواعث الأشدّ لدى النساء كانت حسدهن وعداءهن للرجال ووضعهم المتميز . لقد كانت النساء خاضعات لحوافز الرجال الجنسية ؛ وما كنّ يشعرن بنفس الحدّة بالحاجة الجنسية ولا بنفس الدرجة من الإشباع الحسّي . وراح بعضهن ينازع الرجال بالثورة على ما نالهن من خزي وما خضعن له من معاملة فظّة ، إن لم يكن في الاتصال الجنسي ، فخلال الحياة اليومية .

لقد شرعن بالتمرد على رجالهن . وما عدن يستسلمن بحماقة وعدم اكتراث

لرغبات الرجال الشهوانية ، وإنما استحضرن أنفسهن وأنكرن ما كُنَّ يقمن به من أعمال الخدمة . وراح الرجال يضربونهن ويقسرونهن على الخنوع . وكان عليهن أن يستسلمن ، لكنهن لم يُهزَمن . وأدرك الرجال أن النساء لم يعدن أدوات طيّعة يعبثون بها ، وإنما صرن يبدين مقاومة تجاه القوة ولا يستسلمن لها إلا كارهات . وإذا ما خضعن ، فبعنادٍ وتأفّف . وإذا ما استسلمن ، فدون أن يتراخين أبداً . وإذا ما امتثلن ، وعانين بصمت وصلابة ،فدون أن يستجبن . وكانت نساء حقبة ما قبل التاريخ يحجبن أنفسهن عن أزواجهن وعشاقهن إذا ما شعرن بمعاملة سيئة . أما سيدات أيامنا فلديهن الصمت ذاته ولكن مع نوع ساحق من الردّ السريع وحضور البديهة .

كان ثمة أمام الرجل طريقان مفتوحان لملاقاة هذا الوضع الجديد : إما أن ينال بالقوة ما بدأ يفقده من الاشباع ، أو أن يسعى خلف نساء أخريات أكثر استعداداً للإذعان لرغباته . ولا شك أنه قد جرّب كلا الطريقين . ولقد ثبت أنهما غير مشبعين في نهاية المطاف ، حتى ولو عملا على تسكين حوافزه الجنسية لبعض الوقت . وهكذا بدأ استيهامه ينشغل بامرأة واحدة تتمنّع عنه ، أو تمنحه نفسها بسبب قوته الجسدية وحسب ، بسبب عنفه . وعندئذ ، اكتشفت النساء السبل والوسائل لإشغال خيال الرجل . ولقد تعلّمن أن يُقدمِنَ ويُحجمِنَ بحيث رسخت صورة المرأة الواحدة التي تتمنّع وأثبتت أنها أقوى من واقع النساء الأخريات الخانعات . وكان على الرجال أن يتعلّموا سلوك الطريق الصعب كي يتمكنوا من جني المزيد من العسل لا مزيد من الخلّ . لكن دربهم إلى الحب كان وعراً .

خلقت المرأة وضعاً يشتمل على كل الإمكانيات الانفعالية لولادة الغرام . عبق الجو بالتوتر ، والعداء والحسد . وبرفضها منح نفسها ، اكتشفت المرأة الشرط اللازم لخلق التوق لدى الرجل . ولا بد أنه قد شعرأن بمقدوره إعادتها إلى الخنوع والطاعة ، والتغلّب على ممانعتها ومقاومتها ، إذا ما قام بما تريده . كان الرجل البدائي في وضع يائس . ولا بد أنه ذُهل ، ولعله كان ليتساءل ، لو قُيِّض له أن يعبِّر

بلغتنا : « ياللجحيم ، ما الذي تبغيه ؟ » ومن المؤكد أنه لم يكن أقلّ خراقةً وحُمقاً من كثير من رجال زماننا . وربما كان مهتاجاً وساخطاً ومرتبكاً ، شأنه شأن كثير من الأزواج والعشاق الشباب الذين هم اليوم في وضع يشبه وضعه . فهم ، وقد استعدّوا للقيام بما يُطلب منهم ، لا يعرفون ما يتوجب فعله حين لا يُطلب منهم فتراهم وقد سيطر العجز عليهم بسبب افتقارهم إلى الشعور والحس تجاه الرغبات الصامتة . ولا شك أن الرجل البدائي قد حاول مقاربة المرأة الراغبة عنه بطرقٍ خرقاء شتّى . (ألم يلاحظ بلزاك أن تعبير الرجل عن هواه هو في بعض الأحيان مثل محاولة الـ الأورانجوتان(*) العزف على الكمان) .

وعلى أية حال ، فقد كان ثمة سبيل ، دلّته عليه بوضوح رغبته في أن يرى زوجته تسلك سلوكاً حسناً من جديد ؛ سبيلٌ لأن يتصادق معها ويعاملها جيداً ؛ لأن يخطب ودّها ويكسبها . ومن خلال ذلك ،تعلّم الرجال أن بمقدورهم تحقيق رغباتهم بوسائل أخرى إلى جانب مقارعة الشخص الذي يقاوم . وكان قد سبق للرجال أن تعلّموا التعاطف مع غيرهم من الرجال ، وتعلّموا أن يكونوا لهم رفاقاً لا أعداء . وبتغلّبهم على ما لديهم من عداء وحسد ، بدأوا يحبّون النساء . وهكذا ولدت العاطفة ، وظهر الحنان لأول مرة في العلاقة بين الجنسين . وبعد ذلك ، حين كانت النساء تشعرن بسوء المعاملة والإذلال ، كنّ يرفضن منح أنفسهن مرة أخرى ، وكن يستخدمن سلاحهن الوحيد : الانقطاع عن الرجال . وكان على الرجل ، في ظلّ هذه الظروف ، أن يسترضي المرأة ثانية ، وأن يتودّد إليها ويستعيدها إليه .

وفي النهاية ، أصبح رفض المرأة للاستسلام إلا بمشيئتها ضماناً لها ضدّ الخزي والعداء ، وضماناً بأنّ الرجل سوف يعاملها بصورة حسنة ، ولن يزدريها أو يجرح كبرياءها . وأصبح الحب ، والتقدير ، والإعجاب ، والتقييم العالي هو المنطلق الضروري من أجل الاستسلام لرغبات الرجل الجنسية . وأصبح رفض إغواءاته الجنسية ، إنْ لم يكن قد تعلّم بعد أن يحبها باعتبارها شخصاً ، جزءاً أساسياً من

---

* ـ الـ Orangoutan : ضرب من القردة العليا الشبيهة بالإنسان .

تكتيكات المرأة في المعركة بين الجنسين . وهنا بذرة الانفعال المشبوب الذي نلحظه اليوم ، وأرومة ما ندعوه بالغرام . وأودّ أن أشير ـ بكل تهذيب ، بكل تهذيب ـ أن الحب ، سواء أكان خيراً أم شرّاً ، هو من ابتكار السيدات ، وليس الرجال .

إن تمرُّد النساء على احتقار الرجال لهنّ . وعلى سوء معاملتهم ، قد خلق حاجة جديدة لدى الحيوان الذكر . ولا بدّ أن انطباعاً حَدْسياً تكوّن لدى النساء ومفاده أن الرجال سوف يقدّرونهن أعلى بكثير ويعاملونهن بلطافة أكبر إذا ما أمكن جعل العلاقات الجنسية أصعب منالاً وأشدّ كلفة . وربما تعلمّن من تربية أطفالهن أن حالات التمنّع والرفض بين الفينة والفينة سوف تثني إرادة الأولاد ـ وهل الرجال سوى أطفال كبروا ؟ وتحقّقت النساء بوضوح من أنّ عليهن أن يمثّلن ما هو أكثر من موضوع للإرضاء الجنسي وحيوانٍ للعمل المنزلي إذا ما أردن من الرجال أن يقيّموهن على نحو مختلف ولا ينسوا وجودهن بعد بضعة دقائق من الإطلاق الجنسي . لقد حسدن سلطة الرجال عليهن وأُعجِبنَ بها إعجاباً حاقداً ، وأردن قلب الأدوار ، وزرع الغيرة والحسد في قلوب الرجال .

وهكذا خلقن توتراً ، ومشاعر حسد وجشع ورغبة بالانتزاع ، وهي الشروط اللازمة الضرورية للتوق الانفعالي الجديد . وهكذا فإن النساء اللواتي كُنَّ شجاعات بما فيه الكفاية بحيث جازفن بكل شيء كي يكسبن كل شيء اثرنَ خصومة الرجال وعداءهم ، كما ضَمِنَّ أيضاً ، وبأسلوبهن الحاذق ، وسائل التغلّب على المشاعر السلبية وقلبها إلى عاطفة وحنان . والرجال الذين كانوا قد عاملوهنّ باحتقار ولا مبالاة حتى ذلك الحين اضطروا الآن إلى اتّباع طريقة سلمية كي يتحولوا إلى عشاق بدلاً من كونهم حيوانات مهتاجة جنسياً . وليس ثمة إمكانية لدينا لمعرفة كيف أو متى حصلت هذه الثورة . ولا نعرف إلا أنها لا بدّ أن تكون قد حصلت خلال طور معين من أطوار التطور الثقافي حين رفضت النساء أن يبقين مجرد موضوعات لحافز الرجال الجنسي وعدائهم . وما تزال أصداء هذه الثورة النسوية ضد طغيان الرجال تتردد في الفلكلور ، والأساطير ، وحكايات الجنّيات ، وفي عدد هائل من آثار النزاع والتنافس في عصور

مـا قبل التـاريخ ـ مثلاً ، في الليزيستراتـا ، والأسـاطير الاغـريقيـة عن الأمازونيات ، ويرنهيلد والفالكيريز في الفلكلور الألماني ، وهلمجرا .

ثورة النساء اللواتي أردن أن يحظين بقيمةٍ أعلى ومعاملة أفضل عبّدت الطريق للعاطفة والحنان في العلاقة بين الجنسين وخلقت الغرام في النهاية . وبرغبتهن في الانتقام أقحمن عنصر التوتر في اتصالهن الجنسي المملّ مع الرجال الذين كانوا يستهدفون أجسادهن وحسب في هجمات دورية من التهيج الجنسي . وشعرت النساء أنه لا بد من تغيير أساسي في موقف الرجال تجاههن . وأحسسن أنه ، من أجل أن يَكُنَّ موضع احترام ، كان لا بدّ من الكفّ عن أن يَكُنَّ عاديات . كان عليهن في البدء أن يصبحن غريبات عن رجالهن قبلَ أن يكون بمقدورهن أن يأملن بحلول مودّةIntimacyانفعالية جديدة محلّ إهمال وعدم اكتراث الرجال بهن . ولقد أشعرن الرجال بما شعرن به من قبل : الحسد ، والطمع ، والتملّك ، والرغبة في حيازة الموضوع كلياً .

لم يتقدّم هذا التطور بالسرعة والنعومة التي صورّتها هنا . ولعل هذه المعركة بين الجنسين قد دامت قروناً عدّة ، ولا شك أن المسيرة كانت عسيرة ، فترويض الشرس ليس مهمة يسيرة ، خاصة إذا كان بمثل الترويض الذي حصل في السابق للحيوان الذكر . لا بدّ أنه كانت هنالك هجمات وهجمات مضادة ، صراعات وانتقامات ، لكن النساء حقّقنَ هدفهن في النهاية . يقول المثل الفرنسي : Ce que Veut La Famme , Dieu Le Veut[*] . ولقد أفلحت النساء . وأضحى استعدادهن للجنس مكافأة تُجزى مقابل اللطف والصداقة التي على الرجال أن يظهروها مُقدّماً . وأضحى الإشباع الجنسي هو الهدية التي يتمّ تقديمها لقاء تحقيق مطالبة النساء بحقهنّ في أن يكنّ محبوبات . فطالما كُنَّ تحت رحمة الرجال ، مُهْملاتٍ ، ويُنظَر إليهن من علٍ ؛ وطالما كُنّ موضوعات ، لا للأشواق والتوق ، وإنما للرغبات الجنسية ، فإن الحب كان مستحيلاً .

---

* ـ بالفرنسية في النص الأصلي : « ما تريده المرأة ، يريده الله ».

في الأصل ، دخل الغرام إلى العلاقة بين الرجال والنساء ، لا كنتيجة وعاقبة للجنس ، كما يتصوّر المحللون النفسانيون ، بل بالتعارض مع الجنس ، وكحاجز لا بدّ من تخطّيه قبل أن يتمّ منح الإرضاء الجنسي .

ولا شك أن دخول الحب إلى الحياة الجنسية قد مارس تأثيراً عجائبياً على تاريخ النوع البشري ، شأن تأثيره اليوم على حياة أي رجل . لقد جاء كعنصر جديد ومُسْكِر كي يرافق الإشباع الجنسي مرافقةً جعلت التجربة الجنسية أعمق وأغنى وأسمى ، وتجاوز كل ما سبق للرجال أن عرفوه أو شعروا به . فعندما شرعت النساء بمشاركة الرجال مشاعرهم ، أضحى الاتصال الجنسي لا مجرد متعة ، بل سعادة تحوّلت إلى نعيم ، حين بلغا كلاهما الذروة معاً .

لقد كان إذعان النساء وامتثالهنّ لمطالب الرجال هو الهدف الأول ، أما استجابتهن الجنسية والحنونة فكانت هي الهدف التالي والأسمى . والأهمية المتزايدة لاستجابة النساء ، وحقيقة أن الرجال بمقدورهم أن يؤكّدوا لديهن عاطفة مرتدّة وحتى أن يوقظوا لديهنّ التلهف الجنسي ، وسمت الخطوة الأخيرة من هذا التطور . ولعل الرعشةOrgasmالجنسية النسوية كانت حدثاً نادراً في الأطوار الأولى من العلاقات الجنسية . وحتى اليوم ، فإن الاستجابة الجنسية لدى البنت العادية في علاقتها الأولى برجل غالباً ما تكون متأخرة .

معاقةً بشعورها الدونيّ الناجم عن كونها مُحِبَّة ، وفي حاجة لأن تكون محبوبةً ، كانت المرأة الآن قد أيقظت لدى الرجل هذه الحاجة الجديدة . لقد أخرجت من كبريائها الجريح قوةً لم يُسْمَع بها من قبل غيّرت طابع جنسية الرجل . لقد اضرمت النار بإسقاطهاProjectمشاعرها الخاصة الخفيّة على الرجل ، لكن ألسنة اللهب الذي أضرمته جعلتها تلتهب الآن هي نفسها . كان الأمر كما لو أن شخصاً أضرم النار عامداً في بيت جاره فحملت الرياح المتقلّبة شرارات من المبنى المشتعل إلى داره هو . وصارت المرأة الآن ، بعد أن غمرها إدراك أنها ليست مرغوبة جنسياً وحسب بل ومحبوبة ومثيرة للإعجاب أيضاً ، تشعر بالهوى الذي أيقظته لدى شريكها ، وتنصهر في النار التي

أشعلتها . تلك كانت معجزة التحام الحب بالجنس ، هذا الحدث الذي هزّ تاريخ التطور البشري ، والذي نادراً ما تمّت الاشارة إليه في أي كتاب مدرسيّ في التاريخ أو السيكولوجيا .

أودّ أن أؤكد ثانية أن الحب تصارع مع الجنس في الأصل ، ذلك أنّ لهذا الأخير طبيعة عنيفة وتملكية ، بينما يقتضي الحب الاهتمام والحنان . وإنه لنصر مطلق التحام هاتين القوتين المتصارعتين ، القديمة الطغيانية والجديدة اللطيفة ، وتمكّنهما من التحكم بميدان أوسع بكثير من ميدان الجنس المحدود . ليس الحب جنساً مكفوف الهدف أو مكبوحه بل ، على العكس ، فإن الحب يساعد على كفّ الجنس وما فيه من توحّش . ليس الحب من نسل الدافع الجنسي ، وإنما برز إلى الوجود كمنافس له ، قَارَعَهُ وفي النهاية اتحد معه . لقد حظَّر الحبُّ العداء المتصل بالجنس لدى الإنسان البدائي ، ولطّف عدوانيته ووقى المرأة . ليس الحب جنساً متحوّلاً ، بل هو الذي حوّل الجنس . فقد جعل موضوع اللذة الحسيّة موضوعاً للحب فضلاً عن كونه موضوعاً للرغبات الجنسية . ويُعْتَبر الحب ، ولهذا ما يبرره ، بمثابة مُحْدث نعمة في عائلة الغرائز ، وبمثابة غريب ومتطفّل . فالحب ، في الحقيقة ، هو نتاج للحضارة التي عملت ، كلما كان ذلك ضرورياً ، بالتعارض مع الغرائز الأشدّ بدائية إلى أن احتلّ الحب مكانه بينها .

إنني أقدّم هذه الفرضية عن غزو الحب علاقات الرجال بالنساء ومعها كل التحفظات الضرورية لدى تقديم نظرية جديدة ، ولكنني أعتقد أنها تتمتع بدرجة عالية من المعقولية والاحتمال . وهي تطرح أسئلة عديدة ؛ مثلاً ، هل شعرت النساء بالحب تجاه الرجال قبل أن يشعر به هؤلاء تجاههن ؟ هل يشتمل التطور المقترح على أن النساء أكثر قدرة على حب الرجال قياساً بقدرة الرجال على حبهن ؟ وإجابتي دون تردد هي النفي . ففي الوضع الانفعالي الذي صوّرته هنا ليس الحب هو الذي اشترط التغيير ، وإنما رغبة النساء في أن يكُنَّ محبوبات ـ هذه الرغبة التي تصنع عالماً مختلفاً . وفي هذا الطور ، لم يكن ثمة أي « حب شخصي » (كما يقولون) في العلاقة بين

الجنسين . (والحب الشخصي تعبير لفظي كما عند قولك : زنجي غامق اللون . فالحب لا يمكن أن يكون إلا شخصياً) . لكن النساء لم يملن إلى معاملتهنّ كموضوعات جنسية متماثلة ، كقطع من اللحم يمكن استبدالها بسهولة بغيرها من الإناث . وهنّ لا يملن إلى مثل هذه المعاملة حتى اليوم . وإنما يُرِدْنَ أن يُنظَر إليهن كأفراد ، كشخصيات لا يمكن خلطها بغيرها أو استبدالها بها .

طالما كانت النساء تشعرن بأنهن مُذَلّات ويعاملهنّ الرجال بإحتقار ، ما كُنّ ليستطعن الحب . كان لديهنّ كثير جداً من عدم الاطمئنان وقليل جداً من الثقة بالنفس . فكيف استطعن ، إذاً ، أن يحببن أولئك الرجال الذين أشعروهنّ بالدونيّة ؟ لا بد أنهن استعدن الطمأنينة وحظين بمزيد من الثقة ، قبل أن يستطعن ذلك . ومثل هذا الشعور بالثقة لا يمكن أن يتأتّى لهنّ من كونهن مرغوبات جسدياً لدى الرجل المتهيج . فطالما كانت المرأة مجرد موضوع جنسي ، وتُستخدم مثل أية إمرأة أخرى ، دون تمييز ، وتُعامل معاملة سيئة ، ما كانت قادرة على أن تحب نفسها . ومن ثم فإن النساء ، ومن خلال إتّباع نزوعاتهنّ العميقة ، وليس عن طريق الحيلة والخداع ، خلقن لدى الرجال توتراً ونزاعاً ولّدا في البدء الطمع ، والإعجاب ، والعداء ، وولّدا في النهاية الرغبة في أن يكون المرء شبيهاً بآخر .

كل الشروط اللازمة للحب كانت موجودة مسبقاً في نفوس النساء . كل شيء كان جاهزاً من الناحية السيكولوجية ، لكن النساء لم يحببن الرجال . كان لا بدّ في البداية من أن يكنّ محبوبات هنّ أنفسهن . ويقول الناس أن ثمة فارقاً عظيماً في الحياة الانفعالية لكلا الجنسين ، فالرغبة هي التي تنجب الحب لدى الرجال ، أما لدى النساء فإن الحب هو الذي ينجب الرغبة . ونحن ندرك الآن أي مقدار من الخطأ المختلط مع الحقيقة في مثل هذا القول . فالرغبة البسيطة لدى الرجال لا تنجب الحب ، وإنما الرغبة غير المحققة ، والمترافقة مع مشاعر الغيرة والعداء . والحب لدى النساء لا ينجب الرغبة ، وإنما التحقّق من كونهنّ محبوبات ومطلوبات . النساء لم يحببن الرجال ، وإنما خلقن لديهن الهوى ، والذي ارتدّ إليهن . لقد قذفن الرجال بسلاحهنّ ، وانقلب هذا

السلاح إلى بوميرانج(*) عاد وأصابهنّ . فالرغبة الأصلية لدى النساء لم تكن أن يُحْبَبْنَ ، بل أن يكنّ محبوبات . ولقد عمل الحب ، حالما استيقظ لدى الرجال ، بمثابة وقاء ضدّ عدائهم الموجّه إلى النساء وتجاهلهم لهن . وعمل في الوقت ذاته على ضمان الإستقرار ومعاكسة تقلقل الرجال (من الذي يقول أن « La donna e mobile » ؟ إنّ الرجل لهو كذلك أكثر بكثير) ، كما عمل بمثابة وقاء ضد خطر رميهنّ جانباً ، ونبذهن ، وسوء معاملتهن . صحيح أنه ليس وقاءً كافياً وموثوقاً ، ولكنه يقوم بوظيفته لفترة من الزمن .

وإمرأة اليوم لا تختلف بهذا الصدد عن إمرأة ما قبل التاريخ . فهما أختان تحت الجلد . فهل تغيّر الوضع جذرياً ؟ لا ، بالتأكيد . فاليوم ، كما منذ آلاف السنين ، تريد النساء أن يكنّ محبوبات قبل أن يستسلمنّ . وما يزال حذرهن تجاه الرجال يجعل الإحجام والتأخير ضروريين . ولقد قالت إمرأة عن غزل الشبّان العاصف : « إذا ما جرت الأمور بسرعة زائدة ، فإن ذلك يرعبني » . إنّ لديهنّ خوف قديم ، يعزّزه التقليد النسوي ، من أن يعاملهنّ الرجال بإحتقار ويلقوا بهن جانباً بعد أن « يقضوا وطرهم » منهن . وهو خوف بقي على قيد الحياة عبر أجيال لا يحصرها العدّ . والنساء اليوم ، كما في السابق ، يُرِدْنَ وقاية أنفسهن من مثل هذا الخطر . إنه لمن مصلحتهن حماية الغرام وتأخير الاستسلام إلى حين الحصول على ما يضمن الإهتمام بهن . ومعظم النساء ينتابهن الخوف بين فترة وأخرى من أن يصبحن غير مطلوبات . (« بعد حين سوف لن يحبني أبداً »). ولن أنسى كيف ناشدتني شابة أثناء التحليل ، وكانت قد شعرت من قبل بخطر تودّدِ رجل جذاب إليها : «لا تدعني أقع في حبه ، أرجوك ، إلا بعد أن أتأكد تماماً من أنه يحبني ! » هكذا ينطق واحد من أقدم المخاوف لدى النساء .

لعل إقتراحي حول كيفية ولادة الغرام هو أقلّ أهمية مما بدا عليه للوهلة الأولى . لكن ما قدّمته ليس حكاية محضة . فتخميني مؤسّس على مقارنة المئات العديدة من

---

* ـ البوميرانج ، سلاح يرتّد إلى الرامي ، كان يستخدمه سكان استراليا ، وهو مكوّن من قطعة خشب ملويّة أو معقوفة .

القصص التي قصّها عليَّ رجال ونساء أثناء جلسات التحليل ، وليس بمقدوري أن أعيد سردها هنا . وثمة نساء كثيرات عبّرن في هذه الجلسات عن آمالهنَّ ومخاوفهنَّ ، عن بؤسهنَّ وسعادتهنَّ ، وتحدثن عن هزائمهنَّ وإنتصاراتهن . وثمة رجال كثيرون حكوا لي عن صراعاتهم وعن تقلّبهم بين رغباتهم الجنسية وعاطفتهم ، وعن ضروب الإنجذاب التي شعروا بها تجاه نساء مختلفات . وغالباً ما كانت لديَّ إمكانية مراقبة التطور من الرغبة الجنسية بإتجاه الحب الرومانسي ، والطرائق الحاذقة للسيدات اللواتي أحدثن تغيّرات انفعالية لها الطبيعة الموصوفة آنفاً ، أو اللواتي أخفقنَ في فعل ذلك .

ويحضرني للتو سؤال مدهش طرحته عليَّ مرة سيدة شابة : « هل يشعر الرجال بأي شيء مهما يكن ؟ » وبالطبع فإنها قصدت أن تسأل عمّا إذا كان الرجال يشعرون بأي شيء عدا الحافز الجنسي الخام ، وعمّا إذا كان لديهم انفعالات عاطفية قبل الإتصال الجنسي أو أثناءه أو بعده . ولا بد أن يكون مثل هذا الانتقاد لموقف الرجل البعيد عن الحب قد دفع النساء مرة إلى التمرد . والنساء لم يكنّ عاطفيات أو رومانسيات هن أنفسهن . لقد أردن أن يكون الرجال عاطفيين أو رومانسيين ، ولقد نجحن إلى حدّ بعيد مع الشباب ، البعيدين كل البعد عن الواقعية . ولقد أقحمت النساء فكرة الحب ، هذا العنصر الأشدّ أهمية في العلاقات الجنسية ، في عقول الرجال ، وبالأحرى فقد أدخلن في عقولهم فكرة أن يحبوهنّ . ولا بد أنه كان لدى النساء إنطباع لا واعٍ مفاده أن هذه الرغبة بالحب هي غريبة في الأصل عن الرجال ، بحيث بات من المتوجبَ جلبها إليهم من الخارج . وهكذا صار الحب مألوفاً لدى الرجال ، ولكنه بقي شيئاً مستورداً .

وفي بعض الأحيان تعبّر بعض النساء الذكيات والمخلصات عن ذهولهن تجاه الإحساس المفرط بالغرام ، والبعيد جداً عن الواقع ، الذي يصدر عنه كثير من الرجال . ويدهشهن وضع الرجال لهنّ على أعلى قاعدة التمثال إذا ما أحبوهنّ ، وهو موضع لا يرتحن فيه . وربما كُنَّ يعتقدن أن مثل هذه المثلنة Idealization ضرورية للرجال لأن أوهامهم سريعة العطب . ولقد قالت مرة إحدى هاته النساء الذكيات ، وهي مدام

جيراردين : « الحب لدى الرجال ليس عاطفة ، وإنما فكرة » . ويبقى صحيحاً أن النساء الأشدّ ذكاءً لا يقلن أي شيء ، وإنما يلذن بالصمت بهذا الصدد .

من المحتمل أن تكون الثورة في الحياة الجنسية ، والتي إتسمت بتدفق الحنان والعاطفة ، قد بدأت بنخبة من النساء ، ومن ثم إمتدّت إلى الأخريات . ولا أعتقد أن ذلك قد كان جهداً منظّماً ، وإنما مغامرة خصوصية . وربما لم يشعر في البداية بالتغيّر سوى جماعة صغيرة من الرجال الذين أقرّوا على مضض بوجود سلطة جديدة تحكم بطغيان أشدّ لأنها تحكم بلطف . وبعد مرور بعض الوقت لا بدّ أن كل واحد من هذه الجماعة قد ظنّ نفسه ممتلكاً لسرّ سعيد ما من أحد يعرفه سواه ـ شأنه تماماً شأن أي شاب يقع في الحب اليوم .

لا شك أن كون النساء محبوبات قد عاد عليهن لاحقاً بمنافع مادية وانفعالية أخرى . فقد أفادت النساء من رومانسية الرجال . وحاولن الإبقاء على ما لدى الرجال من وهم حيالهن . وهنا ميلاد الفروسية والغزل . ولقد كانت الوظيفة الأولى والأساسية للسلطة الجديدة هي حماية المرأة من إهمال الذكر ، وتجاهله ، وعدائه . وكونهن محبوبات منحهنّ كرامة وثقة جديدتين ، وأيقظ لديهن قوى جديدة ، وجعلهن أكثر جمالاً وعذوبة ، شأنه اليوم تماماً .

وتقديري هو أن العلاقات الجنسية البشرية قد بقيت زمناً طويلاً ، ربما لمئات عديدة من آلاف السنين ، دون أن يمسّها الحنان أو العاطفة . ومن ثم حدثت سيرورة بطيئة من التكيّف المتبادل والضبط ، لدى أفضل الأزواج ، وأدّت إلى رباط مبهم ما من أحد أطلق عليه إسم الغرام . أما الزعم الذي عبّر عنه بعض السيكولوجيين ، والذي مفاده أنّ الإشباع الجنسي الذي يناله الرجال يؤدي أولاً إلى إقرار بالجميل تجاه النساء وفي النهاية إلى حبهنّ ، فهو زعم فانتازي . وما من حاجة لمناقشة هذا الأمر . ذلك أن الملاحظة اليومية للحياة تدحض هذه النظرية بكل وضوح .

طوال عصور ظلّ الغرام بالمعنى الذي أعطيناه له غريباً عن الإنسان . وإذا ما وثقنا بالدارسين الأكفاء للقبائل نصف المتمدنة ، وبالمبشّرين الذين صرفوا سنوات

عديدة في الشرق الأدنى ، فإن الغرام ما يزال مجهولاً إلى الآن لدى جزء كبير من البشرية . أما في الأزمنة القديمة المتأخرة ، والتي لنا معرفة بها ، فإن الغرام ، بإعتباره شيئاً متميّزاً عن الرغبة الجنسية ، وبمثابته تقدير للمرأة باعتبارها موضوعاً للحب ، كان ظاهرة غير مألوفة . ونحن نجد اليوم وضعاً مشابهاً لدى طبقات المجتمع الدنيا حيث ينظر الرجال إلى النساء باعتبارهن موضوعات جنسية وحسب ، وحيث تتسم العلاقة بين الجنسين بالأنانية الفجّة والاهتمامات الشهوانية وحدها .

آمل أن أكون قد أوضحت في هذا الفصل أن الحب كان معاكساً للجنس في الأصل ، وأنه إنبثق كقوة مضادة له ، وأنّ صراعهما أفضى لاحقاً إلى تسويةٍ وإندماج مجيدين بين هذين العدوّين .

رسالة نقد

لقد اعترفتُ صراحةً أنَّ تاريخ الحب الذي وضعتُ خطوطه العريضة في الفصول السابقة هو مجرد تخمين ، وأنه عرضة لكل ضروب النقد . فلعل عوامل هامة نجهلها كانت ذات أثر في تطور الغرام ؛ ولعل قوىً أغفلناها كانت قد فعلت فعلها فيه وحدَّدت سياقه . وإذا ما اكتُشِفَتْ هذه العوامل والقوى ومتى ما اكتُشِفَتْ ، فسوف أكون أول من يعترف بتأثيرها .

إن سيدة شابة من معارفي قرأت هذا القسم من المخطوطة وكتبت إليَّ رسالة نقد تستحق اهتماماً جدياً . ولقد وصفتْ هذه السيدة الموجز الذي قدّمتُه هنا بأنه « عرض عضلات » ذلك أنني لم آخذ بالحسبان أن للجنس والحب علاقة بإنجاب الأولاد . وإليكم هذه المقتطفات من رسالتها :

« . . . لم تُشِر ولا مرة واحدة إلى حقيقة أن المرأة بعد أشهر تسعة من الحمل تحمل بين يديها دودة وردية زاعقة لا بدّ من تغذيتها وتدفئتها وتغيير حفّاضاتها عدة مرّات في اليوم ولا بدّ في النهاية من تنشئتها وتعليمها المحافظة على نفسها .

« لعلّه ، بين الهمج الذين تتحدث عنهم ، حيث يمكن الحصول على الطعام بهزّ شجرةٍ أو في الأمكنة حيث يمكن للناس اصطياد الأسماك من أجل وجبتهم التالية ، ما من حاجة للقلق الزائد . ولكنك حالما تدخل المناخات الباردة والمزعجة حيث ابتُكِر الحب ، فإنك تقلق ـ وحتى بوجود المال الوفير وكل خدمات المدينة ، ليست بالمهمة اليسيرة تنشئة باقة من الولدان دون عون . ولن يمكنك تنشئتهم تنشئة حسنة كما حين

يكون الأمر مغامرة مشتركة . وفي النهاية ، فإن إعادة الإنتاج لا تنتهي بالزواج ، كما لا تنتهي بالمخاض أيضاً .

« ما أحاول قوله تشبه عادات كثير من الطيور ، فهي لا تجتمع ببساطة وتُسْقِط بيوضها دون حذر . إنها تمضي في طقوس غزلية رصينة وتبتني لنفسها أعشاشاً . ويميل العصفور الذكر إلى الأنثى بينما هي تحضن فراخها ، وتراهما شغوفين بذلك تماماً . ويمكث الذكر مع الأنثى إلى أن يكبر الفرخ ومن ثم ينطلق كلٌّ في طريقه . ولعلني مضيت بعيداً في المشابهة ، ولكن إذا ما كان ثمة أي فارق أساسي بين هذا وبين الحب البشري ، فما هو؟ وبعبارة أخرى ، فإن فكرتي حول مكان نشوء هذا الشيء الحبيب هي كما يلي : كلما تعقّدت تنشئة المرء لإبنه كلما ازدادت إمكانية اكتمال الحب . والجنس ، كما قُلْتَ بحق ، يُعنى بإيصال النطفة إلى البويضة ليس إلا ، أما الحب فيُعنى بتكوين الرجال والنساء ، بإعادة إنتاج النوع . وبهذه الطريقة تحصل نحن البنات على حُمَاة صالحين لأبنائنا وعلى آباء ملائمين لهم . ولقد سُئِلت بنت مرةً أين يمكن أن يوجد بشر دون حب فأجابت : « ذلك شيء نادر ! » .

إن هذه الملاحظات الساحرة ،سواء بسبب عفويتها أو لما فيها من الواقعية النسوية ، تستحق اهتماماً زائداً خاصة وأن السيدة الشابة كتبتها دون أن تعلم أن وجهات نظرها سوف تُنْشَر . ولكنها ، على أية حال ، مطابقة لذلك النوع من الجدل المنطقي الذي لا يأخذ السيرورات اللاواعية في حسبانه . إن المشابهة مع الطيور التي تحضن فراخها معاً وتكون شغوفة تماماً بذلك يجب أن تُطْرح جانباً ، ذلك أن هنالك بالتأكيد فارقاً أساسياً بين هذا وبين الغرام البشري .

ومع ذلك ، فإن قسماً من نقد السيدة له ما يبرّره لأنني لم آخذ إنجاب الأطفال بالحسبان في موجزي . ومن الصحيح دون شك أنه يمكن لأفكار تتعلّق بالإنجاب أن تلعب دوراً واعياً في إختيار الشريك الذكر وفي أطوار الحب المتأخرة ، بيد أننا يجب ألاّ نخلط هذه الاعتبارات مع تكوّن الغرام . ونحن لا يمكن أن ننكر أن تنشئة الطفل تربط الزوجين الفتيّين واحدهما إلى الآخر ، ولكنها لا تَسِمُ نشأة الحنان . وليس ثمة في سلوك

الرجل ما يدلّ على حب مشتدّ أو رغبة جنسية متعاظمة تجاه المرأة الحامل ؛ وبالأحرى فإن العكس هو الصحيح . ومن جهة أخرى ، فإن المرأة الحامل تشعر بعاطفة متزايدة تجاه والد الطفل ، ومن الجدير بالملاحظة أنهنَّ يبدين رغبة زائدة بالإتصال الجنسي . ومن غير الممكن حسم ما إذا كان هذا التغير مشروطاً بحاجة عضوية شديدة ، أم بعاطفة إضافية تجاه الرجل ، أم بجهد واعٍ لجعله ينسى التحولات التي أضعفت من جاذبية المرأة الجسدية في هذه الفترة .

وعلى أيه حال ، فإن من المشكوك به إلى حد بعيد أن يوقظ الحبّ والرغبة الجنسية لدى الرجل توقُّع ولادة طفل من امرأة بعينها . وأخشى أنَّ الرغبة بالأبوّة لم تتطور جيداً تماماً لدى الشباب . وانطباعاتي المتأتية عبر سنين عديدة من التحليل النفسي تنزع إلى غرس إعتقاد لديَّ مفاده أن الرغبة في إنجاب طفل حتى لدى النساء لا تعدو أن تكون في البداية ضرباً مبهماً من التوق . ويبدو لي أن مُراسِلَتي قد وضعت العربة أمام الحصان ، ذلك أن النساء يرغبن بطفل من رجل يحببنه ، أكثر من كونهن يخترن عامدات أباً للطفل المُنْتَظَر .

إنه لمن الحسن التذكير بأن تاريخ الجنس والحب هو أكثر تعقيداً مما ظهر عليه في إعادة البناء الافتراضية التي قدّمتها . وثمة بالتأكيد عوامل عقلانية فاعلة في تطور الغرام ، لكن أهميتها لا تضارع قوة الدوافع التي تحدد انفعالات الشباب . إن الأمهات يحكين لأبنائهن ، وأكثر من ذلك لبناتهن ، أنّ الخيار الأفضل في الزواج هو مزيج من الغرام والواقعية ، لكن الحكمة لا تُنْقَل نقلاً .

آهٍ لو كان بمقدورنا أن نوصي لأبنائنا بخبرتنا ! ولكن الشاعر على حقّ :

ماخَبِرْتُه سيمضي معي إلى قبري ،

وهنا في الأسفل ما من أحد يرث الآخر[1] .

---

1 - Was ich gewonnen gräbt mit mir man ein keiner kann keinem ein Erbe hier sein

ريتشارد بيير- هوفمان ، Schlaflied fur Miriam (1897)

المعنى اللاواعي للكاريكاتير

عند هذا الحدّ عليّ أن أواصل رسم القنطرة الواصلة بين عصور ما قبل التاريخ والوقت الراهن ، وذلك لمقابلة حاجات إنسان الكهوف بحاجات الإنسان في حضارتنا . وأريد أن أوضح أن القوى القديمة للدافع الجنسي ورغبة الهيمنة ظلّت تستهدف الإشباع المباشر حين ظهرت حاجة المرء الجديدة لأن يكون محبوباً ؛ وأريد أن أبيّن أيضاً أنَّ قسطاً كبيراً من الوضعية القديمة ما يزال موجوداً ، جنباً إلى جنب ، مع التغيرات التي خلقت حوافز جديدة .

في اللحظة المناسبة وقع بين يديّ كاريكاتير نشرته ـ The New yorker . وهو يحقق الغرض على نحو أوفى بكثير مما أستطيع . يصوّر هذا الكاريكاتير بعض الأوربيين ، من الواضح أنهم بريطانيون ، قرب غابة . ويصوّر أورانجوتاناً ضخماً ممسكاً بإحدى النساء ويقودها إلى الغابة . أما السيدان والمرأة الأخرى الجالسون أمام كوخ فلا يبدو عليهم أي قلق أو إضطراب . ويقول التعليق : « شخصياً ، أنا لا أستطيع أن أتصور ما الذي يراه فيها » . من الذي يتكلم هنا ؟ ليس بالتأكيد أيٌّ من الرجلين اللذين يحملان كأسي الويسكي بين يديهما . إنها المرأة من أطلقت هذا التعليق ، والذي نعرف أنه تعليق شائع تطلقه النساء بصدد إختيار الرجال لشريكاتهم .

أين هي النكتة في هذا الكاريكاتير ؟ من الواضح أنها في التعارض بين الحدث الفظيع والتعليق الشائع ، غير المكترث . ولا شك أنها تنبع أيضاً من التعارض بين المشهد الرهيب ورباطة الجأش الكوميدية التي يبديها المشاهدون . ونقترب أكثر من

جوهر هذه القوة الكوميدية إذا ما تذكرنا ما اكتشفه فرويد بصدد الطبيعة السيكولوجية للنكتة . ذلك أن فرويد يؤكّد أن اللذّة المتأتية من النكتة تنجم عن توفير الجهد الانفعالي .

يضعنا هذا الكاريكاتير وجهاً لوجه مع وضع مروّع . فنحن نتوقع من الشهود الثلاثة أن يرتكسوا بفزع ، أو أسى ، أو ذعر ، أو يأس ، وأنهم سوف يقومون بفعل ما كي يمنعوا الاختطاف . ويتكوّن لدينا إستعداد لأن نتقاسم معهم هذه الانفعالات ، لكن هذا الاستعداد يصبح نافلاً حالما نقرأ التعليق المألوف المرفق بالصورة . نحن جميعاً كنا مستعدين لأن نطور انفعال الإحساس بالخطر الذي أيقظه الوضع فينا . ولكننا نتراخى فجأةً إذْ يبدو هذا الوضع وقد فقد خاصيّة الرعب نتيجةً لتعليق السيدة . وتبدو عبارتها ، فضلاً عن موقفها وموقف رفيقيها ، كما لو أنه تقول : « لا شيء مفزع فيما نشاهده وتشاهدونه . لا شيء خطير . لا تخافوا . إنه حدث يوميّ عادي » . واللّذة التي نستمدّها من مثل هذا التوفير في الانفعالات الشديدة تعبّر عن نفسها في النزوع إلى الضحك أو إلى الإبتسام على الأقل . من المهم بالنسبة لمفعول النكتة أن هذا التغيّر من الاستعداد للمشاركة في انفعالات منغّصة جداً إلى الارتخاء يجب أن يكون مفاجئاً»[1] .

نحن نفهم الآن بصورة أفضل بكثير ما يشكّل قسطاً كبيراً من الطابع الكوميدي

---

1 ـ لقد أغفل فرويد هذا الطابع الأساسي للمفاجأة بالنسبة للمفعول الكوميدي . ولقد اكتشفتُ هذا الطابع عام 1929 ، وناقشتُ أهميته السيكولوجية في كتابين : « Lust und Leid im Witz » (1929) و « Nachdenkliche Heiterkeit » (1933)

المفعول النفسي مشروط بتحول الفزع البدئي الذي نشعر به لدى مواجهة خطر إلى شعور صريح بأنه ليس ثمة سبب للذعر على الاطلاق . ويحدث هذا التغير خلال بضع ثوان . وباعتقادي أن تعبير الضحك الذي يرتسم على الوجه هو في الأصل نتيجة لمثل هذا الارتخاء المفاجىء بعد ترقّب قلق . فالانتباه الذي نواجه به احتمال الخطر يُفسح في المجال للارتخاء ، وهذا التغيّر المفاجىء يعكس نفسه في عضلاتنا . ولقد بيّنت آنا فرويد أن الأطفال المتحررين من القلق يرتكسون بالضحك .

لهذا الكاريكاتير . ولكن ما زال هنالك قسط آخر وربما أفضل لم يتضح بعد . إن في هذا الكاريكاتير أكثر مما تراه العين . إننا نحسُّ بمعنىً لا واعٍ ، يخفيه التعارض بين ما يحدث والموقف غير المكترث للمشاهدين . فما هو هذا المعنى إذاً ؟ لنغيِّر في الوضع قليلاً فقط ، ولنفترض أن نمراً هائلاً هو الذي يخطف المرأة بدلاً من الأورانجوتان . إن تطور النكتة سوف يصبح مباشرةً مستحيلاً تقريباً . وبما أن الأمر كذلك ، فإنه من الأساسي أن يكون الحيوان واحداً من السعادين الكبيرة ، هولةً تشبه الإنسان .

فجأةً يتكشّف المعنى الخبيء للكاريكاتير . فهيئة الأورانجوتان هي مجرد بديل للإنبسان البريّ ، الطليق ، والخشن ، مخلوق من نمط إنسان الكهوف . إنّ ما تقوله المرأة يتصل حقاً بحدثٍ يومي ، هو حدث فرار رجل مع فتاة . وعندما نُزيح الحجر للنظر إلى ما يوجد تحته ، نكتشف أن الوضع ليس خطيراً في الحقيقة : شخص بأهواء مشبوبة يفرّ مع امرأة . وهكذا تتخذ عبارة السيدة وعدم اكتراث الرجلين معنىً جديداً ، وبالأحرى فإنّ وجهة نظرنا المتغيرة حيال الوضع تعطيها معناها الحقيقي . فالرجلان ينظران إلى الحدث بمثابة شيء يتكرر كل يوم ، وكذلك السيدة أيضاً . إنها ترتكس بطريقة نسوية نمطية . وتتساءل بدهشة عمّا لدى هذه المرأة المحددة وأيقظ مثل هذا الهوى لدى الرجل . فهي لا تتخيل أية خصال ، أو أية ميزات جسدية أو عقلية ، تجعل الرجل يقع في الحب بكل هذا الهوى الجامح مع هذه المرأة بعينها والتي لا تستطيع أن ترى فيها أي شيء غير عادي وحقيقة أن الرسام رسم الخاطف أورانجوتاناً ، وليس رجلاً ، تقدّم الإجابة على سؤالها . ليس الحب ، وإنما الرغبة الجنسية العمياء هي التي تملي على الرجل فعله .

ويتضح الآن تعارض أخر ، ليس في الكاريكاتير بل في التعليق . فغالباً جداً ما تُذهَل النساء حيال هذا المخلوق الغريب ، الحيوان الذكر . وهنَّ يفترضن أن اختياره لامرأة ما يمليه تفوقها الشخصي . لكن الرجال غالباً ما يختارون ، لا النساء اللواتي يتمتعن بمزايا شخصية خاصة ، وإنما اللواتي يتمتعن بمزايا جنسية حادة . وإذا لم تفهم السيدة ما يراه الرجل في بعض النساء الأخريات ، فإنها تخفق في إدراك القوة الضارية

والحَصْريةexclusiveللرغبة الجنسية لدى الرجال . والذين غالباً جداً ما يريدون ، ليس أية امرأة بعينها ، وإنما أنثى وحسب[1] . ولذا فإن الرجلين المرافقين للسيدة لا يندهشان ، فهما يفهمان على نحوٍ أفضل بكثير ما يدفع الرجل إلى الاختطاف .

خلف النكتة في هذا الكاريكاتير ثمة إشكالية سيكولوجية جدية لا يفصلها عن الفكاهة سوى غشاء شفاف . فالفارق في النظرة بين الرجال والنساء يكمن في اختيار الموضوع . ولكن هل هذا هو كل ما يكشفه التأويل التحليلي النفسي لهذا الكاريكاتير؟ لا ، بالتأكيد . إنه لما يتجاوز الدلالة السطحية أن المشهد موضوع على أطراف الحضارة ، حيث البيوت قائمة قرب الغاب تماماً ، وحيث الأعراف المتمدنة قد تتعارض بشدة مع همجية المنطقة التي لا يسود فيها سوى قانون الطبيعة وحده . وثمة معنى أيضاً في التعارض بين الفعل الهمجي للإنسان ـ القردapemanوالموقف الهادىء لكل من السيدين .

ونحن نفهم أنّ الوضع كله ، أي هذا المشهد الذي يُظهِر الحضارة والغاب جدّ قريبين بعضهما من البعض الآخر ، لا يشير إلا إلى مدى قربهما عموماً واحدهما من الآخر . فالأورانجوتان الهمجيّ الضخم ، والانكليزيان المتمدنان ليسوا مفصولين بهوة لا يمكن عبورها . وإنسان الكهوف بحاجاته الهمجية الفجة ما يزال يعيش في داخلهما كما يعيش في داخل كل رجل . وبعبارة أخرى ، فإن الكاريكاتير يبيّن أن الدافع الجنسي الأعمى ، الرغبة التي لا تفرّق بين الأشخاص ، هي اليوم أيضاً أكثر سطوةً من العقل والحنان ، اللذين يجب أن يقفا وراء اختيار الموضوع . وفي بعض الأحيان ، كما في هذا الرسم الكاريكاتوريِ ، يحطّم هذا الدافع الأسيجة التي أقامتها الحضارة ويتكشّف بكل

---

1 ـ كثيراً ما تصوّر الرسوم الكاريكاتيرية امرأة تنتقد هذا الموقف الذكوري . ويحضرني هنا رسم نُشر في برلين منذ حوالي عشرين سنة . في هذا الرسم نجد سيدة تقول للرجل الذي يجلس قبالتها على الطاولة في مأدبة غداء : « إن كنت تحبني ، من فضلك قلْ لي ذلك ، ولكن لا تلْوث جواربي » .

فجاجته وهمجيته . أما صوت المرأة فيمثّل مستوىً آخر ، وقد يقول البعض مستوىً أعلى ، من الحضارة ، مستوىً ينبذ متطلّبات الحافز الجنسي الأعمى . فهي شخصياً لا تستطيع أن تتصوّر ما يراه هذا الرجل في المرأة التي يختطفها ؛ لا تستطيع أن تتصوّر أن اهتمامه الوحيد بضحيته نابع من حقيقة كونها أنثى . إن مقتضيات الحضارة تتعارض هنا مع مقتضيات الطبيعة . وكل منهما تقارع الأخرى حتى في النموذج الثقافي لوقتنا الراهن أيضاً . والأورانجوتان في الكاريكاتير ليس إلا بديلاً للإنسان القرد القبـ-تاريخي ، لكن هذا الإنسان البدائي ما يزال موجوداً في حضارتنا . إنه متخفٍ فيَّ وفيك .

إنَّ هذا الكاريكاتير يقوم بدور تثقيفي نظراً للتعارضات التي يظهرها في حضارتنا الحالية ، والتي ما يزال الرجال يشعرون فيها بالحافز الجنسي الخام المنفلت من عقاله فضلاً عن شعورهم بمقتضيات العاطفة . كل رسم يحكي قصة ، ولكن ما كل رسم يعرف القصة التي يحكيها .

غداً

هل يُتاح لنا المجال كي نحاول إلقاء نظرة على مستقبل الغرام ، وعلى ما سوف يأتي ؟ إن طبيعة الموضوع سوف تجعلنا نقتصر على بضع فقرات وحسب . فلست بقادر على تقديم رؤية للمستقبل ـ ونحن لا نستطيع إلا بشقّ الأنفس أن نتنبأ بمدى التغيرات الكاسحة التي تجري أمام أعيننا ـ ولكن ربما كان من الممكن تأويل إشارات الماضي والحاضر واستشراف الاتجاه الذي سيتخذه التطور في القرون اللاحقة . وسوف أقدّم بضع أفكار لعلها تكون جديرة بالاهتمام . فنحن معنيّون بمسألة الاحتمالات والإمكانات النفسية أكثر مما بالوقائع المادية ، ومعنيون بالجوهر الذي يقف خلف الوقائع دائمة التغيّر ، بالقانون الخفيّ ، أكثر مما نحن معنيون بالوقائع ذاتها .

يلاحظ البحّاثة الذين يتتبعون تاريخ الحضارة أن النوع البشري فتيّ جداً بحيث يمكننا أن نتوقع منه مآثر عظيمة كلما تقدّم به العمر . فالنوع البشري ما يزال في مراهقته الباكرة ولم يقترب من الرجولة بعد . ولنَقُل أن الأزمات والصراعات المحتدمة في عصرنا هي الآلام المتنامية التي تنتاب النوع .

وفي اعتقادي أن الألف الثالثة بعد ميلاد المسيح سوف توضح ، على الأقل ، أنّ كثيراً من إشكاليات الحب والجنس لم تُحلّ بعد . وسوف ترى سنة الثلاثة آلاف وتسعمائة ، كما نأمل ، تقدماً حاسماً على صعيد تخفيف التوتر بين الجنسين ، وإزالة قدر عظيم من الحسد والتملّك ، وسوف تُدْخِل تثقيفاً جديداً لكلا الجنسين يدفعهما إلى المشاركة والرفقة . وبعد أن حطّم التحليل النفسي ، وإلى حدٍّ

بعيد ، النفاقHypocrisyالعام المتعلّق بحاجات الرجال والنساء الجنسية فإنّ مهمة توحيد متطلبات الجنس والحاجة إلى الحب تظلّ قائمة . ويمكن لنا أن نتنبأ بأن الستار الدخانيSmokescreenالذي أطلقه المجتمع ، أي ذلك الزعم بأن الحب والجنس متطابقان ، سوف يتبدّد وسوف تتضح الهوة الفاصلة بين كلتا الحاجتين .

وأعتقد أن الادّعاء العام بأن الموضوعات الجنسية هي ، في الوقت ذاته وبصورة آلية ، موضوعات للحب سوف يصبح في المستقبل البعيد إحدى الحقائق ، وذلك بطرق والتفافات غريبة ما تزال مجهولة . فاتحاد الجنس والحب سوف لن يكون واقعاً انفعالياً وحسب ، كما هو الآن في غالب الأحوال ، بل سيصبح أيضاً ضرورة سيكولوجية . وسوف يرغب الناس على نحو متزايد بالتماس الإشباع الجنسي لدى موضوعات محبوبة وحسب . ومثل هذا الاتصال الجنسي وحده سوف يضمن آنئذ إشباعاً تاماً . وحتى الآن صار من الصعب على الرجال المثقفين أن يمسّوا امرأة دون عنصر ما من عناصر العاطفة الأصلية . وأنا لا أتنبأ بالطبع بأن المعركة بين الجنسين سوف تتوقف خلال بضع مئات من السنين ، بحيث لا يبقى لدى الطرفين أي شعور بالعداء ، والحسد ، والطمع . لعلّها ستكون مجرد هدنة ، وليست سلماً ، ولعلّ التعبير عن تلك النزوعات العدوانية والتملكية سوف يصبح أكثر إنسانية وحسب .

هل من الطوباوية أن نتوقع أن التحام حاجتيّ الجنس والحب سوف يكون ضرورة سيكولوجية بالنسبة لمواطني عام 3800 أو 3900 ؟ إن هذا هو الاتجاه الوحيد الذي يمكن للتطور الانفعالي أن يتخذه ــ وما من فرصة للسير في اتجاه آخر . وسوف يكون ثمة نفور متزايد من العلاقات الجنسية العمياء التي لا تميّز بين الأشخاص . سوف يكون الجنس دون عاطفة منفّراً للرجال كما هو منفّر للنساء الآن . وسوف يساعد على هذا التطور التبصّر المتزايد بالحاجة إلى توحيد متطلبات الجنس والحنان . قد يبدو مثل هذا الاستشراف فانتازياً في هذه اللحظة ، ولكن من المؤكّد أنه كان سيبدو فانتازياً لو أن أحداً ما قبل عشرة آلاف سنة قال لأسلافنا أنهم سيشعرون بالنفور عند التفكير بأكل اللحم البشري ، والذي كان طبقاً فاخراً بالنسبة لهم . إنّ القرف من أكل اللحم

البشري هو أمر طبيعي بالنسبة لنا اليوم ، شأن الشهية المفتوحة لأكل اللحم البشري لدى آكلة البشر أولئك .

ثمة شيء واحد مؤكّد : سوف تسهم المرأة بقسطٍ وافر في هذا التطور المستقبلي . إنّ بمقدورها أن تدّعي لنفسها فضل إدخال عنصر الغرام الجديد إلى العلاقة بين الجنسين . هذه الحاجة التي ما أن تستيقظ حتى لا يعود من السهل إشباعها . وسوف تبقى النساء مربّيات للنوع البشري في حقل الجنس كما هنَّ بالنسبة للفرد . فإمكانيات الحب لا يستنفدها الغرام . ذلك أنّ هذا الأخير ليس سوى التعبير الأكثر جلاءً عن الحب ، ولكنه ليس تعبيره الأكثر أهمية بالتأكيد .

يمكن للمعجزة أن تصبح أكثر إعجازاً . يمكنها أن تتعاظم ، أن تمتدّ وتتخطّى ميدان العلاقة الجنسية . يمكن لها أن تعبّر عن دفئها وإنسانيتها تجاه مجموعات اجتماعية أخرى . ويمكن لها في النهاية أن تلينّ و ، بعد آلاف السنين ، أن تسكّن المطامح البرّية للرجال وتلطّف منازعاتهم الضارية . ولعلّ قسطاً صغيراً من المهمة التي عزاها الشاعر إلى المرأة في الآخرة سوف يتحقق من قِبَلها على هذه الأرض :

هنا ما يفوق الوصف
طرّزيه بالحب .
الأبديةُ النسوية
تجذبنا إلى الأسمى .

أنْ نتنبأ بالتحام متزايد للحب والجنس في السنوات الألف القادمة ليس بالمجازفة ، كما قد يبدو . وإنها لمجازفة أخطر استباق الأمور والتحدث عمّا ستكون عليه تقلّبات الحب والجنس بعد هذا الزمن في المستقبل النائي . الجنس هنا سيبقى ، ولكن ماذا عن الغرام ؟ إن المثل الفرنسي القديم يؤكّد أن كل شيء سيفنى ما عدا الحب والموسيقا . ولكنني لست واثقاً من ذلك . لماذا نستثني الحب والموسيقى من القانون الذي يتحكّم بالنمو والفساد ؟ إنني أكثر ارتياباً في الحقيقة . لقد مرّ زمن لم يكن الحب موجوداً فيه هنا

في الأسفل ؛ وقد يأتي زمن آخر يختفي فيه عن هذه الأرض . وقد تنبثق حاجات جديدة لا نستطيع التنبؤ بها ، ولا بالوسائل اللازمة من أجل تحقيقها .

القسم الثاني

الحب والشهوة

نظرية جديدة في الدوافع

لِنَعُدْ إلى جون وجين الشابين المتزوجين حديثاً . لقد حاولنا أن نجد أية حاجات هي تلك التي يتمّ إشباعها في علاقتهما . وكان من غير المجدي أن نسأل جون وجين . فهما لا يميلان إلى التحليل . إنهما يختبران ويعيشان اتحادهما ولا يشعران بأية حاجة لتقصيّ مصادره . ترى ما هي المقوّمات الأساسية للسعادة واللذّة التي يجدها كل منهما في الآخر ؟ الإجابة العلمية هي دون شكّ أن دوافع الأنا يتمّ إشباعها من خلال اتحادهما فضلاً عن الحاجات الجنسية . ولقد حاولت أن أوضح الطبيعة الأصلية سواء للدافع الجنسي أو لدوافع الأنا البدائية وأن أقتفي آثار تطوراتها اللاحقة ، والتي ظهر الحب بينها باعتباره الأشدّ أهمية . إن وضعية جون وجين تُشْبِعُ هذه الحاجات جميعاً في الوقت ذاته . وبالطبع ، فإنّ نسبة المكوّنات تختلف من فرد إلى آخر ، ولكن الاعتبارات الكمّية والتي تحدّد النوعية ، دون شك ، لا تهم سوى المحلّل النفساني . إنّ هذين الزوجين سعيدان لأنهما حقّقا في اجتماعهما متطلّبات أنويهما الفرديين ، وفي الوقت ذاته أرضيا رغباتهما الجنسية . ولقد تكّون لدينا انطباع كافٍ حول كيفية تركُّب هذا الخليط . فحيثما تتبّعنا مصادر سعادة جون وجين ، نجد على الدوام إشباع الحاجات الغريزية . وليست الانفعالات التي يشعر بها هذان الشخصان سوى تمثيلات نفسية لهذه الدوافع البدائية .

عند هذه النقطة ، يبلغ البحث حدّه ، لأن الكشف عن طبيعة الغرائز لا يمكن أن يكون موضوع السيكولوجيا إلاّ إلى درجة معينة . فهو بالدرجة الأولى مهمة علم

آخر ، البيولوجيا . ولعلَّ من الحكمة أن نتوقف عند هذا الحدّ ، ولكنّ ذلك ليس فيه من الشجاعة إلا القليل . وقد يكون التعقل والاحتراس هو الجزء الأفضل من الجسارة ، لكن ثمة أوضاع تضطر فيها لاختيار الجزء الأسوأ . وإذا ما كنا نتوخى فهماً أفضل ، فإنَّ عبور هذا الحدّ لا مناص منه . وأنا مدرك تماماً افتقاري للكفاءة في هذا الحقل والطابع غير المُتقَن لمحاولتي . كما أنني أعترف صراحةً بالطبيعة التجريبية والحدسية للنظرية التي أنا ماضٍ في تقديمها ، وكذلك بالثغرات التي لا يمكنني سدّها ، والالتباسات ومواضع الغموض . وليس ثمة مبرر لهذا الإثم الذي أقترفه سوى أنه ليس هنالك أية نظرية بيولوجية أو سيكولوجية أخرى ترضيني[1] .

لعلّ أفضل مقاربة للنظرية الجديدة هي رسم خطوط عريضة لتاريخ الغرائز . فحين كان العالم لا يزال فتياً والحياة العضوية قد وُلِدَتْ للتوّ ، لم يكن هناك سوى غرائز حفظ الذات instincts of self – preservation : وغاية هذه الغرائز محدَّدة من خلال اسمها . إنها تدفع الفرد إلى إشباع حاجاته الأشدّ حيوية . وكلما وحيثما تلاقي هذه الدوافع البدائية عقبات تعترض بحثها عن الإشباع ، فإنّ جهداً عنيفاً يُبذَل للتغلّب على العقبة . وهكذا فإنّ إرادة الانتزاع والهيمنة ، وحوافز الامتصاص absorb والتملّك والتدمير هي من ذرّيّة غرائز حفظ الذات ، ولقد أصبحت مرافقةً لها في الكفاح من أجل الحياة .

---

1 ـ إنّ الغايات التي أتوخاها من الفرضيات التالية هي أكثر تواضعاً بكثير من الغايات التي توخاها فرويد من نظريته في الغرائز (ما وراء مبدأ اللذة ـ نيويورك ، 1924) ، والتي تفرّق بين غريزة الموت وغريزة الحياة (أو إيروس) البدائيتين . إن محاولتي لا تُعنى سوى بالقوى التي تتحكّم بحياة العالم العضوي . كما أنّ أطروحتي تبدأ ، وباستقلال عن نظرية فرويد ، من مفهوم مختلف لطبيعة الغرائز . وفي الوقت الذي توجب فيه الحاجة إلى فهم أفضل لمثل هذه الأطروحة ، فإنها قد تمثّل أول إسهام للتحليل النفسي ـ الجديد في مجال البيولوجيا .

كانت هذه الغرائز البدائية موجودة مسبقاً عندما برر حافز جديد ، هو الدافع الجنسي ، وارتقى سُدَّة السلطة . فهذا الدافع لا يمكن أن يكون قديماً مثلها ، لأن التفارق إلى جنسين هو من تاريخ لاحق ، كما تبيّن البيولوجيا . ما هدف هذه الغريزة الجديدة ؟ الجواب ، بالطبع ، هو إعادة الإنتاج ، واستمرار النوع . ولكنْ ثمّة شكّ مبرّر يكتنف هذا الجواب . فإعادة الإنتاج يمكن تحقيقها دون أية نزوة جنسية ، وحتى دون تفريق جنسي . فالأوليّات ، العضويات الدنيا ، المؤلّفة من خلية واحدة وتعيش في قيعان المحيطات والمياه الراكدة ، تتكاثر بالانشطارFussion . والفعل الجنسي غير موجود بالنسبة لها . إنها تنقسم أو تنشقّ إلى جزئين ، وكل منهما ينمو ليشكّل وحدة كاملة . تلك هي طريقة إعادة الإنتاج عند الأوليّات . ولكن إن لم تكن إعادة الإنتاج هدف الدافع الجنسي ، فما هو هدفه ؟ والجواب لدى البيولوجيا الحديثة : التنوّعVariation . فالغاية هي خلق أفراد مختلفين ، تركيباتٍ جديدة ناجمة عن اتحاد ذكر وأنثى . ليست إعادة الإنتاج ، بل إنتاج تنوّعات جديدة وكثيرة ضمن النوع هي غاية غريزة الجنس .

وهل خضع الدافع الجنسي بحدّ ذاته للتطور ؟ ربما لا ، ما عدا في تقلّبات شدّته ، وفي صعوده وهبوطه . أما التغيرات الأخرى التي لاحظناها فليست ناجمة عن أهداف جديدة وإنما عن التحام هذا الدافع مع دوافع الأنا المختلفة . فالحافز الجنسي بحدّ ذاته يبدو ثابتاً لا يتغيّر . إنّ له مقصداً وحيداً : التخلّص من توتر فيزيائي نوعي . ولكن ماذا عن التقلّبات التي يتحدث عنها التحليل النفسي من كبتٍ ، وتحول باتجاه شخص المرء ذاته ، وهلمجرا ؟ باعتقادي ، ولأقُلْ بدقة ، أن الدافع الجنسي الخام لا يخضع لأيّ من هذه التقلبات . فهو كغريزة دون موضوع في الأصل لا يتطور إلا بقدر تطور الجوع أو الحاجة إلى الإطراح . أما المصير الاخر الوحيد الذي يمكن أن يخضع له ، إلى جانب الإشباع ، فهو إمكانية التحكّم به وضبطه لوقتٍ محدد ، وتأخير إرضائه . أما التطورات الأخرى فهي جميعاً مشروطة بتعاونه مع دوافع الأنا .

وهل خضعت دوافع الأنا للتطور ؟ لقد هدفت هذه الغرائز في البدء إلى الإبقاء على حياة الفرد . لم تكن عدوانية ، ولم يكن لها علاقة بالأفراد الآخرين . ولكنها تحوّلت

إلى حوافز عدوانية وتملّكية في الصراع مع البيئة المعادية . لم تتخلَّ عن غاياتها القديمة ، وإنما كانت تُكبَح وتتوقف محطات أضحت غاياتٍ فيما بعد . وانبثاق هذه الدوافع اللاحقة ، كالطموح ، والرغبة بأن يكون المرء ممن يميل إليهم الآخرون ، ونزوات التنافس ، والحاجة إلى التميّز الاجتماعي ، وغيرها ، لا تتشابه إلاّ قليلاً مع أسلافها ، دوافع الأنا البدئية . إنّ روح الإنتزاع تحيا فيها جميعاً ، حتى في وليدها الأحدث سناً ، الحب ، والذي يتأصل في التغلّب على الحسد والكراهية والطمع . إنها جميعاً تحمل آثار ولادتها . تحمل الخَبَث من التربة الداكنة التي انبثقت منها . إنها جزئياً مواصَلَةٌ لدوافع الأنا الأوليّة ، وجزئياً تشكّلات إرتكاسية عليها ، كما هي العلاقات الدبلوماسية بين الأمم مواصلة للصراعات بينها . فهذه الدوافع الأكثر يفاعاً ، والمُحارِبة والعدوانية على نحو سريّ ، تحاول أن تبلغ غايتها عن طريق الاختراق السلمي ، وليس عن طريق القوة والعنف . وإذا ما غضضنا النظر عن الانتكاسات الفظيعة والفاسدة إلى البربرية ، فإنّ من الممكن أن نعتبر البشر نوعاً موهوباً تماماً . فطاقة دوافع الأنا تعمل جاهدة على تأمين الملاذ الواقي في كهفٍ كما في بناء الإهرامات والكنائس ؛ وتعمل على التغلّب على معظم العوائق الأولية في الصراع من أجل الحياة كما في معظم المنجزات البشرية الرائعة . وليس ثمة حيوان آخر طوّر مثل هذا التحوّل للنزوات من غايات مباشرة إلى أهداف بعيدة جداً

لقدناقشت في السابق التقلّبين اللذين تخضع لها دوافع الأنا واللذين يُعتبران أهم تحوّلين بالنسبة للحضارة : التصعيد والحب . فعند حدٍّ معينّ يمكن للدوافع الانتزاع ، والأنانية ، والعدوان أن تتحوّل عن غاياتها الأوليّة كما يتبدّل مجرى الجدول بقصد سقاية حديقة . وعند هذا الحدّ الأخير من التطوّر ، يمكن أن يحدث تغيّر مدهش ، تحوّل تام لدوافع الانتزاع ، والغيرة ، والتملّك إلى عكسها . ونحن نطلق على هذا الانقلاب اسم الحب . وكلتا العمليتين ، التصعيد والتحول إلى العاطفة ، لها سمة مشتركة تتمثّل في أن المصلحة المباشرة للأنا تبدو فيهما وكأنها قد وُضِعَتْ جانباً . ولنَقُل إنّ الذات يتمّ تجاهلها في السعي خلف أهداف جديدة . وبمرور الوقت يجد الأنا تحقّقه الأسمى في

هذه المآثر بالضبط . وفي كلا التطورين تبدو البهائم المتوحشة وكأنها قد تنصّلت من طابعها وتروّضت . وتجد نفسها الآن مستعدة للإعتراف بحكومة جديدة .

يمكن إيضاح تطورات الأنا المتأخرة هذه من خلال مثال . شقيقان يغادران موطنهما الأصلي ويهاجران إلى بلد آخر . وهناك يكتسبان ثقافة جديدة مختلفة تماماً ع ثقافتهما الأصلية ومن نوع أرقى . وبعد بضعة سنوات قلّما يفطنان إلى حقيقة أنهما ق وُلدا ونشآ في البلد الأول . لقد خلّفت الثقافة الأرقى بصماتها عليهما ، وغيّرت عاداتهم وذوقيهما . ولم يعد مزاجهما القديم يبرز إلى العيان إلا في حالات انفعالية محددة . ولم تبْقَ سوى سمات معينة قليلة بمثابة بقايا من الماضي المنسيّ . وبهذا المعنى فإنّ دوافع الأنا الهمجية غالباً ما تظهر غير مميَّزة في أشكال جديدة من التصعيد والحب . ومن إرادة الانتزاع والتدمير البريّتين ينطلق الجهد لخلق الجمال ، والحضارة ، وهوى الغرام النبيل . ولا ننسى أنّ إنقلاباً جديداً ، وعودةً إلى الأصل المغمور ، يمكن أن يحصل في ظلّ شروط سيكولوجية محددة . وكما يمكن استخدام منجزات الثقافة من أجل الحرب والتدمير ، فإنّ الحب يمكن أن يرتدّ إلى حسد وتملّك . كما يمكن لمآثر التصعيد أن تشكّل أسلحة لقتل الآخرين . فالحضارة مكّنت البشر من أن يصبحوا أشدّ بهيمية من أية بهيمة أخرى .

بعد رسم هذه الخطوط العريضة لتطور الغرائز صرنا نجرؤ الآن على تحديد طبيعتها العامة . فالجانب السيكولوجي لغريزةٍ ما يتجلى للمُلاحظ بمثابة دفع باتجاه شيء ما . ولكنْ ثمة دفعٌ أيضاً بعيداً عن شيء ما ، ولعلّه الجانب الأشدّ أهمية[1] . والدفع باتجاه هدف محدد هو أقلّ من الحاجة إلى التخلّص من توتر محدد . وينتج هذا التوتر عندما يكون ثمة حاجة عضوية لدى الفرد غير مشبعة . فعندما لا يحصل شخص ما على ما يكفي من الهواء للتنفس ، يأخذ التوتر طابع القلق ؛ وعندما يفتقر إلى الطعام ، فإنه

---

1 ـ التعبير الألماني Trieb ، المرادف لـ drive (دافع) ، يؤكد على هذا الميل ، ولكن مضمونه يشتمل أيضاً على الدفع بعيداً عن الشيء .

يشعر بالجوع . ومن وجهة النظر هذه ، يمكن تعريف الغريزة سيكولوجياً بأنها دافع ملحّ لا سبيل إلى اجتنابه للتخلّص من توتر من نوع معين . وهدف الغريزة هو إزالة ، أو على الأقل إنقاص ، هذا التوتر . ويتمّ الشعور بالتحرر من هذا التوتر على شكل ارتخاء ؛ وبتصريفه ، على شكل ارتياح وإشباع . فالتوتر يُشْعَر به عموماً بمثابة شيء منغّص ، بينما يُشْعَر بالارتخاء كشيء مُلَذ . وعلى أية حال ، فإنّ لهذه القاعدة استثناءاتها الهامة والتي تحذّرنا من الإفراط في تبسيط الحالة الانفعالية .

يبدو لي أنّ من الممكن إثبات هذا الجزء من النظرية والتحقّق منه إلى حدّ بعيد . أما الجزء التالي فإنّ له طابعاً تأملياً أكبر . ومن الممكن تقديمه من خلال صورة الدور الذي تلعبه الغرائز في الحياة اليومية . فالتوتر والارتخاء يتعاقبان أحدهما إثر الآخر على نحوٍ منتظم تمكن مقارنته بالشهيق والزفير ، أو بالمدّ والجزر ؛ وذلك هو قانون الطبيعة . يتأرجح الرقّاص إلى جهة محددة أولاً ، ومن ثم إلى الجهة الأخرى ، إلى أن يبلغ اهتزازاته الأخيرة حين تتوقف تكّات الساعة . لا شكّ أنّ ثمّة إيقاعاً في هذا التعاقب ، ولكن لا يبدو أنّ هنالك سبباً لهذا الإيقاع . والأمر كما لو أنّ شخصاً أضرم النار ثم أخمدها . ولو كان هنالك شخصان ، أو ، في حالتنا ، قوتان ، الأولى التي تخلق التوتر والأخرى التي تُخمده ، لكان الأمر مفهوماً أكثر . فاشتغال هاتين القوتين كل منهما ضدّ الأخرى يفسّر الكثير ؛ ذلك أنّ النار إذا ما أُتيح لها أن تستعر دون أية محاولة لإخمادها ، فإنها ستدمر بلهيبها البيت كله . وإذا لم يكن ثمّة نار ، فإن أهل هذا البيت سوف يقتلهم البرد . وبعبارة أخرى ، فإنّ نزوات العدوان ، والتملّك ، والجنس تنزع إلى إفناء كل الكائنات الحية إذا ما حازت على سلطة كلّيانية . وإذا لم يكن هنالك منبّه يوقظ نزوات الجنس والتملّك ، فإنّ الحياة سوف تتجمّد ؛ ونهاية أيّ من هذين الافتراضين هي المحق والإبادة . فاستمرار الحياة يتأتّى عن الصراع والتفاعل ، وعن العمل المستقل والتعاون بين هاتين القوتين .

إنّ للمبدأين الحاكمين للحياة العضوية أهدافاً متباينة . فواحدهما ينحو إلى خلق توتر ، أما الآخر فإلى خلق ارتخاء . وثمة معركة محتدمة بين هذين الضدّين العظيمين

منذ بدء الحياة على هذا الكوكب . تُرى ما هي غاياتها البيولوجية ؟ إنّ الأول يمثل التطور ؛ والآخر الثبات . ويخلق الأول التنوّع والتباين ، يخلق الفروق ؛ أما الآخر فيحاول إلغاءها والتأكيد على التكرار ، على إعادة إنتاج التماثل . يهدف الأول إلى التعديل والتباين ؛ أما الثاني ، فإلى التشاكل والتجانس . وبينما ينزع الأول باتجاه إنتاج أفراد متباينين ، فإن الآخر ينزع إلى إنتاج صور متطابقة ، ونسخ لا تتميّز بعضها عن بعض . ويمكن عموماً وصف هذين النزوعين المتعاكسين بأنهما مبدآ التقدم والمحافظة ، أو مبدأ الهوية والاختلاف . ومبدأ التقدّم يضخم الحياة ويُغنيها بخلقه الفروق . أما مبدأ المحافظة بتشديده على التكرار والتماثل فيحاول أن يعطّل جهود خصمه ، ويعمل بمثابة قوة محافظة ومعيارية .

إنّ الصراع بين هذين المبدأين المتعاكسين ، وتسوياتهما ، وفي بعض الأحيان التحاماتهما ، هي التي تحدّد سيرورة الحياة . ومعظم ظواهر الحياة التي نلاحظها هي تشكيلات مختلطة ناجمة عن كلا هذين المبدأين الأولين . فغالباً جداً ما يتدخّل المبدأ الآخر كي يثبت فعاليته الخاصة ، عندما يقترب الأول من بلوغ غايته . وهكذا يسم صعود وهبوط التوتر ، وظهور وزوال الحاجات الملّحة ، والقلق والسكينة ، هذا التعاقب . والانطباع الذي نتلقّاه يشبه ذاك المتأتّي عن موجتين قويتين قادمتين من اتجاهين متعاكسين تلتقيان في نقطة محددة .

الغرائز هي في خدمة هذين المبدأين العضويين وهي موظّفة عند كلتا القوتين . وبالطبع ، فإنّ مهمتها في خدمة سيدين صعبة بما فيه الكفاية . وهي تحاول القيام بمهمتها من خلال طاعتها الأول في البدء ومن ثم الثاني . وهي تؤدي واجبها تجاه النزوع الذي ينبّه ، ويحرّض ، ويثير التوتر ويخلق الفروق ، وتجاه الآخر ، الذي يرخي ويعيد السكينة التي تسويّ وتُعادل . ويتمثّل مفعول مثل هذا النشاط في أنّ غايات هذين المبدأين لا يمكن بلوغها تماماً في النهاية أبداً ؛ ذلك أنّ جهودهما يتمّ إحباطها على الدوام . فالغرائز تنتج حاجة عضوية وتضع لها حدّاً من خلال إشباعها . إنها تطلق تنبيهاً وتزيله من خلال إرضائه النوعي . وهي تنتج فروقاً وتعمل على تسويتها بارتخاء

التوتر .

لقد تتبّعنا الطريق من دوافع حفظ الذات البدائية إلى الجهود التي تمثّل أسمى مآثر النوع البشري . فالغرائز التي تحرس الفرد تحمي وتصعون حياته ككائن مستقل . وهي تتغلّب على التوتر الذي تثيره أشدّ الحاجات حيوية من تنفس ، ومأكل ، وإطراح . ودوافع العدوان تقهر الصعاب المتأصلة في المقاومة التي يطلقها العالم في وجه رغبات الفرد . أما غرائز الجنس فتحاول أن تسوّي التوتر النوعي الناجم عن الرغبة الجنسية .

وبالمثل ، فإنّ وظيفة الغرائز في تجسير الفجوات الاجتماعية هي واضحة . فدوافع التملّك والعدوان تحاول التغلّب على الفروق بين الأفراد من خلال قهرها أو تدميرها . والدافع الجنسي هو أداة لتجسير الهوّة بين الجنسين ، ولشدّ الذكر والأنثى أحدهما إلى الآخر ، على الرغم من تمايزاتهما . أما الحب فهو محاولة لدمجي معك ، ولتلطيف التوتر بين شخصين . وتجاهد النزوعات الاجتماعية ، المرتبطة صميمياً مع الحب ، وربما وريثه في المستقبل ، للتغلّب على الفروق بين المجموعات ، والأمم ، والعقائد ، والطبقات .

إنّ هدف كل الدوافع الغريزية في الاتجاه الأول هو التماثل ، والتطابق . ولكن ما من إمكانية لبلوغ ذلك ، بل لمقاربته وحسب . وتؤدي جهود المبدأين في العادة إلى تسويات ـ تماثلٌ محدّد في الاختلاف ، وتفارقٌ محدّد في المحافظة على النموذج . ثمة تطور بطيء تقطعه انتكاسات وحركات رجعية .

لماذا نجد صعوبة شديدة في إيجاد طبيعة الغرائز وتمثيلاتها السيكولوجية ، الدوافع ؟ لأننا نعيش من خلالها . ويفسّر هذا السبب أيضاً تقديم هذه الفرضية ، والتي لن يكون لها أي تأثير على عرض نظريتي . ولعلها مفيدة في القاء الضوء على كامل المنطقة التي لا تشغل منها إشكاليات الجنس والحب إلاّ جزءاً صغيراً .

فلنلتفت الآن عن المشهد الأخّاذ للحياة الغريزية وننظر إلى الحقل الضيّق الذي تتعاون فيه وتتصارع دوافع الأنا ، ومن بينها الأحدث سناً ، الحب ، مع الحافز

الجنسي . ومن بين عدد هائل من الإشكاليات في هذا الميدان ، لن نناقش هنا إلاّ قلّة قليلة وحسب . ولأسباب عديدة سوف نقتصر على جزء بسيط من دائرة هذه الإشكاليات . إنّ شهيّتنا للزاد الفكري قد تكون عظيمة ، لكن علينا أن ننتبه كيلا نقضم ما لا نستطيع مضغه .

ميدان المعركة

دائماً تقريباً ينظر من يتعثّر حوله ليرى ما الذي جعله يزلّ . ويمكن لهذه الحركة ان تكون أي شيء ما عدا أن تكون حركة آلية . وهاأنا في وضع مشابه ، مدركاً كيف اخفقتُ في الفصل السابق في إعطاء فكرة ملائمة عن الدور العظيم الذي تلعبه إرادة الانتزاع وشهوة الهيمنة في الحب والجنس . وأنا أفضّل عبارة « إرادة الانتزاع » على غيرها من العبارات المرادفة ، ليس لأنها تنطوي على مضمون أكثر دينامية وحسب ، وإنّما أيضاً لأن من الممكن استخدامها بكل من المعنيين الجنسي والتملّكي . فهي تدلّ على الرغبة بامتلاك الشخص أكثر مما تدلّ على إخضاعه أو جعله يشعر بقوة المرء الخاصة . وهذه الحاجة تتجدد كلما بدا الموضوع نائياًأو خارج مجال تأثير المرء . وإنه لناجم عن هذا التجدّد بقدر ما هو ناجم عن الحافز الجنسي أنّ الموضوع يصبح مرغوباً ثانيةً بعد الامتلاك . ويتّخذ الانتزاع في بعض الأحيان طابع اختبار المرء لقوته الخاصة حيال امرأة ممانعة أو مترددة .

كثيراً ما يحصل في العلم والحياة أنّ ما يبدو غامضاً وبمثابة سرّ ما هو إلاّ تشوّش واختلاط . ولقد خلق التحليل النفسي مثل هذه الحالة إذْ فشل في أن يفرّق بين أشياء لا بدّ أن تكون منفصلة ضمن المصطلح العام لكلمة جنس . وهكذا صار من الضروري أن نردّ هذا الخليط إلى عناصره الأصلية .

لقد حاولت في السابق ، عند إعادة تقييم معظم القيم في نظرية الليبيدو التحليلية النفسية ، أن أوضّح أنه ليس ثمة ما يدعى بمكوّنات الحافز الجنسي . وما قدّمه فرويد

وأتباعه بمثابته كذلك ، كالسادية ، المازوخية ، الاستعراضية ، وغيرها ، هي خلائط من الحافز الجنسي ، مع دوافع للهيمنة والتملّك من مجال الأنا . وليس للدافع الجنسي الخام مركّباته التي يمكن تفريقها ؛ ووحده اختلاطه مع نزوعات الأنا يؤدي إلى تباينات وإلى تلك الحيدانات المرضية التي ندعوها بالانحرافات . إنّ المحللين النفسانيين لم يروا بعد أنّ الانحرافات ليست ظواهر جنسية وحسب .

إنّ الانطباع الذي مفاده أن الحافز الجنسي بحدّ ذاته يمكن أن يكون له خصائص الهيمنة والإخضاع ليس إلاّ وهماً وضلالاً . وبالطبع ، فإنّ الغريزة البدائية لا تعرف أي احترام أو اهتمام بالموضوع الذي يُستعمل لارضاء الحاجات ؛ ولا تستيقظ الارتكاسات البرية أو العنيفة إلاّ حيال مقاومة الموضوع . ويمكن أن نثبت بوضوح أن بعض الاختلاط للحافز الجنسي مع نزوعات الأنا لا بدّ أن يكون قد حدث باكراً جداً في التطوّر البشري من خلال طابع الفعل الجنسي ذاته ، والذي لا يزال إلى الآن ينمّ عن آثار صراع . ومثل هذا الدليل الظاهري ، مهما يكن ، لا يقدّم للمحللين النفسانيين إلاّ القليل من العزاء . فهجومية نظريات هؤلاء تكمن بالضبط في ادّعائهم أنهم يقدّمون الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة في حين أنهم ليسوا على حقّ إلا جزئياً . إنّ نظرية الليبدو هي ، وستبقى ، الجزء الأضعف في مأثرة فرويد العظيمة .

غالباً ما يغطّي المصطلح التحليلي النفسي « الجنسية النفسية » اختلاط الجنس وشهوة الانتزاع . ويمكن أن نثبت بعدد هائل من الملاحظات التي نجدها في الروايات والمسرحيات أنّ هذا الخليط المؤلّف من كلا الدافعين كان معروفاً جيداً قبل ظهور التحليل النفسي . وسوف أختار مثالاً واحداً من مسرحية برنارد شوبيوت الأرامل . فالعاشقان في هذه المسرحية ، بلانش وترنش ، يتخاصمان وينفصلان . ومرة يكون لدى ترنش شغل في بيت والد بلانش ويبقى وحده لبضعة دقائق . يتطلع حوله بحذر ، ومن ثم يمضي على رؤوس أصابعه إلى البيانو ، يتكيء عليه بذراعيه المثنيين ، متملّياً في صورة لمحبوبته . وتظهر هذه الأخيرة نفسها عند باب المكتب في الحال . وحين ترى كيف كان مستغرقاً ، تنسلّ نحوه ، ممعنة النظر إليه . وحين ينهضُ من وضعية اتكائه ، يأخذ

اللوحة عن الحامل ، ويكون على وشك أن يلثمها ،عندما يجد بلانش بقربه . يُسقِطُ اللوحة منْ يده ، ويحدّق في بلانش . يحمرّ خجلاً ويتراجع خطوة إلى الخلف . وتلاحقه بلانش دون رحمة . ويبدأبتناول قبعته عن الطاولة متجهماً محمّراً ومجفلاً . وعندما يتحول باتجاه الباب ، تقف في طريقه عامدةً فتضطره للوقوف . بلانش : « لا أريدك أن تبقى » . ولبرهة يقفان وجهاً لوجه ، خدّ قريبين واحدهما من الآخر ،هي مُستفزة ، ساخرة ، وفي ملامحها شيء من التحدي ، وشيء من الدعوة له لأن يتقدّم ، وهي في حمًيا تهيج حيواني صريح . وفجأة يومض في ذهنه أنّ كل هذه الضراوة سببها الرغبة الجنسية ، وأنها تمارس به الجنس . إنّ هذا الوصف هو الأشدّ لفتاً للانتباه حيث يتعلّق بما في ممارسة الحب من عدوانية من قبل المرأة . ومثل هذه العدوانية تظهر لدى النساء في بعض الأحيان عندما لا يأخذ الرجال زمام المبادرة في الغزل . أما بعض النساء فيصبحن باردات جنسياً في مثل هذه الأحوال .(« الانتظار الطويل يجعلني عصبية مثل قطة » ، قالت إحداهنّ) . فإذا بقي الرجل مفرطاً في سلبيته ، فإنها هي التي تضطلع بالدور الفعّال .

إنّ من العسير ملاحظة وتحديد حصّة دوافع الأنا في هذه الأرض التي لكل رجل وامرأة ، حيث يلتقي الحب والجنس ويندمجان . ولقد وصفنا ، حين رسمنا الخطوط العريضة للأطوار السابقة على الحب ، كيف أنّ هذا الأخير ينجم عن ارتكاس انفعالي تجاه نزوعات الطمع ، والعداء ، والعدوان . ولا بدّ من القول أنّ هذه القوى ، الت غلبها الهوى واكتسحها ، غالباً ما تؤكد وجودها فجأة في خضَم الحب ، تماماً مثل أؤلئ التيتانTitansالقدماء ، الذين طردتهم الآلهة الإغريقية إلى العالم السفلي ، فتمردوا على المغتصبين الجدد . هكذا الحب لا يحقّق سلاماً دائماً بين الجنسين ، وإنّما هدنة قد تطول أو تقصر وحسب .

لا يمكن أن نتعامى عن حقيقة أنّ نزوات شديدة من العداء تظهر في بعض الأحيان في خضم الحب ، نزوعاتٍ مدهشة لإيذاء موضوع العاطفة . إنها بقايا من الانفعالات الأصلية ،وآثار من أطوار الحب البدئية بل ويمكن لنا أن نلاحظ ، وإن كان

ذلك لا يحصل إلّا نادراً ، أفكار حسدٍ عابرة ونزوات طمع تجاه المحبوب . ولا حاجة بنا في العادة للانزعاج من هذه الانفعالات ، إلّا أنّ بمقدورها أن تلعب دوراً حاسماً في المعركة بين الجنسين[1] . ووجودها بحدّ ذاته يثبت أنّ الجنس والعاطفة لا يتحكّمان وحدهما بالعلاقة بين الجنسين ، وإنما هناك أيضاً عامل صامت غالباً ما يتمّ تجاهله أو تبخيس قيمته ، هو دوافع الأنا القديمة التي لا يمكن استنفادها كليةً . وهكذا ستعاود الانفعالات الأصلية الظهور ، من حسد ، وطمع ، وتملّك ، وعداء ، حين يخبو الحبّ . ففي تحلّله وانهياره سوف تتكشّف ثانيةً هذه المكوّنات التي عملت عملها عند ولادة الغرام . وسوف يظهر تضارب الإرادات ثانيةً قرب النهاية كما كان شأنه عند البدء .

إنّ شهوة الهيمنة موجودة بالتأكيد لدى الرجال والنساء على حدّ سواء ، لكنها لا تفعل فعلها بالشدّة ذاتها لدى كليهما . ثمة لدى الرجال شيء من الصيّاد ، ونزوة ناصب الشراك لدى النساء . وشهوة القنص هذه تعزّز اللذّة الجنسية ، وتشحذ شهية الذكر . كما تصبح ضرورة نفسية بالنسبة للكثيرين منهم . بل إنّ بعض الرجال يفقدون رغبتهم الجنسية إلى حدّ معين إن لم يواجهوا مقاومةً ما مهما تكن . ولقد أفضى إليّ مرةً أحد المرضى بحادثة له مع سيدة شابة من بين معارفه المقرّبين بدت منجذبةً إليه . وبعد حفلة ، قضى فيها كلاهما وقتاً طيباً ، صحبها إلى بيته من أجل حفلة كوكتيل ختامية .

---

1 ـ ثمة هامش من الشك فيما إذا كان سترنيدبرغ هو أول كاتب عبّر على نحوٍ واعٍ عمّا في الحب من كراهية . فلقد وجدت بين أمتعة هنري بيك ، مؤلف المسرحية الطبيعية التي عنوانها « الباريسية » ، والمتوفي عام 1899 ، قصيدة كانت تتضمن هذا البيت : « كنت فظاً وفاتراً ، وكانت حارّة وقاسية » ، وتبدأ على هذا النحو :

ليس لديّ ما يذكّرني بها
لا صورة ، ولا خصلة شعر
ليس لديّ رسالة منها
لقد تباغضنا نحن الاثنان .

وبينما هي تبدّل ملابسها شعر أنه متهيّج جنسياً نوعاً ما . وما لبثت أن ظهرت بمِبْذَلٍ(*) مُغرٍ . وبينما هما يحتسيان الكوكتيل قالت : « لماذا نضيّع الوقت سدى بكل هذه التمهيدات ؟ فلنمضِ إلى السرير » . وفي الحال صحا الرجل . ولم يُخفِ امتعاضه من كونها قد جرّدته من الإشباع الناجم عن جذبها إليه وانتزاعها ، وحرمته من التغلّب على ترددها ومقاومتها . وتناول قبعته ومضى .

وحتى حين لا تكون الارتكاسات بمثل هذه المباشرة ، فإنّ غياب بعض المقاومة من جانب المرأة يكون مدعاة للأسف الصامت من قبل الرجل . أية لذّة ينالها الصياد إذا كانت الطريدة هدفاً طيّعاً ؟ إن إشباع الرغبة بالانتزاع ، ومقارعة المقاومة أصبحت عاملاً متأصلاً في المناوشات التمهيدية . وكان فرويد يعتقد أن اقتناعاً يُقْبَلُ بسهولة ودون ارتياب في البدء لا يمكن أن يكون راسخاً وثميناً . ولقد تحدّث في هذا الموضوع في إحدى أمسيات الأربعاء التي كُنّا ، نحن أتباعه القدامى ، نُدعى إليها في بيته وقد ختم حديثه بجملة مفعمة بالمعنى : « القناعات ، والنساء اللواتي نناهلنّ بيسر ، لا تكون لهنّ قيمة كبيرة بالنسبة لنا » .

إن الرغبة الذكرية بالانتزاع لها مكانتها في الستراتيجية الدقيقة للغرام . فقنص رجل قد يكون نقلةً خاطئة تجعله يتراجع ، وقد يكون الابتعاد عنه حين يكون متردداً هو الطريقة المثلى لاصطياده . وتبينّ خبرتي في التحليل النفسي أنّ هذا المبدأ (على عكس وجهة النظر الشائعة) له قيمته الخاصة بالنسبة للرجال النسويين . فهم يُبْدون حساسية خاصة تجاه المقاربة الفعّالة من قبل المرأة . ويشتدّ هذا الموقف حتى يصل إلى حدّ الخوف والعداء لدى كثير من الجنسين المثليين ، الذين غالباً ما يتطور لديهم نوع من هوس الاضطهاد Persecutionmania ، وكأن كل النساء يلتمسن إقامة علاقات جنسية معهم . وغالباً ما يتضح أن هؤلاء الرجال ينسبون نزوعاتهم اللاواعية إلى النساء اللواتي « يلاحقن » هم . والرجال الجنسيون المثليون غالباً ما يسيئون تفسير أمارات الاهتمام

*ـ المِبْذَل : Negligee ، ثوب نسائي طويل وفضفاض .

البسيطة والصداقة بهذا المعنى .

بل ويمكن أن يشكّل انتزاع المرأة إشباعاً بالنسبة لمجموعة كبيرة من الرجال الذين لا يفكّرون بالمرأة إلا حين يشعرون بحاجة فيزيائية إليها ، والذين يعتبرون الحب مجرد كلمة تُستخدم في الأفلام والمجلات . وغالباً ما يشعرون أيضاً بأنّ ثمة عقبات تتحداهم ؛ ويصبح الانتزاع قضية هيبة شخصية . وهم يتمتعون بالمغازلة تماماً كما يستمتعون بالصيد ، ويشعر بعضهم أنهم قد خُدِعوا إذا ما نفذت مشيئتهم بسهولة ويسر . ويبدو أنّ لسيكولوجيا سحرة النساء علاقة بهذه الشهوة للانتزاع أكبر بكثير من علاقتها بالجنس . وغالباً ما يفكّر الرجال أنهم « سعداء في الحب » بينما هم مبتهجون بالنصر وحسب . ولا بدَّ أنّ دون جوان قد احتاج إلى كثير من الوسائل من أجل أناه المتزعزع . فمن يحتاج إلى الكثير جداً من النساء لا يمكن في الحقيقة أن يقدِّرهنَّ حق قدرهنَّ أو أن يكون معهم في حب . ولعلكم تتوقعون أنَّ رجلاً يتمتع بحظوة كثير من النساء والفتيات لا بدّ أن يكون صديقاً للجنس اللطيف ومُقِرّاً بالجميل على كل ما يتلقاه من عاطفة . وفي الحقيقة ، إنَّ معظم هؤلاء الدون جوانات أشخاص يكرهون النساء . وهذه السمة توضح أيضاً أنّ الانتصار على النساء هو بالنسبة إلى الرجال من هذا الطراز أكثر أهمية من الاشباع الجنسي . ولعلَّ من الأفضل القول إن إشباع هذه الرغبة المحددة يبدو لهم بمثابة اللّذة العظمى التي تُشْتَقُّ من الجنس .

لا بدَّ بالتالي أن نأخذ بعين الاعتبار دور الكبرياء الذكورية . ما هي الكبرياء ، بالمعنى السيكولوجي ؟ إنها موقف دفاعي تجاهلته السيكولوجيا المعاصرة ، ولكنها ذات أهمية عظيمة في فهم السلوك البشري . وهي تنشأ بمثابتها إجراءً واقياً لدى الشخص بعد أن يكون قد تأذّى ، ولا تخفي وحسب بل وتكشف أيضاً قابلية هذا الشخص للانجراح Vulnerability وتمكن مقارنتها بالندبة التي تتشكّل بعد أن يشفى الجرح . وكبرياء الرجل في علاقته بالنساء هي ، في المقام الأول ، كبرياء جنسي ، كما لو انه غير واثق من قدرته الجنسية . وهكذا فإن أداؤه لوظيفته في الإتصال الجنسي يكون له ليس طابع الإشباع الفيزيائي وحسب ، بل وطابع الانتصار أيضاً . كما أن للإتصال

الجنسي ، بصورة لا واعية ، بل وحتى بصورة واعية ، طابع الاختبار بالنسبة للرجل . ذلك أنّ عليه أن يثبت لنفسه أنه رجل ، وأن يؤكّد ذاته كما لو كانت فحولته Potency موضع شكّ . ومثل هذا الشكّ بفحولته الخاصة يمكن أن يشكّل عائقاً جدياً لدى مقاربة النساء ؛ فمثل هذا الرجل يخاف من التحدي الذي يمثله الإتصال الجنسي بالنسبة له . ويرعبه التفكير في أن المرأة قد لا تعتبره مكتمل الرجولة (« لست رجلا ») . وهذه الكبرياء البدائية التي تتركّز حول الدور الجنسي هي كبرياء غريبة على النساء[1] . إنّ كبرياءهنّ تنبع من منبع آخر . وإذا كان الرجل يريد أن يؤكّد لنفسه مرة بعد مرة أنه قويّ ورجل ، ويشعر بالفخار إذا ما كانت رغبته الجنسية شديدة تجاه المرأة ، فإنّ المرأة تشعر بالخجل إذا ما رُغِبَ بها جنسياً وحسب .

إنّ كبرياء النساء هي ، وكما سبق لي القول ، من نوع آخر ، لكنها أكثر تطوراً

1 ـ في مقالة ظهرت مؤخراً في مجلة Psychiatry ، العدد السادس ، 21 شباط 1943 ، وعنوانها « الجنس والشخصية » ، أشار الدكتور أريك فروم وبحق إلى « أن ثمة فروقاً في الشخصية تعكس الأدوار المختلفة للرجال والنساء في الاتصال الجنسي » . ويلاحظ أيضاً أنّ « ضروب القلق لدى الرجال والنساء تشير إلى عوالم مختلفة ؛ فالرجل معنيٌّ بأناه ، بهيبته ، بقيمته في عينيّ المرأة ؛ أما المرأة فمعنيةٌ بلذّتها الجنسية وإشباعها » . فالمرأة تعتمد على الرجل كي يوصلها إلى الرعشة ، وتخشى من أنّ « تُترَك وحدها » إذا ما هيّجها الرجل ولم يكن قادراً على تأمين إرضاءها الجنسي . إنّ الدكتور فروم يفرط في تبسيط صورة الوضع . فالخوف الذي يشير إليه لا يتواجد لدى النساء إلاّ بعد أن يختبرن الاخفاق المتكرّر للرجل . والنساء اللواتي لم يختبرن إخفاق الرجل الجنسي لا يشعرن بمثل هذا القلق . ومن جهة أخرى ، غالباً ما تدرك النساء أنهنّ لا يستطعن بلوغ الإشباع الجنسي بأنفسهنّ بسبب الضعف لديهنّ (الخجل ، الخوف ، العداء اللاواعي تجاه الرجل ، وغيرها من ضروب الكفّ) . بل ويمكن حتى لشكوكٍ تتعلّق بمظهرهن أن تفعل فعلها فيهنّ على هذا النحو . وكثير من النساء يعلمن بصورة واعية أو لا واعية أنهنّ مسؤولات بالمثل عن إخفاق الرجل الجنسي . وكثير منهنّ يشعرن بكبرياء خفيّ لدى قدرتهنّ على استنهاض فحولة الرجل .

من كبرياء الرجل . وقابليتها للانجراح هي أعظم وتتعلّق بمجالات نفسية أخرى . فالحاجة إلى الانتزاع تتجلى لدى المرأة على نحو أكثر دقّة . وهي تستمتع بسلطتها على الرجل ، لكنها تفضل امتلاك هذه السلطة ، ليس لأنها إمرأة وحسب ، بل لأنها هي ذاتها . وقلّة قليلة من النساء هنّ من ترضيهنّ السلطة التي يمكن تقريباً لأي إمرأة أخرى أن تحوزها على رجل متهيّج . وتفضل النساء أن يهيمنّ ليس لأنهنّ نساء ، بل بسبب مواهبهنّ الفردية . ولا تريد المرأة أن يتمّ تقديرها ببساطة باعتبارها فرداً من جنس النساء ، بل باعتبارها شخصية . وتمكن مقارنة الطابع المتعارض للكبرياء الذكورية والأنثوية على أفضل وجه بمواقفهما الخاصة تجاه مسألة الفردية Individualityفي قضايا أخرى . ولقد رأيت لوحةً صغيرة توضح هذا التعارض على نحو طريف . فمن جانب أول ، وفي مخزن لبيع القبعات ثمة بائع يزكّي قبعة لرجل قائلاً : « خذ هذه ، ياسيد . كلّ السادة في المدينة يرتدون هذهالقبعات »، وفي الجانب الآخر بائعة تقنع زبونة قائلة : « خذي هذه القبعة ، مدام . ما من سيدة في المدينة لديها مثلها » .

ثمة خوف مستتر لدى المرأة من أن يقدِّرها الرجل باعتبارها أنثى لا باعتبارها فرداً وهي تخاف من أن يرغب بها لا باعتبارها إمرأة بعينها ، بل باعتبارها الأنثى الأقرب إلى متناوله . وهي تحتاج إلى ما يؤكِّد على أنه يريدها ، ولا يريد مجرد إمرأة جميلة ،كائنة من كانت . يقول كيبلنغ : « لا بد للرجل من أن يمضي إلى النساء ، الأمر الذي لا تفهمه النساء » . وفي الحقيقة فإنّ معظمهنّ يفهمن ذلك ، بل ويستطعن تحمُّل هذه الحقيقة ، ولكن لا يردن أن تشملهنّ مجموعة النساء التي لا بدَّ أن يمضي الرجال إليهنّ . كما يعلمن كم هي يسيرة إثارة الرجل جنسياً وكم هو عسير جعله يحبّ . أن يكون لهنّ سلطة على رجل فإن ذلك يغذّي كبرياءهنّ ، هذا صحيح ، ولكن على طابع هذه السلطة يتوقّف ما إذا كانت المرأة يمكنها أولا أن تسمح لنفسها أن تفخر بها[1] .

---

١ ـ وصف ستاندال هذه الكبرياء وهذه الحساسية لدى النساء كما يلي : « المرأة ذات الطبع السمح سوف تضحّي بحياتها ألف مرة من أجل عاشقها وسوف تنفجر معه إلى الأبد في نزاع كبرياء حول باب مفتوح أو مغلق » . ومن الملحوظ أنّ النساء =

إن النساء يعلمن ما سيكون عليه مصيرهنّ إذا ما استسلمن للرجال بسهولة زائدة ؛ سوف يُستَعملن جنسياً ومن ثم يُطرَحن جانباً . فالتقليد النسوي السري القديم ـ الحذر من الرجال ـ يتمّ تلقينه لكل فتاة صغيرة أثناء تنشئتها . وتخشى النساء من أن يُستعمَلن في البدء ومن ثم يُساء استعمالهنّ . ويحتجن إلى ما يضمن لهنّ الحب فضلاً عن الرغبة بهنّ . وتنتابهنّ على الدوام فكرة أنهنّ سرعان ما يُهجَرن بعد أن يقضي الرجل منهنّ وطره . وهذا هو السبب الذي يجعلهنّ يبدأن بمقاومة تقدُّم الرجل وينتهين باعتراض إحجامه ، كما قال أوسكار وايلد . وتدرك النساء أن ليس بالإمكان الاحتفاظ بالرجال إلا بإبداء ممانعة في البدء : « ما الذي سيظنه بي ؟ » إنه السؤال الأبدي لديهنّ . ولقد حكت لي إحدى الفتيات مرّة أنها رغبت بمعرفة ما إذا كان شاب محدَّد يحبها ، ولكنها أضافت فوراً أنها لم تُرِدْ لأنَّ معرفة ذلك قد تحرمها من عفويتها . ولديَّ انطباع أنَّ النزوع إلى محاولة توقُّع الارتكاسات هو أكثر تطوراً بكثير لدى النساء منه لدى الرجال . وهو يفسّر جزئياً سبب اللباقة الاجتماعية الأكثر رهافة لدى النساء عموماً منها لدى الرجال . ولقد أفضت إليَّ صبيّة بأنها غالباً ما كانت غير واثقة من الكيفية التي ينبغي أن يكون عليها سلوكها حين تقابل شاباً في الشارع . هل عليها أن تنظر إليه مباشرة وهو قادم بإتجاهها ؟ ربما اعتبر هذه النظرة نوعاً من الدعوة له ، فالنظر قد ينمُّ عن اهتمامها . ولكن النظر بعيداً ، كما تعتقد ، يدلُّ أيضاً على انجذابها إليه إذْ يشير إلى أنها تتفادى النظر عامدة .

بل ويمكن لمثل هذا الحدس أن يصبح لا واعياً . وفهم هذه الحقيقة يقدّم مفتاحاً للمواقف النسوية التي تحيّر الأشدّ ذكاءً في بعض الأحيان . ويمكن لنا أن نفهم هذه السمة بصورة أشدّ وضوحاً إذا ما أخذنا بالحسبان ، مثلاً ، أنَّ النساء جدّ حسّاسات فيما يتعلّق بمظهرهنّ والانطباع الذي يخلّفه . لماذا تعبس الفتاة فجأة ؟ ليس ثمة ما يبرِّر ذلك

أكثر ممانعةً بكثير لقبول عيوبهنّ تجاه الرجال قياساً بهؤلاء الأخيرين تجاههنّ . وإذا ما ندمنَ على فعل خاطىء ضد الرجل ، فإنهنّ لا يأبين الإقرار به بالقول وحسب ، بل ويستبقن ملامة الرجل ويركزّن كثيراً على أنهنّ ارتكسن بحنق وامتعاض .

في الحديث الصداقي الذي سبق تبدّل مزاجها . والرجل لا يعرف أنّ عينها قد طرفت وحسب إلى صورتها في المرآة على الجدار فاعتقدت أنها لا تبدو كما يجب . ولقد دُهِشَ شاب إذْ زار فتاة ووجدها متحفّظة وغير ودّية ، رغم أنها كانت لبقة وودودة في الزيارات السابقة . ولم يحزر أنها شعرت بعدم ارتياح لأنها غسلت شعرها قبل فترة وجيزة من قدومه وأنها انزعجت لأنه كان لا يزال مبلّلاً . قلّما يغيب عن ذهن المرأة اهتمامها بالانطباع الذي تخلّفه لدى الرجل[1] ، وهذه حقيقة تحدّد موقف المرأة في المعركة بين الجنسين .

تلتقط المرأة الصوت الداخلي في سلوك الرجال ، وهي حساسة تجاه أبسط تجاهل أو افتقار إلى الاهتمام ، وتجاه أقلّ التبدّلات في أمزجتهم . ويقتضي منها احترامها لذاتها أن لا تمنح نفسها لرجل لا يقدّرها حقّ قدرها ككائن بشري . ويُظهر كبرياء النساء قابليتهنّ للانجراح . وهنّ يعرفن جيداً ـ أفضل من المحلّلين النفسانيين ـ أنّ لكلٍّ من الرغبة الجنسية والحب مولداً مختلفاً .

يؤازر إرادة الانتزاع لدى الرجال نوع غريب من الفضول الذي لا يتعلّق بالجسد وحده . فالشاب يحدس في أحلام يقظته باستسلام المرأة وتكون أحلام اليقظة هذه منشغلة بصور Images حول سلوكها في استسلامها له . وهي صور لا تُعنى بالجسد المرغوب بقدر ما تعنى بكلمات وإيماءات ، وسلوك المرأة المحبوبة ، والتي تستحضرها هذه الاستيهامات المهتاجة . وثمة إحساس لا واع يخبر الشاب أنّ المرأة التي تمنح جسدها تعطيه ما هو أكثر من الجسد ، وتكشف له ما يزيد عن مفاتنها . وهو يشعر أنها

---

1 ـ تتذكر مريضة من طفولتها الباكرة أنها ارتبكت وهي في الأرجوحة لأنّ سروالها الداخلي لم يكن ملائماً لثوبها . وتتعلّم البنات باكراً جداً النظر إلى أنفسهنّ بعيون الآخرين . قالت هذه المريضة نفسها : « حين أكون مرتدية ملابس رثّة أكره كل الناس » . وغالباً ما تنتاب النساء أفكار مثل : « مَنْ على وجه الأرض يمكنه أن يميل إليّ وأنا أبدو هكذا ؟ » أو « لماذا لا يستطيع أن يراني الآن ؟ » .

باستسلامها تفشي ذاتها السرية . ومما له دلالته أنَّ الكتاب المقدَّس يستخدم عبارة « معرفة المرأة » بمعنى الإتصال الجنسي معها . والثيمة الأساسية لمثل هذه الاستيهامات الذكرية هي ثيمة شبقية Erotic ، إنْ لم تكن جنسية محضة ،لكنها غير مقتصرة على الجنس وحده . فهي تدور حول الشخص موضوع الحب ، شخصيتها ، سلوكها ، أفكارها ومشاعرها ، وغالباً ما ترغب بالنفاذ إلى لبِّ كينونتها .

في مثل هذه الاستيهامات يتمُّ التعبير بوضوح عن نوع من التملُّك الذهني ، عن رغبة بالحيازة ، لجسدها وعقلها . وغالباً ما يكون مثل هذا التملُّك متضافراً مع شعور قديم بالغيرة ، والتي تنوس على نحو غريب بين النقيضين : الحنان والقسوة . ولقد قال شاب لفتاة يحبّها : « أود أن أعرف ما اقترفت يداك في حياتك كلها » . وشاب آخر راح يراقب زوجته ، حديثة العهد ،في أحاديثها مع الآخرين بنوع من الافتتان ؛ وحين استدارت نحوه مبتسمةً ، انتابه شعور بهيج بأنه استردّها . وفي بعض الأحيان فإن الرغبة التي تستحوذ على المرء لمعرفة كل شيء عن موضوع الحب تكشف عن طبيعتها ، إذا ما تدهورت وفسدت ، في البحث المعذِّب وفي تعذيب النفس .

كتب كازانوفا العجوز في مذكراته أن الحب « ثلاثة أرباعه فضول » . لكن مثل هذا القول هو أقلّ دلالة وأهمية بالنسبة لبحثنا منه بالنسبة للشخص الذي يؤمن به[1] .

ليس من غير الهام أنّ كازانوفا المغامر لم يرَ في الحب سوى اللذة الجسدية . فهو حين تحدّث أو كتب عن « L'amour »(*) ، لم يُضَمِّن هذه الكلمة الحنان بل المتعة

---

١ ـ رغم أنّ المحلّل النفساني الدكتور سي . م . هيرولد (في مجلة The Psychoanalytic Qcarterly (1942) قد عبّر عن وجهة النظر ذاتها بعد بضعة قرون من كازانوفا ، معلناً أن جوهر الحب هو الفضول ، والرغبة بمعرفة الموضوع ، فإنّ ثلاثة أرباع هذا القول تبقى خطأ . إنّ فيه من السذاجة المنعشة بقدر ما في خلط أحد الأشخاص بين الفلفل الذي أضافه الطبّاخ إلى الطعام وبين مادة الطعام الأساسية .

*ـ الحب ، بالفرنسية في النص الأصلي .

الجنسية وحدها[1] . وصارت مطابقة تقريباً لكلمة « Volupte' »[**] . وعلى أية حال ، فإن الحصّة التي يعزوها للفضول تبيّن أنّ شهوة الانتزاع كانت تعني له الكثير . وما عسى الفضول في الحب أن يكون سوى شكل ذهني لإرادة الانتزاع ؟

---

1 ـ قارن ذلك مع جملة أناتول فرانس العجوز متذكّراً طراز لباس السيدات الذي كان ذات مرة يحتوي على فيض من الأزرار : « Il y a Trente ans Les modes feminine ètaient Tres cruel pour les amants »

« منذ ثلاثين سنة كانت الأزياء النسائية فظّة جداً بالنسبة للعشاق » .

* * ـ المتعة ، بالفرنسية في النص الأصلي .

لهفة الانتقام

في تفاعل الحافز الجنسي ، ورغبة الهيمنة ، والحنان ثمة عدد وافر من الإشكاليات . إسمحوا لي أن أذكّركم بالصراعات التي تنشأ من الحاجات الانفعالية المختلفة لكلا الجنسين ، وبإلحاح النساء على عدم التفكير بالجنس إلا بالارتباط مع العاطفة ، وبالصراعات الناجمة عن كبريائهنّ الجريحة ، وبالارتكاسات العنيفة من قبل الرجال الذين يشعرون بانتهاك مطامحهم الذكورية . واسمحوا لي أن أذكّركم أيضاً بالتنافس القديم بين الجنسين والذي لم يُمْحَق وإنما غُمِرَ بالحنان وحسب ، وهو على استعداد دائم للظهور من جديد . ولقد سبق أن ناقشنا كل ذلك فلا حاجة بي لأن أسهب بصدده هنا .

ثمة ، على أية حال ، ظاهرة انفعالية غالباً جداً ما تحصل في العلاقات بين الجنسين بحيث تتعجّبون كيف أنها لم تؤخذ بالحسبان من قبل السيكولوجيين على نحو أكثر جدية بكثير . ولقد قرأت في مئات عديدة من الكتب عن إشكاليات الزواج ، والحب ، والجنس ولم أجد ما يتعدّى التنويه العابر والقاصر إلى هذه الظاهرة هنا وهناك وأنا أقصد تلك الرغبة التي تكاد لاتُقهر للانتقام من الآخر الذي يؤذي مشاعر المرء .

من الواضح أن علاقة الحب لا تكون ممكنةً عندما يستخدم أحد الشريكين تفوُّقه لقهر الآخر . بل إنَّ تحقُّق أحدهما من أنَّ الآخر يمارس عليه جوراً يخلِّف لديه أثراً باقياً ، وإنْ يكن لا واعياً ، يعبِّر عن نفسه بنقمةٍ خفيّة . إنَّ منبِّه الحقد قوي أيضاً وعلى

نحوٍ مدهش لدى من يقرُّون أنَّ بعضهم يحبُّ البعض الآخر . والضغينة والمرارة يمكن أن تبقى حيّة لزمن طويل بعد أن يكون قد تمَّ نسيان باعثها . ولعلَّ تقديركم لمقدرة البشر على الغفران والنسيانْ يتضاءل كثيراً حين تتحقّقون من أنَّ التحليل النفساني لكثير من أفراد كلا الجنسين يبينُ بوضوح أنَّ رغبة الانتقام لدى أحد الشريكين تواصل الحياة فترة طويلة بعد أن يتمّ الشعور بها على نحو واعٍ . وهكذا فإنّ ردَّ المُنتَهِك ، وجعله يتجرّع من طُبّه الخاص ، وبجرعة كبيرة إنْ أمكن ، يبقى واحداً من الرغبات اللاواعية في الحياة الانفعالية للمتزوجين والعشاق . وهو يعبّر عن نفسه لا في التخريب المستتر لجهود الشخص الآخر والصراع المكشوف وحسب ، بل أيضاً في تيار العداء والحقد الخفيين واللذين غالباً ما يكون دوامها مدعاةً للدهشة . إنه يحيا في الاستيهامات اللاواعية ويتكشّف في أفعال أعْراضيةSymptomaticبسيطة تنير فجأةً الوضعية النفسية بين شخصين كما تنير الأنوار الكاشفة مشهداً مظلماً .

تتجلّى روح الثأر هذه في توتّر ، يتمّ الشعور به ولكنه لا يُدرَك بصورة واعية ، وينفذ إلى لبّ العلاقة بين الاثنين . وحقد النساء العميق قمين بإقناع أي شخص أنهنّ يمكن أن يكنّ ضاريات وعنيفات مثل الرجال . وأنا أعرف فتاة لم تغفر لزوجها ، بعد سنوات عدّة من الزواج « السعيد » ، أنه كان قد أقام علاقة مع فتاة أخرى ، وهو لا يزال خاطباً . ومن المعروف جيداً أنّ المرأة التي تتزوج رجلاً أرمل نادراً ما يمكنها احتمال إطرائه لزوجته الميتة . ولسوف تمتعض طويلاً بعد مقارنةٍ تُجرى بين محاسن الميتة ومساوئها هي . وفي مثل هذه الظروف يضرم الحب نار العداء .

تزوجت فتاة رجلاً كان يبدو لفترة طويلة وكأنه غير مبال بإعجابها الصريح به . وكزوجة له شعرت تجاهه بنقمة ثابتة خفية . كانت تكرهه إذْ كان عليها أن « تصطاده » بدلاً من أن يخطب هو ودّها . ولم تستطع أن تغفر له إذْ طالما شعرت قبل الزواج بالإذلال الناجم عن هذا الانقلاب في دوريهما الملائمين . واستيهامات الثأر لدى النساء ، اللواتي يشعرن أنهنّ منبوذات أو اللواتي ينتظرن طويلاً قبل أن يسعى وراءهنّ أحد ، هي استيهامات مألوفة إلى حدّ بعيد . ولقد اشتكت إحدى الفتيات قائلةً : « إنه

بعيد جداً فلا أستطيع أن أكون باردة معه . أتمنى لو يشعر بالانجذاب نحوي كي أتمكن من رفضه » . وكان لدى فتاة أخرى استيهام ناشط جداً أضحت فيه مغنّية مشهورة وأحرزت نجاحاً عظيماً في إحدى الأوبرات التي كان يحضرها شاب محدد . وبينما كان ينتظرها على باب المسرح ، عبرت دون أن تنظر إليه . وحين اتجه إليها ، قالت بفتور : « دعني أمضي » . والشكل الأكثر تكراراً لمثل هذه الاستيهامات هو الذي تمضي فيه المرأة مع رجال آخرين بقصد أن تُري الشخص المحبوب والمكروه كم هي محط إعجاب وتقدير .

إنَّ تضارب الإرادات الذي سبق ظهور العاطفة وكان خفياً غالباً ما ينتعش ثانيةً بشكل آخر . والمحلّلون النفسانيون يصابون بالدهشة حين يجدون كم يمكن للرجال والنساء أن يشعروا بالنقمة وبصورة لا واعية في حين تبقى علاقاتهم ودّية على السطح . ويتكوّن لدى المرء انطباع وكأنّ العلاقة الأصلية للرجل بالمرأة وللمرأة بالرجل كانت علاقة عداء ، وكأنّ الكراهية والخوف وُجِدا منذ مطلع العلاقات البشرية .

لماذا يلعب الحقد مثل هذا الدور تحت السطح في حياة الأزواج الانفعالية ؟ ثمة أسباب عديدة للضغائن أحادية الجانب أو المتبادلة ، ولكن من الواضح أن تلك التي يتمّ الشعور بها على نحو أكثر جدية هي أذيّات واقعية أو وهمية تصيب تقدير المرء لذاته . والسبب واضح . فقد أكدّنا أنّ الحب يزيل انعدام الأمن الداخلي ، وشكّ المرء بجدارته وقيمته ، ويمنح المحبّ توكيداً على كرامته واحترامه لذاته . ومن الطبيعي أن يلقي به شكّه في كونه محبوباً في مهاوي انعدام الأمن القديم ، ويُحيي عدم ثقته بنفسه ، وينعش السخط في داخله . وهكذا يعود القلق القديم ، الذي كان قد تغلّب عليه تأكُّد المرء من أنه محبوب . لقد جعله كونه محبوباً غير قابل للانجراح كما يبدو ولكن هاهو عرضةً من جديد لتعذيب الذات إذْ فقد الثقة بالنفس التي استعادها عبر الحب . ولديَّ انطباع قوي أنّ شعور المرء بكونه غير مطلوب ، هذا الانفعال الأصيل المعبَّر عنه بعبارة « لا أحد يحبني » ، مرتبط من حيث طابعه النفسي بالخوف ، بل وبالخوف من الموت في بعض الأحيان . إن الوضعية التي يتضح فيها فجأة لشخص ما أنه ليس محبوباً أبداً تولّد

انفعالاً مشابهاً لسكرة الموت ، أو ربما لهلع طفل هجرته أمه فجأة .

وفي الحقيقة يبدو كما لو أنّ اقتناع المرء بقيمته الخاصة ـ المحروسة والمعزّزة بكونه محبوباً ـ هو وقاء ضدّ هذا القلق .

إنّ تجريدالمرءمن إحساسه هذا بقيمته ككائن بشري يماثل إلقاءه من جديد في الظلمة الحالكة للنفور من الذات ، والتي أنقذه الحب منها . وعندما يتبيّن الرجال والنساء فجأة أنهم كفّوا عن أن يكونوا محبوبين من قبل من أحبّهم يقولون أنهم يشعرون كما لو أنهم يموتون ، وليست هذه مبالغة مفرطة . فذلك يعني أنهم عرضةً لقلقٍ يشابه ما في خطر الموت . وهم لا يعلمون أنّ هذا الخطر آتٍ من الداخل ، من نزوعات تدمير الذات في الطبقات العميقة من العقل اللاواعي .

دعونا نقارب الإشكالية من زاوية أخرى : ثمة شكل خطير من الجنونInsanityيدعى البارانوياParanoia(*) ، يشعر فيه المريض بأنه معرّض للخطر من قبل اشخاص يعرفهم أو لا يعرفهم يبدو أنهم يتآمرون ضدّه ويريدون تقييد حريته ووضع حدّ لحياته . وفي كل الاستيهامات الناشطة لدى المصابين بالبارانويا ، ثمة أناس يكيدون لهم ، ويضطهدونهم ، ويضعون الخطط ضد أمنهم وحيواتهم . وهؤلاء المرضى ، وقد وصل سوء الظنّ لديهم إلى أقصاه وبنظرة ثاقبة غالباً ، يفسّرون الأحداث والأفعال اليومية البسيطة كما لو أنها موجهة ضدّهم ، وكما لو أنها دليل ماديّ على الخطة المتخيَّلة التي رُسمت ضدهم سراً . وغالباًما يخشون تهديدات غامضة تتهدّدهم . وفي الوقت ذاته ، يتطور لديهم هوس العظمةMegalomania ، الذي يحسبون فيه أنهم شخصيات عظيمة وهامة جداً وذوو رسالة لشعبهم أو للبشرية جمعاء .

إنّ التأويل الذي قدمه التحليل النفسي لحالات الجنون الغريبة هذه يصوّر

---

* ـ البارانويا ، حسب القاموس الطبي الموحّد ، هي الزوَر ،الذُّهان الكبريائي . أما الدكتور مصطفى حجازي فقد عربّها بمصطلح « العُظام » . وذلك في ترجمته « معجم مصطلحات التحليل النفسي » لجان لابلانش و . ج . ب . بونتاليس .

السيرورات الانفعالية التي أفضت إلى المرض باعتبارها ضروباً من الرفض اللاواعي لميل جنسي مثلي قوي . فالشخص الذي يظهر بمثابة مُضطهِد للبارانويّ كان في الأصل رجلاً يحبه ، قريباً ، أو صديقاً ، أو طبيباً ، أو استاذاً . وهذه المكابدة الجنسية المثلية ، والتي يتنصّل منها البارانويّ في لا وعيه ، تنقلب عداءً تجاه الشخص نفسه . ويبقى هذا العداء لا واعياً في حين ينسب البارانويّ كراهيته العدوانية الخاصة إلى الشخص الذي نبّه جنسيته المثلية المكبوتة . لست أنا الذي أكرهه ،بل هو الذي يكرهني . ووحده الطور الأخير من المرض يكون واعياً .

ليس مفهوم البارانويا ، كما يعرضه فرويد ، خاطئاً ،لكنه مشوّه ومحرّف . ولقد لاحظت لدى بعض البارانويين أنّ السيرورة النفسية تأخذ الشكل التالي : لقد شعر المريض بعداء شديد لا واعٍ . وأراد أن يكون محبوباً كي يهدّيء ما تثيره عدوانيته وعداؤه المكبوتين من قلق . وخاف في لا وعيه من ألاّ يكون محبوباً لأنه لا يستحق ذلك . وطابق في لا وعيه بين كونه غير محبوب وثقته بأنه مكروه . كما لو أنّ كلمتين ، مترادفتين ، تُستخدمان للشيء ذاته . والإسقاط Projection ، والذي هو ، بالطبع ، الطور الأشدّ أهمية في السيرورة النفسية ، تمكن صياغته على هذا النحو : « أنا أكرهه . أتمنى أن يحبني ، رغم أنني أكرهه . إنه لا يحبني . إنه يكرهني » . وعبر إسقاطه الكراهية الأصلية اللاواعية الخاصة على شخص ما ، فإنّ البارانويّ يبدو لنفسه بمثابة ضحية لعداء ذلك الشخص . فالمصابون بالبارانويا يحتاجون لأن يكونوا محبوبين ومحطّ إعجاب ، ويمكن للسيكولوجي في الوقت ذاته أن يلاحظ بوضوح رغبتهم بأنّ يُغفَر لهم عداؤهم الخاص .

هوس العظمة يبدو بحدّ ذاته وبصورة رئيسية محاولة تعويض يقوم بها البارانويّ كي يعيد التأكيد لنفسه أنه يستحق أن يكون محطّ إعجاب وحب . ولا تهمنا إشكالية البارانويا برمتها إلا لأنها تثبت النظرية التي مفادها أنّ الموقف الأصلي للرجال تجاه الرجال هو العداء . فإحساس المرء بقيمته الخاصة يتوقف ، إلى حدّ بعيد ، على ما إذا كان بمقدوره تحمّل عدائه وعدوانيته اللاواعية الخاصة . ونقطة الضعف في شخصية

هؤلاء المرضى هي بالضبط عدم الثقة بقيمتهم الخاصة .' والدرجة المحدودة لثقتهم بأنفسهم ، والتي يتمّ الإفراط في تعويضها في تطورات المرض اللاحقة من خلال أفكار هوس العظمة المتعلقة بذواتهم . ونلاحظ أنّ الشعور بكونهم غير محبوبين يخلق لديهم قلقاً ويُفسَّر في لا وعيهم كمكافىء لكونهم مكروهين . حين يشعر المرء أنه غير مطلوب وغير محبوب ، فإنّ الجو يعبق بالخطر والوعيد ، بل وبتهديد الموت أيضاً .

لاحظ كاتب فرنسي مرّةً أنّ الحب هو أساساً «Absence De L'anxiete»(*) .وبالطبع ، فإن مثل هذه العبارة سوف لن تحظى من المحلّلين النفسانيين بغير الازدراء . (« وخاصةً حين يحصل عرضاً أن تكون مستوردة من فرنسا » ، كما يقول جلبيرت وسوليفان) . ولكن ثمة تبصّر سيكولوجي في هذه العبارة . فالحب لا يكون ممكناً حين تخشى شخصاً ما . ومن جهة أخرى ، فإنّ الحبّ يزيل الخوف . ويمكن القول أنه ليس لدى المصابين بالبارانويا أية أسباب مادية للخوف من « مُضطهِديهم » ، ولكن لديهم أسباباً سيكولوجية وافية . وهم يعلمون بصورة لا واعية أنّ بغضهم لمُضطَهِديهم المفترضين يستلزم ،منطقياً ، إثارة عداء مقابل .

تعالوا ننظر من زاوية أخرى لنرى لماذا هو هام جداً إحساس المرء بقيمته الخاصة ، ولماذا تخبو الأنوار كلها إذا ما تهدّدنا فقدان هذا الإحساس . إنّ احتفاظ المرء باحترامه لذاته ضروريّ سيكولوجياً ، كضرورة الحفاظ على الصحة الجسدية . وأذيّة المرء في احترامه لذاته يتمّ الشعور بها بمثابة تهديد شأنها شأن مرضٍ جسدي خطير . وصحّة الشخص النفسية تتوقف على تقييمه لذاته تماماً كما تتوقف صحته الجسدية على بنيته الجيدة . ويمكن لنا أن نفهم الآن على نحوٍ أفضل لماذا يكون للهجمات التي تُوجَّه ضدّ لبّ علاقة الحب هذا مثل هذه الأصداء أو المضاعفات العميقة والدائمة . ولقد سبق لغوته أن عبّر عن الفكرة المفتاحية في هذه الإشكالية وبلغة قوية . قال غوته : ليس مهماً فقدانك أي شيء آخر ما دمت تمتلك نفسك ، وما دمت باقياً ما أنت عليه . إنّ

* - « غياب القلق » بالفرنسية في النص الأصلي .

اللطمة تنزل بهذه النقطة الأضعف لدى شخص مثقّف ، أي ثقته بنفسه ، والقيمة التي يسبغها على ذاته ، يتمّ الشعور بها بمثابة لطمة مهلكة ، وخاصةً حين يسدّدها المحبوب . إنّ هذا العامل اللامرئي يسبب الكوارث الثقيلة في المعركة بين الجنسين . وهكذا يختفي وهم الأمن وعدم قابلية الانجراح في الحال ، ويصبح الرجل من جديد عرضةً للفتور والوحدة التي تملؤه بالذعر والإحساس بدنوّ الأجل .

ليس صحيحاً أنّ الجنسية مفتقدة هنا . فهي إن كانت موجودة ، يكون الإشباع الفيزيائي متاحاً بيسر . ولكنْ ثمة مطالب أخرى يتمّ الشعور بها هنا ولا يمكن إشباعها بالسهولة ذاتها . وليس لديّ أيّ شك أنه بعد إرضاء حوافزنا الأشدّ أوليّةً ، فإنّ الانفعالين اللذين يتحكّمان بحيواتنا هما الخوف من الموت والرغبة بأن نكون موضع حب .

مقالة في الغيرة

لِنَقُلْ بوضوح أنّ موضوع الغيرة لا ينتمي إلى ميدان سيكولوجيا الحب . ويجادل البعض أنّه ما من حبّ حقيقي دون غيرة ، ولكنني لا أتفق مع وجهة النظر هذه . فقولهم يماثل القول أنَّ ما من أناسٍ أصحاء إلا ومرضوا في وقت من الأوقات . ومع أنه من الصحيح أنْ ليس ثمة بشر أصحّاء لم يمرضوا أبداً ،إلاّ أنّ المرض بحدّ ذاته ليس علامةً على الصحة ، وإنما على اضطرابها . وهذا الإضطراب سوف يحصل مرات عديدة خلال الحياة الطويلة ويتمّ التغلّب عليه .وسوف لن ينفي هذا الإضطراب الطبيعة الصحية أساساً للشخص ، رغم أنه نوع من العطل الوظيفي . وبالمثل فإنّ الغيرة هي علامة على أنَّ ثمة شيئاً ما خاطئاً ، دون أن يكون فاسداً بالضرورة ، في منظومة الحب ، والتي كثيراً جداً ما تكتنفها المشاكل . وبهذا المعنى فإنّ الغيرة هي عَرَضٌ من أعراض اضطراب داخلي ، ولكنها ليست المرض ذاته .

لقد تمّ بحث الغيرة بكل أشكالها وتظاهراتها المرضية . ويبدو لي أنَّ طبيعة هذا الاعتلال قد تحدّت ، وحتى فترة قريبة ، كل محاولة للتفسير السيكولوجي . ولا أزعم أنّ لديّ مفهوماً أوضح مما لدى أي باحث آخر . ويمكن تقييم إسهامي في هذا الموضوع ، لا كتفسير ، وإنما كتمهيد للتفسير . والتحليل الذي أقدّمه هو نتيجة استخلاصات مستمدّة من التحليل النفساني لكثير من حالات الغيرة « السويّة » وغير السويّة .

وبدلاً من عَرْضِ هذه القصص المَرَضية والمادة السريرية أُفضِّلُ تقديم عدد من

الانطباعات التي تكوّنت لديّ من قراءة دراسة حول مسرحية عطيل لشكسبير . وهذه الانطباعات ، المتناقضة بحدّ ذاتها ، أفضت تلقائياً إلى صياغة وجهة نظر تؤسّس ، رغم بعدها عن أن تكون نهائية ، لبعض النتائج السيكولوجية المؤقتة . وإني لأعترف أنه ليس لديَّ في الوقت الراهن ما أقدّمه أكثر من ذلك ، لكنَّ الباحث (حين يعتقد مخلصاً أنه على الطريق القويم) لا حاجة به لأن يخجل من الإشارة إلى أنَّ بحثه لم يبلغ سوى مرحلة تمهيدية .

يشدّد مؤلّف الكتاب الذي أشرت إليه من قبل[1] على أن مسرحية عطيل ليست تراجيديا عن الغيرة إطلاقاً . ويشير إلى أنَّ البطل يكون في البداية متحرراً من الغيرة على نحو غريب وأنَّ هذا الهوى ليس سمة رئيسية في طبع المغربي . أما سرّ المسرحية فهو التالي : ليس الصراع بين الحب والغيرة ، بل بين الحِب والشرف . فعطيل لا يريد أن يكون مغفّلاً مخدوعاً . ويشير كاتبنا إلى قول عطيل أنه ما فعل شيئاً « بدافع البغضاء ، بل الشرف » . ويبيّن كيف يصبح المغربيّ - ابن العرق الوضيع ، ولكن المفعم بالكبرياء والافتخار بنسبه الملكي ، الغامض - محارباً ظافراً وقائداً عظيماً ، شرّفته البندقية ، وكيف يسقط شيئاً فشيئاً ضحية قدرٍ أسود . فعطيل ، « الذي لا يغار بسهولة » ، والذي حاز نصراً اجتماعياً بكسبه حبّ ديدمونة ، السيدة الحلوة ، يرى نفسه محطَّ ازدراء واحتقار نبلاء البندقية الذين عاش بينهم بمثابة ندٍّ شريف . وهكذا يجد نفسه مهزوماً ومخدوعاً من جديد . وفي تخيّله المحموم يرى نفسه وقد أُلْقيَ ثانية إلى الطبقة الوضيعة المحتَقَرة التي هزمها العرق الأبيض من جديد . الأمر الذي يعني أن يعود مرةً أخرى ، هو المغربي ، منبوذاً ، ونفايةً مزدراة . وهكذا يصبح هذا الرجل ذو الهوى المشبوب ، والمضطرب في أعماقه ، تجسيداً للحنق ، والكراهية ، والعنف . ومن هنا ، فإن مؤلّفنا المثقف يعتبر عطيل تراجيديا للكراهية العرقية والشعور بالدونية الناجم عنها .

---

1 ـ ويلكر غيفين ، « دراسة إضافية حول عطيل » ، Papers of the shakspeare society of new york ، العدد (11) ، 1899 .

كان الانطباع الأول الذي تكوّن لديّ بعد قراءة الدراسة انطباعاً قوياً أكثر منه عميقاً . . كما لم يكن انطباعاً راسخاً ذلك أنه ، رغم مناقشة الكاتب الجيدة ، لم يكن الانطباع الوحيد ولا حتى الأشدّ بروزاً . فمع أنّ لوجهة النظر هذه ما يبرّرها ، إلّا أنها أحادية الجانب . فلقد تجاهلتْ ، بل وأهملتْ ، الغيرة باعتبارها الهوى الرئيسي . وبما أنّ ثيمة الغيرة قد دُفِعَت إلى المؤخرة ، فقد حصل أنْ احتلّت مكانها مسألة ثانوية غير هامة وغير ذات صلة بالموضوع ومفادها أنّ هذه التراجيديا العظيمة هي تراجيديا شعور عطيل بالدونية العرقية . ولقد خطرت في ذهني انطباعات أقدم ، مستمدّة من قراءة مسرحية شكسبير ورؤيتها وهي تُؤدّى على المسرح ، واقتضت مني أن أُصغي إليها . ومرّة بعد مرّة ، وضع الاستيهام أمام عين عقلي صورة عطيل وديدمونة ، والمشهد الليلي في حضرة والدها ، واشتهار حبهما ، والوداع والعودة ، والمحادثة الأخيرة قبل موت ديدمونة ، وعويل عطيل فوق جثمانها . أيمكن أن يكون هذا كله نتيجة لشعور عرقيّ خفيّ ؟ لا ، بالتأكيد .

ومع ذلك ، فإن ثمة شيئاً في أطروحة هذا الكاتب رغم اعتراضاتنا . ولقد استخلصنا في نهاية المطاف أنّ لدينا انطباعات متعارضة وأنّ القضية ما تزال أمراً غير محسوم أو محلول .

وبعد أن أعدتُ تفحّص ظاهرة الغيرة حيث كنت قد تمكّنتُ من مراقبتها في تحليل الأشخاص الأحياء ، تكوّنت لديّ فكرة حول ما قد تكون عليه صلتها السيكولوجية . ومن خلال انطباع جديد تلقيته ، ومن خلال الخبرة اليومية المتعلّقة بهذه الحالات ، اختفت التناقضات ، وأصبح ممكناً وضع مفهوم جديد للغيرة . وبالطبع فقد كان بلا معنى أن نُخضِعَ خاصية الغيرة الرئيسية في عطيل لعنصر التمييز العرقي والشعور بالدونية المتولّد عنه . ومع ذلك ، فإنّ ثمة جسراً يصل ، ليس إلى كراهية الأقلية العرقية ، وإنما إلى مشاعر انعدام الأمن لدى الفرد . ولعلّ هذا هو العامل المحدِّد في المنشأ النفسي للغيرة . وتبعاً لهذا المفهوم الجديد ، فإن عطيل تبقى تراجيديا للغيرة ، ولكنّ المسرحية تقدّم لنا في الوقت ذاته فهماً جديداً للطريقة التي تتولّد من خلالها

الغيرة .

ينبعث الحب ،في الأصل ، من عدم رضا الشخص عن ذاته ، وهو مشروط بإحساسٍ بانعدام الأمن الداخلي وإدراك الإخفاق في محاولة تحقيق متطلباتٍ معينةٍ صادرة من داخله . ويبدو الحب وكأنه يحقّق هذه المتطلبات بتضخيمه لأنا الشخص وباستدماجه أناً آخر ، هو موضوع الحب . فيختفي عدم الرضا . ولا يكون الشخص واثقاً نفسه ومن غيره وحسب ،بل وسعيداً بلا ريب . فقد وجد ذاته الحقيقية في الشكل الفيزيائي والسيكولوجي لنصفه الآخر ،موضوع الحب . وتحقّق المرء من كونه محبّاً ومحبوباً يكنس بعيداً كلّ انعدام للأمن الشخصي . ويصبح العالم ثانيةً ممتلئاً وكاملاً كما في الأيام السالفة قبل أن يهدد وحدةَ هذا العالم وجودُ موقف حرج ، ومدين للذات في داخلِ الشخص .

أما الغيرة فهي تَسِمُ عودة عدم الثقة الأصلية بالنفس بعد أن كان الشخص قد حاز على الأمن عبر الحب . وليس ثمة غيرة دون تمهيد لها في الاستيهام فترة طويلة وعلى نحوٍ خفيّ . وهذا التمهيد ، إنْ كان واعياً ، قد يعبّر عن نفسه في أقوال معينة وفي أسئلة تتمّ الإجابة عليها في البدء بكثير من الشكّ ولكن باقتناعٍ لاحقاً . ويتعلّق السؤال الأول بموضوع الحب أكثر منه بالغريمrival . أتحبني جين ؟ ولماذا ؟ هل أنا جدير بأن أُحَبّ ؟ وهل أنا محبَّب بما فيه الكفاية ؟لماذا تحبني وهي المحاطة بما لا يُحصى من الآخرين الذين بفضل جاذبيتهم الجسدية ، أو مواهبهم ، أو إنجازاتهم ، يستحقون حبها أكثر مني بكثير؟ وهكذا يفكّر عطيل ، مثلاً ، بكل النبلاء الأغنياء في البندقية ، ويسأل نفسه لماذا اختارته ديدمونة ، وهو الغريب بلا وطن وسليل العرق الوضيع ، دون ثروة ، دون شباب ،بغيض ولا أحد يعتبره مكافئاً من حيث العرق لأسياد مدينتها المفعمين بالفخار .

طور الغيرة الأول ، ها أنا أكرر ، هو عودة شكوك المرء بذاته وعدم رضاه عنها . وأول تعبير عن هذه الانفعالات هو اشتباهه بجدارته كما تمّ تقييمها من قبل موضوع الحب . وهذه الشكوك ، التي تعاوده بعد أن كان الأنا قد أحرز انتصاره عبر الحب ،

تبقى لا واعية لفترة طويلة بقدر ما يتعلّق الأمر بالتقييم الذاتي المباشر . ولا يمكنها أن تصبح واعية إلا على شكل شكوك حيال الحب الحقيقي من جانب موضوعه . وإذا ما أردنا التعبير عن ذلك بصيغة تُظهِرُ عملية الإسقاط ، في مجراها من المستوى اللاواعي إلى الوعي ، فإننا نقول : لستُ جديراً بحبّها ؛ إنها تشعر أنني غير جدير بحبها . وهكذا يبقى الشكّ الأول لا واعياً . أما الثاني فيمكن أن يصبح واعياً ، ولكنه ليس بالضرورة وغالباً ما يبقى غير واعٍ .

يأخذ الطور الثاني شكلَ مقارنةٍ للذات مع آخر ـ مُتخيَّل أو واقعي ـ سيفرض ، بسبب خصاله الأرقى ، مطلباً أشدّ على عواطف المحبوبة . وفي ضلالات وأوهام الحالات المرضية ، يظهر في استيهامات المريض غُرَماء متخيَّلون . وهذا التطور الجديد والذي يستغرق شخصاً ثالثاً في الترسيمةScheme المتخيَّلة يمكن ردّه إلى زمنٍ قارنَ فيه الطفل ذاته مع أطفال آخرين ولم تكن النتيجة لصالحه . ولقد نشأ الصراع بأجمعه في الطفولة ـ عدم الرضا عن الذات ، الحاجة إلى التميّز . وثانيةً ، إذا ما أردنا التعبير عن الأمر بصيغة ، يمكن لنا أن نقول أنّ مواصلة السيرورة الانفعالية ، الخفيّة حتى عن الشخص نفسه ، تجري على النحو التالي : « هي تعتقد أنني غير جدير بحبها وأنّ الآخر جدير » .

والتطور بمجمله هو في العادة لا واعٍ . وأحياناً فقط تظهر بعض التظاهرات الموحية ، مندفعةً إلى ميدان التفكير الواعي ، كي تدلّ على ما يجري في الجانب الداخلي العميق لدى الفرد . إنها تشبه تلك الفُجاءات البحرية الغريبة ، المختفية طويلاً في أعماق البحر الغامضة ، والتي تكتسح الشاطىء في بعض الأحيان . ووحدها الحلقة الأخيرة من سلسلة التفكير تصبح واعية في العادة ؛ أعني : « هي تحبه ولا تحبني » . ففي الطور الأخير لا يظهر ذلك باعتباره شُبهة أبداً وإنما كيقين قائم على الاقتناع الكامن بعدم جدارة المرء لدى المقارنة مع قيمة غريمه الفائقة . ولا حاجة بي لأن أضيف أنّ هذا الغريم لا يبدو متفوقاً في عينيّ المحب الغيور . فهذا الأخير لا يشعر إلا بأنّ محبوبته وحدها هي التي ترى مثل هذا التفوق لدى الشخص الآخر . وهذه السمة هي أيضاً

حصيلة للإسقاط الذي حدث في حين تمَّ نكران شكّ المرء بنفسه وتحويله إلى المحبوب .

ويتوجب علينا أن نشير ونؤكّد على سمتين أثنتين بصورة خاصة . فالاشتباه موجود قبل أن يظهر الغريم في المشهد . كما لو أنّ الشخص الذي يريد أن يغار كان يبحث عن رجلٍ ليغار منه . وبحثه يفلح دوماً . وإذا لم يجد غريماً ، فإنّ الشكّاك سوف يخلق واحداً بالاستيهام ، وسوف تشير كل تخيّلاته إلى أنّ الغريم هو المفضّل لدى موضوع الحب . وعندئذ يصبح الغريم شخصية شبحية Phantome – figure ، أو لنقل ، تشخيصاً لإمكانية فكرية ، وبديلاً لذات أفضل . وهكذا فإن خيبة الأمل في حالة الحب يكون قد تمَّ التمهيد لها وتوقّعها مئات المرات على نحوٍ لا واعٍ .

الغريم الواقعي مفقود ، كما هو حال الدليل على خيانة موضوع الحب وعدم إخلاصه . وعلى أية حال ، فإنَّ بمقدور الشكّاك إقامة وجود كليهما بسهولة ، سواء من خلال التفسير السيء للوقائع أو من خلال قوة التحريف التي تتمتّع بها المخيّلة . فعقل الغيور لا يحاول أبداً إيجاد دليل ماديّ لإثبات شبهاته . وهو في جميع الأحوال يكبح كلّ إمكانية للحصول على ما يؤكّد شكوكه . أما السمة الثانية ، الاعتقاد بعدم إخلاص الموضوع ، فهو اعتقاد لا يمكن هزّه لأنّ جذوره بالغة العمق في الشكّ الذاتي وفي التفكير المتلبّث للمرء بعدم جدارته والذي تمّ تحويله إلى المحبوب . ولا يواجه الغيور صعوبة في إيجاد أسباب لهذا الشك أيضاً . وتصبح الشروط الخارجية ذرائع لنقائصه وإخفاقاته . وعدم التأكّد المعاود مما إذا كان موضوع الحب يفضّله هو أو يفضّل الآخر يمثّل الشكّ في جدارته ويحلّ محلّ هذا الاشتباه اللاواعي ، الأصلي في حكم العقل الواعي .

وفي النهاية ، اسمحوا لي أن ألقي نظرة على التطوّر السيكولوجي لدى عطيل . فهذا الأجنبي الغريب ، سليل العرق الوضيع ، والمحتَقَر بين نبلاء البندقية ، يحقق للجيش انتصارات باهرة وتمنحه الحكومة لقب الشرف . ورغم تقدّمه في السنّ ، فإنه يستميل ويكسب ديدمونة الجميلة ، التي رفضت عدداً لا يحصى من اللوردات ذوي الجاذبية . والآن ، وبعد نصر جديد على أعداء الدولة ، يبدأ التغيّر داخل عطيل . بل

حتى قبل ذلك لا بدّ أنه قد شعر على نحو لا واعٍ أنه نهبةٌ للشكّ ، وارتاب في أعماق كيانه بحظّه الطيب ، ولا بد أنه قد اعتقد أنّ من الحسن كثيراً لو يكون هذا الحظ الطيب حقيقياً أو يبقى كذلك . أما إياغو فيمثّل هذه الذات الأخرى ، الخفيّة بشكوكها المستترة[1] . وما يقوله إياغو لا يعكس سوى الأفكار اللا واعية للمغربي ، وهي تُنْطَقُ من على فمٍ آخر .

هذه الشبهات العميقة ، المتلبّثة تصبح أكثر إلحاحاً بعد نيله ديدمونة على الرغم من معارضة والدها وفي مواجهة السخط الحسود من جانب كثير من ضباطه ، هذا السخط المحسوس أكثر منه معروفاً . وإدراكه أنه عرضة لمثل هذا العداء من جهة أولئك الموجودين خارجه ولكن قريبين منه ، ومعرفته أنه هو ، الأجنبي ، كان محظوظاً على نحوٍ يفوق التصديق ، كلاهما عزّزا شعوره بانعدام الأمن الداخلي . وعلى الرغم من فضائله ، فإنّ عطيل كان مستعداً للمشاجرة أو القتال . فهو ، المغربي بين البيض الذين يكنّون له العداء بينما يشرّفونه في الظاهر ، لم يتحرّر أبداً من هذا الإحساس الممضّ بالدونية . وبالتدريج تحوّل انعدام الثقة إلى يقين ، وهاهو يصبح ضحية هولةٍ حسود . ولو أنه كانَ في لا وعيه أكثر ثقة بنفسه ،لكان قادراً على مقاومة شكوكه حيال نفسه بفعالية أشدّ ولكان واثقاً من حب ديدمونة له . فالحب هو الوسيلة التي يتغلّب بواسطتها المرء على كل هذه الشكوك . ومثل كل البشر الغيورين ، يحتاج عطيل إلى كثير من الحب كي يهدهد إحساسه بانعدام الأمن . إنه يدعو نفسه بالمرء الذي « لم يعقل في حبه ولكنه أسرف فيه » . ولعلّه كان من الأصوب أن يقول أنه من أراد أن يُحَبَّ لا بتعقلٍ وإنما بإسراف تماماً . فالحاجة المفرطة إلى الحب في حالة كحالته هي حاجة نهمة لا تشبع لأنّ الشكّ النابع من الداخل لا يمكن إزالته حتى ببراهين . وتعابير العاطفة الأشدّ

---

١ ـ في حديث له أشار السيد كيمون فرايز ، المحاضر في الأدب الانكليزي ، إلى أن إياغو ذاته مدفوع بالحسد وكره الذات . ويجد فرايز مفتاح أفعال إياغو في التعليق المكروب الذي يبديه إياغو تجاه كاسيو قبل أن يقتله في كمين : « إنَّ في حياته جمالاً يومياً يجعلني أبدو دميماً » .

إقناعاً . ذلك أنّ الشبهات عميقة الجذور لديه لا يمكن تسكينها . وما من حاجة لأي إياغو من أجل إيقاظها . لقد كانت موجودة مسبقاً في الأفكار اللاواعية لدى عطيل ، ومن الأدق القول أنها استخدمت إياغو أكثر ما استخدم إياغو عطيل .

إنّ مشاعر الدونية الناجمة عن التمييز العرقي ليست ثيمة عطيل . والصراع لا يدور حول قضية الشرف .

لقد حاز عطيل الظافر فوزاً لم يوفّر له أساساً كافياً للأمن الداخلي والإشباع . « فكلّ ما تتحلّى به الحرب المجيدة من فخامة وجلال » لا يكفيه ؛ ووحده حب ديدمونة يمنحه شعوراً بتحقيق ذاته . هل يشعر بالدونية تجاه النبالة الفينيسية ؟ ليس كرجل وكجندي بالتأكيد . إنّ شعوره بالدونية تجاههم هو بمقدار شعور بيتهوفن تجاه ارستقراطية فيينا التي انتزعت منه « المحبوبة الخالدة » . ولقد كان ثمة صراع عميق لدى عطيل قبل لقائه بديدمونة :

. . . ويوم لا أحبكِ

سيكون الكون قد عاد للفوضى من جديد .

من جديد ؟ إذاً لا بدّ أنها كانت موجودة من قبل . وعطيل لم يفكر أنّ ديدمونة كفّت عن الإخلاص له لأنه مغربي وحسب . وهو يعتبر ، في شكوكه المعذّبة للذات ، أنها تفضّل عليه كاسيو ، « لأنني أسود وتعوزني نواعم الماجنين في التصرف والحديث ، أو لأنني هبطت في وادي السنين » . أحقاً أن عطيل هي تراجيديا التمييز العرقي وحده ؟

لقد راقبت تطور الغيرة المشبوبة ، والعنيفة عنف غيرة عطيل تقريباً ، لدى رجل أبيض كان لديه من الأسباب بمقدار ما كان لدى المغربي . وكان هذا الرجل عصامياً ذا ذكاء عظيم حقّق عدداً من المآثر الجديرة بالفخار ، ومع ذلك كان يهجس بشبهات مفادها أنّ زوجته الجميلة قد لا تكون مخلصةً له . ولقد أضحى واضحاً وفي التحليل أنه لم يكن يشعر بقدرته على منافسة عدد من الرجال أكثر منه فتوة ووسامة ويطرون زوجته . وكان يراقبها على نحو متواصل ويفسّر كل نظرة توجهها إلى شاب وكل جملة في

حديث على ضوء أفكار غيرته الشاحب . وقال مرة : « لا أستطيع منافسة الملايين ممن هم أكثر فتوة وأشدّ جاذبية مني » . وكانت شكوكه حقاً شكوكاً بنفسه ، فقد كان يخشى من أنّ قدراته الجسدية والذهنية تضمحلّ ، وأنه يهرم بسرعة . وتحت غيرته كان يجري تيار عميق من عدم الثقة بالنفس . وهذا الشخص الشبيه بعطيل ، والذي قتل زوجته في استيهاماته الضارية وحسب ، لم يكن زنجياً ، ولم يكن حتى يهودياً . ولم تلعب مسألة العرق في حالته أي دور .

وثمة رجل آخر دفع زوجته ، التي أفرط في الغيرة عليها ، إلى ذراعي غريمه . قال لها : « إمضي إليه إن لم أكن أجدر منه . هذا هو الحل الأمثل إن كنتِ في شكّ . إمضي إليه » . كان واضحاً أنّ كبرياءه الجريحة هي التي حدّدت موقفه . ولقد تنحّى جانباً لأنه كان أكثر كبرياء بكثير من أن ينافس غريماً . إنّ إشكالية الغيرة متصلة دوماً بإحساس المرء بقيمته الخاصة .

لقد وجد شكسبير شخصية المغربي في مراجعه . لكن عبقريته لم تكن بحاجة إلى هذه المراجع من أجل تقديم تراجيديا عن الغيرة . وكان من الممكن إيضاح أصل هذا الهوى المشبوب ومفاعيله النفسية في مسرحية ليس بطلها مغربياً أو فرداً من أي عرق أو مجموعة دونية . وما كان هذا البطل ليحتاج أن يكون لديه أية وصمة اجتماعية . كان من الممكن أن يكون أيّ رجل يشكّ بنفسه شكّاً مستديماً لا برء منه ، ويشكّ بجدارته وإنجازاته ، أي رجل غير راضٍ عن نفسه ولا يجد خلاصاً أبداً في حب امرأة له . والأمر كله أنّ السبب الحقيقي لغيرة عطيل قد تمّ التأكيد عليه على نحو فعّال من خلال لون بشرته والثقل الذي يلقيه هذا اللون على كاهله .

يتخيّل عطيل أنّ لديه غريماً لأنه يشعر بالدونية تجاه النبالة البيضاء . ونتيجة استيهامه الشكوك هي نتيجة مأساوية . ومثل هذه المآسي تحصل أيضاً لأشخاص لا يرهقهم أبداً مثل هذا العائق الاستثنائي الذي حمّله شكسبير لبطله . إنها مآسٍ تحصل بين ظهرانينا كل يوم ، في كل مدينة وقرية صغيرة في العالم بأجمعه . وليس العامل الأساسي أنّ الشخص الغيور ينتمي إلى عرق مُحتَقر ، وإنما معاناته من شعوره

بأنه ليس ندّاً لغيره من الرجال ، في قيمته ومنجزاته ،في مظهره وفي طبيعته .

نحن نفهم الآن أنَّ ثمّة جزءاً من دراسة المؤلّف لعطيل له ما يبرره وأنّ ثمّة أجزاء شوّهت شخصيته السيكولوجية الحقيقية . لقد انطلق المؤلّف من الطرف الخاطىء . فمسرحية عطيل لا تقدّم تراجيديا ناجمة عن استيعاء الدونية العرقية . إنها تبقى تراجيديا الغيرة . وهي تَنْفذُ بصورة لا واعية إلى التحريض العميق والجذور النفسية لهذا الهوى . وتبينُ في صور لا تُنسى أنّ الغيرة تنشأ من الشكّ اللاواعي للمرء في ذاته وفي قيمته الخاصة ، وأنَّ الحب وحده لا يقدر في الغالب أن يتغلّب على إحساس المرء الخفيّ بدونيته الخاصة . وليس أساسياً أنّ هذا الشعور يترافق في مسرحية شكسبير مع قضية العرق . فهذه الأخيرة هي ذريعة وستار للغيرة . وسرّ الدراما لا نجده في مثل هذه الإشكاليات الخارجية ، مهما يكن تمثيلها للصراع العميق حسناً ، وإنما في السيرورة الانفعالية واللاواعية التي تؤدي إلى نمو الغيرة .

والاشكالية في مسرحية شكسبير ليست هذا المثال المفرد لهوى عطيل العنيف ، وإنما الغيرة نفسها ، هذا الهوى الذي نشعر به جميعاً . ولا شكّ أن شكسبير شعر به أيضاً . وما يدعنا الشاعر نفهمه ، أو يجعلنا ندركه على نحوٍ لا واع ، هو أنّ الغيرة لا تنشأ من الظروف الخارجية ، وإنما تتوقف على الافتقار إلى الثقة بالنفس وتقدير الذات ؛ وأنها تمدّ بجذورها العميقة إلى قناعاتنا اللاواعية تجاه أنفسنا . وحتى الآن لم يتحقّق السيكولوجيون بصورة دائمة من أنّ تطوّر الغيرة لا يتوقف على موقفنا تجاه موضوع الحب بقدر ما يتوقّف على موقفنا تجاه شخصيتنا الخاصة ، وعلى تقييمنا اللاواعي لأنفسنا . وعندما يبلغ علم السيرورات النفسية هذه النقطة ، فمن المخجل أن نجد أنَّ هذا الفهم كان موجوداً منذ بضعة قرون خلت ،ليس لدى شكسبير وحسب ، بل وأيضاً لدى الدوق لاروش فوكولد الذي كتب في مخطوطته المعنونة حِكَم أنّ في الغيرة حبّاً للذات أكثر مما فيها من حب .

تعليق على عدم الإخلاص

حين نتحدث عن عدم الإخلاص أو نفكّر به ،نعني عادةً الخيانة الجنسية المثبتة من خلال نشاط جنسي مع شخص آخر ؛ أي ، فعل لا يمكن نكران واقعه المادي . هل ثمة عدم إخلاص في الحب ؟ إنْ يكن موجوداً ، فلا بد أن يكون أكثر مراوغةً بكثير ؛ ولا بد أن يكون الحصول على الدليل المادي أشقّ بكثير لأنّ حقيقة الخيانة في الأفكار والانفعالات لا يمكن إقامتها خلف نطاق أي شكّ معقول . ويمكن الجدل أيضاً أن عدم الإخلاص في الحب مستحيل لأنّ شخصاً ما إما أن يحبُّ شخصاً آخر أو لا يحبه . وفي الخيار الأول يكون الغدر متعارضاً مع فكرة الحب ؛ وفي الخيار الثاني ، لا يكون الحب موجوداً ؛ وإذن فإنّ عدم الإخلاص مستحيل هنا . لكن هذه تبقى مجرد تأملات منطقية محضة ، شديدة الشبه بالمغالطة التي مفادها أنّ الموت لا تجب الخشية منه حيث لا حاجة بك لأن ترتعب منه ما دمت حياً كما أنك لا تستطيع الخوف إن كنت ميتاً . وبالطبع فإنّ مثل هذه الاعتبارت المنطقية لم تمنع الناس أبداً من أن يغاروا في الحب أو يخافون من الموت .

نحن نستطيع كسيكولوجيين أن نعتبر عدم الإخلاص ظاهرة مقصورة على الحب ، أو على مشاعر الحنان وحدها . وهذا يعني إختيار طيف أنا – Ego phantomآخر ، وتغيّر رغبة التشبّه بشخص محدّد إلى رغبة التشبّه بشخص آخر . وإذا ما استخدمنا المقارنة نقول : إنّ هذا الانزياح يشبه ذاك الذي يخضع له من يتحوّل عن دينه إلى اعتناق دين جديد ، الأمر الذي يضطره إلى تغيير إيمانه من البروتستانتية ، مثلاً ، إلى معتقدات دينية كاثوليكية . وما دام تغيير المعتقدات ممكناً ، فلماذا نشك

بإمكانية حصول تبدّل في القلب؟

علينا أن نفرّق الآن بين ثلاثة أمثلة متباينة في سماتها : الأول ، تبدّل عاطفة المرء من موضوع إلى آخر (وقد عزمنا على أن ندعو هذا « خيانة » أيضاً) ؛ والثاني ، الانجذاب الجنسي إلى شخص آخر ؛ والثالث ، اندماج كلا الشعورين . ولا يفوتنا أن نلاحظ أنَّ انتقالاتٍ من شكل إلى آخر يمكن أن تتمّ بسهولة . ومع ذلك ، فإن ثمة تمايزات واضحة مشابهة لتلك التي نلاحظها بين الحب والجنس ، وإعادة إتحادهما . ويحتلّ هذا التفريق الآن مكان التفريق السابق . ومن الأدقّ القول إنَّ التفريق القديم يبقى ذا قيمة إلى جانب الجديد ، وإنَّ تغيرات جديدة من شكل إلى آخر تصبح ممكنةً .

وإنني لأجد نفسي على طرفي نقيض مع من يجادل أنَّ مثل هذا التمييز الدقيق ليس له أية أهمية حقيقية . ذلك أنَّ هنالك فارقاً ، من وجهة نظر سيكولوجية ، فيما إذا كان الاهتمام ، أو الإعجاب ، أو العاطفة هو ما تُظْهِرُهُ المرأة تجاه رجل آخر ، وفيما إذا كانت مستغرقة في استيهامات جنسية حياله أو أنَّ كلا النوعين من الانجذاب حاضران على حدٍّ سواء . والزوج أو المحبّ قد يحتمل العاطفة « الأفلاطونية » التي تكنّها زوجته أو محبوبته لرجلٍ لم تكلمه أبداً أكثر مما يحتمل بكثير أحلام يقظة من طبيعة جنسية تدور حول هذا الرجل . وقد تغفر المرأة ، من جهة أخرى ، ما يبديه زوجها أو محبوبها من انجذاب جنسي مجرّد تجاه فتاة أخرى أكثر بكثير مما تغفر إعجابه بشخصية المرأة الأخرى . ففي الحالة الأخيرة ، فرادة المرأة الأخرى ، واستثنائيتها وحدها هي التي تهدد أمنها وتجعلها تغار . وثمّة قول مأثور شاع بين سيدات فيينا القديمة : « فتيات كثيرات لسن بمثل خطر فتاة واحدة » . فقد أدركن أنَّ عبث رجل مع عديد من الفتيات يمكن أن يبقى دون ضرر ، بل وحتى العلاقات العابرة مع واحدة أو أخرى قد لا تعرّض للخطر بالضرورة عاطفة الزوج الأساسية تجاه زوجته . وكُنَّ أكثر خوفاً من تضافر الاهتمام الجنسي مع تقدير شخصية المرأة الأخرى .

ومعظم النساء يتحملن أيضاً الاهتمامات والإطراءات التي يبذلها شريكهنَّ تجاه فتاة جميلة أكثر مما يتحمّل أزواجهنَّ وعشاقهنَّ الودّ نفسه إذا ما أبدته زوجاتهم

وفتياتهم . وهذا التحمّل ، الذي لا يغالي في تقييم أهمية مثل هذه الاهتمامات ، يدعمه إدراك النساء لحقيقة أنّ الرجال يحبّون أن يشعروا أنهم أحرار ويكرهون أن يدركوا أنهم مقيّدون ببلاهة إلى شخص واحد . فالسيدة التي لاحظت مبتسمةً كيف عابث زوجها عدداً من الفتيات ارتكست بطريقة مميّزة تجاه مضايقتي الودية بأن بدت غير غيورة على الإطلاق . قالت ، مشيرة إلى زوجها بل وإلى أي رجل آخر : « مُدَّ له حبلاً طويلاً وسوف يتم لك الاحتفاظ به » .

وإنني لأتساءل مندهشاً عما إذا كان السيكولوجيون قد صرفوا اهتماماً كافياً إلى الفروق العامة بين غيرة الرجال وغيرة النساء . فغيرة النساء نادراً جداً ما تبدي ملامح الغيظ الفاقد للحسّ ، وقلّما تعبّر عن نفسها في تعذيب متواصل للذات واستغراق في آلاف الصور الكريهة التي تستحضرها المخيّلة المهتاجة . وغيرة النساء لا تثيرهن في العادة إلى تلك الدرجة من الضراوة ولا تقحمهنّ في تلك الحالات من اليأس كما تفعل بالرجال. ولا هي تدفع بهنّ إلى أفعال يصعب التراجع عنها من العنف والثأر ، أو إلى اعمال القتل والتدمير . فالنسخة النسوية من عطيل ليس من السهل تخيّلها . وغالباً ما يغار الرجل من الماضي (« On n'est jamais le premier »)(*) ؛ أما النساء فنادراً ما يفعلن ذلك . وهنّ يفضّلن أن يكنّ الحب الأخير . ولقد قالت مريضة أثناء التحليل النفسي عن عشيقة زوجها : « يمكنه أن ينام معها ، لكن لا يمكنه أن يكلّمها » . فهي لا تغار لأنّ زوجها ، الذي تحرص عليه ، لا يبدي تجاه المرأة الأخرى سوى اهتمام جنسي . أما الرجال الذين يشعرون بالطريقة ذاتها تجاه زوجاتهم أو حبيباتهم فهم ليسوا كثيرين . وإنّ الشكّ الناخز هو ، في غيرة الرجال ، أكثر تعلّقاً بالنشاطات الجنسية وإلى حدّ بعيد ، منه بالعاطفة . ولقد سمعت مرة في فرنسا الملاحظة الطريفة التي مفادها أنّ العازبين وحدهم يعلمون أيّ حبّ مشبوب تقدر عليه النساء المتزوجات .

إنّ التمييز بين الخيانة في الحب ، وفي الجنس ، وفي كليهما معاً ، يوفّر إمكانات

*ـ « ليس للمرء أن يكون الأول أبداً » ـ بالفرنسية في النص الأصلي .

مختلفة ، تبعاً لأخذ عدم الإخلاص شكل الأفكار أو الأفعال . والبشر لم يأخذوا في حسبانهم هذه الفروق الدقيقة طوال بقائهم عند مستوى ثقافي متدنٍ . فعدم إخلاص الزوجة أو العشيقة في الاستيهام لم يكن مشكلة بالنسبة للذكر فاقد الحس ما دامت مخلصة في الواقع .

ولقد التفت سيكولوجيو وكتّاب عصرنا إلى هذه الأشكال الأشدّ رهافةً ودقّة والتي تلعب فيها المخيلة دوراً حاسماً . فغوته ، مثلاً ، كان قد اهتم اهتماماً عميقاً بمثل هذه الإشكاليات . ولقد صوّر في روايته صِلات مختارة امرأة مستغرقة في استيهاماتها بصور رجلٍ آخر وقعت في حبه ، مع أنّ اتصالها الجنسي مع زوجها كان متواصلاً . ومن ثم يتحطّم زواجها على الرغم من بقائها مخلصة لزوجها جسدياً . ويكون سبب فشل هذا الزواج هو خيانتها الفكرية . وخلال مئة من السنين التي تلت نشر غوته روايته للمرة الأولى ، أصبحت مشكلة الخيانة الذهنية واحدة من الموضوعات المحبّبة لدى كتّابنا ، هؤلاء المنقّبون في متاهات العالم السفلي النفسي بحثاً عن تقييم جديد للخيانة . ولم يستبعدوا ـ بل اعتبروا أن الأمر بمثابة الواقع ـ إمكانية أن ينام رجل مع امرأة محددة بينما هو يتوق لأخرى ، وأنه قد لا يستخدم الأولى بمثابة بديل للثانية وحسب بل يمكن أن يفلح تخيّلياً في تفعيل عملية الاستبدال . وحتى الامكانية الأخرى ، التي تستخدم فيها امرأة مخيّلتها بالطريقة ذاتها ـ وهي ظاهرة أندر بالتأكيد لدى النساء منها لدى الرجال ـ لم تَفُتْ فصول كتّابنا السيكولوجي . ثمّة في إحدى الحواريات الطريفة لآرثر شينتزلر مشهد يكون فيه أحد أولئك الرجال المفرطين في غيرتهم وشكّهم في الفراش مع عشيقته . وخلال الاتصال الجنسي يسألها : « مع من تخدعينني الآن ؟ » .

نظرة عابرة إلى العلاقات الجنسية غير الشرعية

لستُ معنياً في هذا الكتاب إلاّ بالمسائل السيكولوجية ، ولذا عليَّ أن أستبعد ، في مناقشة العلاقات الجنسية غير الشرعية ، كلّ الأوجه الأخرى مثل الأوجه السوسيولوجية أو الاقتصادية . وهكذا فإنني مستعد لقبول مقاربة أحادية الجانب . لكنَّ أحادية الجانب لا تتطابق مع الأفق الضيّق في التفكير . ومن الممكن أن نركّز على طور واحد من هذه الإشكالية ومن ثم أن نعترف بما فيها من تعقّد ، كي نبقى على إدراك تام بأنَّ ثمة اعتبارات أخرى . فإشكالية العلاقات الجنسية غير الشرعية لا تهمنا هنا إلاّ بقدر ما تستحوذ علينا بواعثها السيكولوجية .

وصف جون دَنْ التنويع Varity بأنه « الجزء الأحلى من الحب » . فهل هنالك حاجة مسلّطة فوق رأس المرء للتنويع في الجنس ؟ وهل العلاقات الجنسية غير الشرعية هي نتيجة لهذه الحاجة ، وتعبير عن الاشتهاء النهم الصادر عن شهوانية قويةٍ على نحوٍ خاص ؟ وغالباً ما قيل أن الأشخاص الذين يقبلون بممارسة العلاقات الجنسية غير الشرعية في حياتهم الجنسية هم ربما أشخاص شبقون . فهل لهذا الاعتقاد ما يبرّره ؟

يبدو أنه من المفترض عموماً أنَّ الحاجة إلى التنويع في الجنس هي أكثر تطوراً لدى الرجال منها لدى النساء . والسبب الذي تمّ تقديمه لهذه الأرجحية بين الرجال هو أنَّ لديهم دافعاً جنسياً أقوى . بل وقيل أنَّ سلبية النساء والعُرف الذي يمنعهنَّ من إتخاذ المبادرة الجنسية يكبحان التساهل المنفلت مع مثل هذه الحاجة . لكنني لا أتفق مع هذا التفسير . ومن المشكوك به إلى أبعد حدّ ما إذا كان لدى النساء حقاً حافز جنسي أضعف

أو أقلّ تطوّراً»[1] . فالتهتّك الجامح لدى النساء هو في العادة أكثر عمقاً من تهتّك الرجال . وبينما يهدأ الرجل ثانية في الغالب ، فإنّ المرأة قد تبقى سادرة في نشوتها .

حقيقة أنّ النساء يلعبن الدور السلبي لا تقتضي بالضرورة استبعاد الحاجة السيكولوجية للتنويع . فضلاً عن أنّ هنالك نوعاً من السلبية التي يمكن أن تكون عدوانية وانتزاعية على نحو حاذق . والنموذج الثقافي الذي نعيش فيه قد يكبت تظاهرات مثل هذه الحاجة ، ولكنها يمكن أن تتواجد كواقع سيكولوجي على الرغم من التأثيرات الخارجية . وكل العوائق التي أشرنا إليها لا تمنع النساء ، مثلاً ، من إظهار رغبة أقوى بلا ريب قياساً بالرجال كي تلفت الانتباه . فالغنج خاصية أنثوية . ولكن من الخطأ ، على أية حال ، أن نخلط الدلال أو الغنج مع الحافز إلى إقامة علاقات جنسية غير شرعية . ويمكن لنا هكذا أن نعزز الانطباع بأنّ الحاجة إلى تغيير الموضوع الجنسي هي عموماً أقوى لدى الرجال منها لدى النساء ، ولكن هذه الهيمنة لها بواعث

---

1 ـ إنّ اختلاف الرأي حول من يتمتّع أكثر بالاتصال الجنسي ، الرجل أم المرأة ، هو اختلاف قديم . ولقد كتب أوفيد (التحولات ، الكتاب الثالث) أنّ جوبيتر ، فيما هو ثمل ، راح يتبادل الدعابات المرحة مع جونو وأعلن : « أؤكد أنّ لذتكنّ هي أعظم من لذّتنا » . أما الربّة فكان لديها وجهة نظر معاكسة . وهكذا قررا معرفة رأي تايريسياس الحكيم ، الذي عرف كلا جانبي الحب حيث كان قد تحوّل إلى امرأة وقضى سبع سنوات على هذا النحو . وحكم تايريسياس إلى جانب رأي جوبيتر في هذا الجدال الهازل ، فحكمت جونو عليه بالعمى الأبدي لشدة استيائها . ومما له دلالة أنّ الربة سخطت على تايريسياس ، كما تنقم المرأة اليوم تماماً على وجهة النظر المشابهة . ويشير حكمها عليه بالعمى إلى أنه رأى ما يجب أن يبقى سراً . أما ت . س . إليوت ، الذي ألمع إلى هذا المقطع من أوفيد ، فيعتبره « ذا أهمية أنثروبولوجية عظيمة » . (ملاحظات على « الأرض اليباب » ، في الأعمال الشعرية الكاملة ، 1909 ـ 1935 ، ص 80) .

أخرى غير الحافز الجنسي القوي على نحو خاص[1]

نحن ندرك أنَّ العلاقات الجنسية غير الشرعية هي إما سلوك عادي عند مستوى ثقافي منخفض أو نتيجة طارىء سيكولوجي في مجتمع عالي التطور . فعند المستوى الثقافي المتدنّي لا يترتب على اختيار الموضوع أي فارق ، ذلك أن الحاجة الجنسية يمكن إشباعها جيداً مع موضوع محدد كما يمكن مع موضوع آخر . يصحُّ هنا قول غي : يمكن للمرء أن يسعد مع أية فاتنة عزيزة حين تكون الفاتنة العزيزة الأخرى بعيدة . فأول من يصل هو أول من يفي بالغرض . أما في أطوار أعلى من التطور ، فإنَّ بلوغ الإشباع يكون أصعب بكثير ؛ والمتطلّبات التي يتطلّبها الموضوع تكون متعددة جداً ومضاعفة . وعند المستوى المنخفض ، الفرصة هي كل شيء ؛ والموضوع الأقرب إلى المتناول هو الأفضل . أما عند المستوى المرتفع فإنَّ الموضوع الأفضل يتمُّ البحث عنه .

يمكن لنا أن نطرح جانباً مسألة العلاقات الجنسية غير الشرعية في المجتمع نصف المتحضّر لأنها لا تنطوي على أي لغز بالنسبة لنا . فوجود إمرأة في المتناول هو العامل الحاسم حين تستيقظ الرغبة الجنسية . أما العلاقات الجنسية غير الشرعية في المجتمع المتحضّر فهي أكثر تشويقاً بكثير . وليس ثمة شكّ في إمكانية حصول انتكاسات إلى هذا الطور السابق ، تكون بمثابة نكوصات Regressions إلى سلوك ينتمي إلى مرحلة باكرة من التطور الثقافي . ومن الواضح أنَّ الافتقار إلى الإشباع هو ما يسوق الرجل عادة ـ والمرأة نادراً ـ من شريك إلى آخر . افتقار إلى أي إشباع ؟ والجواب الجاهز هو ، بالطبع ، الإشباع الجنسي . بيد أنني أعتقد بخطأ هذا الجواب ، لأن الدافع الجنسي الخام يمكن إرضاؤه بسهولة وحقيقة أن الرجل غير مشبع جنسياً ليست هي ما يدفعه إلى العلاقات الجنسية غير الشرعية ، أو إلى قنص عدد أكبر من التجارب الجنسية العابرة والعَرَضية

---

1 ـ تدرك النساء هذه الحاجة الذكرية ولكن يبقى أنَّ القليلات منهنّ هنّ اللواتي يرتكسن لها بتلك الثقة بالنفس التي أبدتها سيدة شابة في تعليقها على خطيبها : « أعرف أنَّ الرجال يحبون التنويع ، لكني متنوعة بما يكفيك » .

بصورة رئيسية . ها نحن نلتقي ثانية بالخلط القديم للدافع الجنسي الخام مع إرضاءات الأنا المتنوعة . وغالباً ما يكشف التحليل النفسي عن أنَّ كثيراً من الرجال الذين نطلق عليهم إسم « الشبقين » يعانون بصورة لا واعية من إفتقار إلى تحقيق مطامح وتشوّقات أخرى . وتبدو طاقتهم الجسدية منزاحة من دوافع الأنا إلى ميدان الحافز الجنسي . وثمة ، بالطبع ، بواعث كثيرة على العلاقات الجنسية غير الشرعية مثل التحدي ، والثأر ، والفرار من ميول جنسية مثلية ، وإغراء العلاقات المحظورة ، وفتنة الإنحلال ، وغيرها .

ومن المؤكّد لدى معظم الرجال الذين يستشعرون قوة الحاجة إلى التنويع في الجنس أنَّ نزوة الانتزاع وليس الدافع الجنسي هي ما يقلقهم ويضطرهم إلى البحث عن مغامرات جديدة . وغالباً جداً ما يلعب شك المرء في كونه مرغوباً دوراً حاسماً . ويبدو سلوك الرجل كما لو أنه يكشف عن أنه يريد أن يثبت لنفسه قدرته على انتزاع كثير من النساء مرة بعد مرة . ولقد أدركت إحدى النساء الحقيقة السيكولوجية لهذه الحالة حين قالت لرجل : « أنت لا تريدني حقاً ، بل تريد فقط أن تجعلني أريدك » .

ورغبة الانتزاع هذه تصبح أقوى لدى ساحر النساء Lady – Killer منها لدى غيره من الرجال . فهو يجمع النساء مثلما يجمع الهاوي الطوابع . ومثل هذا الهوى لا يعني بالضرورة أنَّ الشخص يفهم النساء ؛ بل هو بالأحرى دليل مقنع على أنه لا يفهمهنَّ . والرجل الذي يمكنه فهم امرأة واحدة يمكنه في الحقيقة أن يفهم جميع النساء . ومعرفة الضعف الجنسي وحده لدى النساء لا تتطابق مع فهمهنَّ ، إلاّ بقدر ما تكافىء معرفة الأعضاء التناسلية وحدها التضلّع بالتشريح البشري . ولقد اعتقدتُ دوماً أنَّ دون جوان ، في جمعه للنساء ، جدير بالشفقة أكثر مما هو جدير بالحسد (« . . . في اسبانيا وحدها ألف وثلاثة » ، هكذا يقول خادمه في أوبرا موزارت) ، ذلك أنَّ الذي ينتزع النساء وحسب لا يمكنه أن ينال أية سعادة حقيقية خارج العلاقة معهنَّ . إنَّ إثارة النجاح ولذّته سريعة الزوال التي تغذّي شهوة السلطة وتسند الأنا هي التي تقود ساحر النساء . ومن المفهوم تماماً أن هذا الأخير ليس روحاً شريرةً بقدر ما هو شيطان بائس .

وفضلاً عن ذلك ، فإنّ من يركّز كلّ اهتمامه على النساء لا يمكنه أن يكون رجلاً كما يجب .

إنّ هذا الرجل يخلق نوعاً من الدوّامة الدائرية في مجتمع النساء . نساء كثيرات يتصيّدن الرجل الذي يتصيّد كثيراً من النساء . وإنني لأتساءل باندهاش : لماذا ؟ ما الذي يجذبهن إلى مثل هذا الرجل ؟ وتخبرنا التجربة أنه ليس من الضروري أن يكون جذاباً شخصياً . وما يغري النساء بملاحقته في الغالب ليس مواهبه ، وإنما حقيقة أنه مُستهدفٌ من نساء أخريات . إنّ ما يشكّل قوة الجذب البادية عليه هو بالأحرى التنافس مع النساء الأخريات ، والانتصار عليهنّ ، أكثر منه انتزاع هذا الرجل .

ثمة نسخة نسوية من دون جوان تستمدّ إشباعها من الاستحواذ على كثير من الرجال . وغالباً ما تعبّر الحاجة إلى الانتزاع لدى النساء عن نفسها بالتمتّع بقدرتهنّ على جعل الرجال يرغبون بهنّ . وبالنسبة لنمط معين من النساء فإنّ انتزاع الكثيرين يسند الأنا المفتقر إلى الثقة بالنفس .

وعموماً ، فإنّ النساء لا يتخيّلن أنّ العلاقات الجنسية مع رجال كُثُر سوف تمنحهنّ الإشباع . ومعظم النساء يعتبرن العلاقات الجنسية غير الشرعية شيئاً يجلب العار أو شيئاً « وسخاً » على الأقل . وشعورهنّ أقلّ انقساماً بكثير من شعور الرجال . والتماسك الانفعالي إما أن يسعدهنّ أو يشقيهنّ . بيد أنهنّ يملن إلى توحيد متطلبات الحنان مع متطلبات الحاجات الجنسية ، هذه الحاجات التي لا تستيقظ في الغالب إلاّ بعد اهتمام طويل وشديد برجل مهتم بهنّ أيضاً[1] . ولا شك أنّ استيهاماتهنّ ليست خلواً من نفس الفضول الذي يشعر به الرجال ، وهي تدور حول أفكار مثل : «

---

1 ـ يبدو أن الكثير من السناء هُنَّ مخلصات رغماً عنهنّ ، ذلك أن شيئاً ما يمنعهنّ من الخيانة حتى حين لا يكون لديهنّ أي تردد واع على الإطلاق . ولقد قررت امرأة فتيّة ، حانقة من قسوة زوجها ، أن تستسلم لعروض أحد المعجبين . ذهبت إلى شقته ، ولكن بينما هي تصعد الدرج اكتشفت أنها قد حاضت .

ماذا لو أنه كان يحبني ؟ » . وكثير من الفتيات يغفين وابتسامة سعيدة ترتسم على وجوههنّ لمثل هذه الاستيهامات ،دون أي أثر للتهيج الجنسي الواعي .

ولقد التقيت في جلسات التحليل النفسي بنوع خاص من الفضول في الاستيهامات النسوية ، وهو فضول يعبّر عنه السؤال : « ماذا لو أنّ لديّ أطفالاً من رجال مختلفين ؟ » . والإلحاح السيكولوجي في مثل هذه الاستيهامات ، مهما يكن ، ليس إلحاحاً على العلاقات الجنسية غير الشرعية . فالاهتمام مركّز هنا على مظهر وشخصية الأولاد المتخيَّلين أكثر منه على الرجال أنفسهم . وثمة جملة فرنسية تقول : **«Faut de mieux on couche avec sa femme»**(*) ، ولكن النسخة النسوية لهذه الجملة من الصعب تصوّرها . ويمكن القول عموماً أنّ الحاجة إلى تغيير الموضوعات الجنسية هي أقلّ تطوراً لدى النساء منها لدى الرجال . وفيما عدا اختيارهنّ للقبعات ، فإنّ أذواق معظم النساء هي أذواق حذرة ومحافظة .

وحتى الرجال الذين يمارسون العلاقات الجنسية غير الشرعية يتوصلون في النهاية إلى نتيجة مفادها أنّ العلاقات الطارئة الكثيرة مع النساء ليست مُشبِعَةً . وغالباً ما يفكّرون أنّ « الأكثر هو الأحزن » . بل ومن الممكن أن يشعر الرجال أنهم مشبعون جنسّياً ومع ذلك تبقى لديهم رغبة وحنين للعاطفة التي لا يمكن تسكينها بالإرضاء الجسدي . وإذا ما تقصّينا سبب عدم الإشباع لدى هذا الرجل ،فسوف نكتشف نزاعاً في داخله ، وافتقاراً إلى الثقة بالنفس . ويتلقّى الباحث انطباعاً مفاده أنّ الرغبة بالسيطرة على هذا السخط الداخلي غالباً ما تجعل الرجال يطلقون العنان لأنفسهم في علاقات جنسية غير شرعية . وثمة ضرب محدّد من المأزق يجابه اليوم كثيراً من الشباب .فهم يشعرون أنّ العلاقات الجنسية العابرة مع عديد من الفتيات لا تشبع حاجتهم إلى الرفقة ، ولكنهم يخشون التخلّي عن حريتهم بتقييد أنفسهم إلى امرأة

---

* ـ « من المفضّل ألاّ يكتفي المرءَ بالنوم مع زوجته» بالفرنسية في النص الأصلي .

واحدة . إنّ الحساب الغريب الذي يحكم علاقة عدد هائل من الشباب مع النساء لم تتمّ صياغته في أي مكان آخر أفضل مما في الجملة الكشّافة للكاتب الفييني ، إلفرد بولغار : « الكثير قليل جداً ، الواحد جدّكثير » .

سيكولوجيا العلاقات الجنسية

عندما سُئل الدكتور جونسون ما هي أعظم الفضائل ، أجاب دون تردد أنها الشجاعة . وحين سأله بوزويل لماذا ، قال : « لأنه ، ياسيدي ، دون شجاعة ، لن يكون لدى المرء سوى إمكانية ضئيلة لممارسة الفضائل الأخرى » . ولقد كبح هذا الإفتقار إلى الشجاعة السيكولوجيين والمحللين النفسانيين عن طرح بعض الأسئلة الخطيرة ، والتي يمكن لأجوبتها أن تزيد ثقافتنا حيال طور أساسي من أطوار الوضع البشري اليوم .

أما من جهتي فلم أطرح الأسئلة التالية انطلاقاً من أية رغبة زائفة في مناقشتها ، فقد نجمت بالضرورة عن الفصول السابقة . ولا حاجة بي للقول أنّ ما من سؤال منها قد تمّ طرحه بروح العبث أو قلّة الاحترام . بل إنّ خطورة الوضع الذي تنبثق منه تكاد تكون مأساوية . وليس في نيّتي أن أجري استبياناً في الحب أو الجنس ، ولا أن أسعى خلف معطيات وثيقة الصلة بالموضوع أو خارجة عنه ، وإنما السعي خلف الحقيقة المستترة .

نحن ندلف هنا إلى منطقة يخشى الرجال والملائكة أنْ يطؤوها . وثمة مؤامرة مكشوفة لتجنّب هذه الأسئلة الجوهرية . ولقد أضحى البحث الحرّ والنقدي أمراً ضرورياً ، حتى ولو كانت الإجابات التي نحصل عليها واهية الارتباط بالحقيقة . وبعض الأشياء لا تُقال ، لكن بعضها لا بدّ من قوله ، رغم أنه من الصعب حتى التفكير به .

إليكم السؤال الأول : هل العلاقات الجنسية علاقات شخصية ؟

إنّ في هذا السؤال شيئاً يفوق ما تراه عين توم مختلس النظر(*)Peeping Tom . ولعلّ من المستحسن أن نشرح ما يعنيه . إنّ العلاقات الجنسية هي ، بالطبع ، علاقات بين أشخاص ، ولكنّ ذلك لا يقتضي ضمناً إنها علاقات شخصية . فهذه العلاقات تتجلّى في عناق جسدين ، ولكنها لا تعبّر بالضرورة عن علاقة انفعالية دائمة أو حتى عابرة بين شخصين . واسمحوا لي أن ألجأ إلى مقارنة : قبل أن ترتفع الستارة عن مسرحية ، يقرأ المشاهد قائمة بأسماء شخصياتها . ولعلّها تكون قائمة بأسماء أفراد عائلة ــ السيدة سميث ، السيد سميث ، وابنتهما الآنسة سميث . وكان يُطلَق على هذه الشخصيات في الأزمنة السابقة وفي اللغة اللاتينية اسم «dramatis Personae» . فهل هذه الشخصيات أشخاص واقعيون ؟ إنّ المشاهد لا يستطيع معرفة ذلك قبل أن يكون قد شاهد المسرحية . فلعلّهم مجرد هيئات دون حياة ودون فردية . وبقدر ما يتقدّم العرض المسرحي ، فإنهم يكونون أشخاصاً بحقّ ؛ أي ممثلين يؤدّون أدوار السيدة، والسيد ، والآنسة سميث ؛ ولكن المشاهد حين يصغي وينظر إليهم على الخشبة ، لعلّه لا يميّزهم ككائنات بشرية . فهم ليسوا من لحم وعظم ، وإنما من ورق وحبر . وحتى الربّ نفسه لا يميّزهم كبشر ؛ ووحده ملاك الرحمة في شكل نقدٍ ودود يمكنه ذلك . ونحن لا ننسى أنّ الكلمة اللاتينيةPersonareتعني في الأصل « التكلّم من خلال قناع » .

يمكن لشخصين أن يقيما علاقات جنسية ، ولكنهما ليسا بالضرورة شخصين بالمعنى الذي نعطيه للكلمة . ومن الممكن ـ وهذا ما يحدث كل يوم وكل ليلة ـ أن تقوم علاقات جنسية بين فردين لا يعرف أحدهما الآخر . وكأنّ الحدث مجرد فاصل في حفل تنكري ، لم يكن خلاله أيّ منهما دون قناع . جسدان يتّحدان وينفصلان ، ولا شيء آخر . وهكذا فإنّ السؤال عمّا إذا كانت مثل هذه العلاقة شخصية ليس سؤالاً خطيراً

(*) ـ اسم يطلق على كل من يسترق النظر إلى قوم في خلوة . والمقصود به هنا النظرة السطحية والسريعة من الخارج .

وحسب ، وإنما مفعم بالمعنى أيضاً . وهو سؤال يصعب توجيهه إلى المحللين النفسانيين . فتلك الأدمغة المتفوقة سوف تجيب أنّ ما يوحّد الشخصين هو الليبيدو . لكنّ الليبيدو يعني طاقة الدافع الجنسي ، والطاقة الجنسية الخام ليس لها طابع شخصي . إنها قدرة تعمل عملها في كل كائن بشري وتُثار من قبل كائن بشري آخر . وهي قد تفسّر ما الذي يجعل الرجال يركضون ، ولكنها لا تفسّر ما الذي يجعلهم يركضون نحو هذه المرأة بعينها . فمن أجل جعل الاتحاد الجنسي شيئاً شخصياً ثمة حاجة لما هو أكثر من الليبيدو . ولقد قدّم شنيتزلر في حوارياته السوداوية Hands Around ، أحاديث متخيّلة لكثير من الثنائيات الفردية ومن كل مستويات المجتمع قبل وبعد الاتصال الجنسي . وثمة واحدة من هذه الحواريات واقعية على نحو ملفتٍ للنظر . جندي يأخذ خادمة ، في يوم عطلتها ، إلى براتر ، وهي مركز رائع في فيينا ، ومن ثم ـ والليلة مظلمة ـ إلى المروج خلف براتر . وحين يضطجعان تقول الفتاة : « لكني ، يافرانز ، لا أستطيع أن أرى وجهك على الاطلاق » . ويردّ الجندي المتهيج جنسياً : « وجهي ـ اللعنة » . هنا الدافع الجنسي الخام الذي لا تهمّه الفردية individuality بينما تعني له الأجزاء الخصوصية كلّ شيء . هنا الجنس في شكله الفجّ ، ليس غير مختلط مع الغرام وحسب ، بل ومنفصل عنه بحدّة ومتعارض معه .

وفي الحب ، يصبح الشخص مركز الكون ؛ أما هنا فيصبح مركز الجسد الشيء الوحيد الأساسي في شخص . والغُفْلية anonymity تتعارض مع الشخصية Personality . والجنس الفج يعني الحافة الحادة لحافز يتطلّب لمسة حيوانية ، كائناً بشرياً ، بتنورةٍ أو ببنطالٍ أو بدونهما ، وليس شخصاً محدداً . قد تكون فتاة معينة أو أخرى . فالدافع الجنسي لا شخصي Impersonal لأنّ الجنس لا يهيء ضجعاء غرباء وحسب بل هو يهيّء ضجعاء من الغرباء أيضاً . فالموضوع يمكن تغييره في الجنس . أما في الحب فالموضوع لا يقبل التبديل . فكل ما هنالك يعود إليه . ومن المؤذي أن نستر الجنس بالقيم الزائفة . فالنظر إليه على نحو غير واقعي هو نظر عديم النفع ، بل وضارّ .

ليس بمقدور السيكولوجيا المعاصرة أن تقنعنا أنّ الجنس هو جوهر الحب وأنّ

الحب شكل ناصل .ومُنَقّى من الجنس . وهذا الإعراض من قبلنا عن قبول ذلك ليس له أية علاقة بتقييم كلا الشيئين . وما ننبذه ليس وجهة النظر المادية بل صياغتها الزائفة . فما كانت تسمّيه جدّاتنا شهوانياً أو جسدياً ، وكان ذلك مسلّياً ، ها نحن ندعوه حباً ، وذلك مدعاة للسخرية . إنّ اضطجاع اثنين في الفراش لا يعني قرب أحدهما من الآخر إلّا بالمعنى الجسدي . وها نحن نقول : « لقد أحبَّ أحدهما الآخر » ، عندما نقصد أنهما باشرا بإقامة علاقات جنسية أحدهما مع الآخر . والجنس « شرير » قليلاً شأنه شأن الجوع أو حاجة الإطراح ، ولا يمكن لتفكير بالغ الفجاجة أن يخلط برناجماً للعلاقات الجنسية غير الشرعية الخالية من الانفعال والميكانيكية مع ثورة . إنّ دون جوان هو المثل الأعلى لولد المدرسة الثانوية . والشبيبة تصنع جلبة عظيمة حول الجنس ، لكنّ الجنس الخام هو في الواقع لعبة لا تستحق كل هذا الجهد المبذول تجاهها . وإنّ للجنس أثراً مسوّياً . فالشخص المنفلت لا يهمّه من هو الموضوع طالما ينال ارتياحاً . وممارسته هي تقريباً عملية صحيّة . ولقد قال الملك الفرنسي لويس الخامس عشر لخادمه ليفيل ، والذي كان يتدبّر النساء لسيده : « ليس مهماً من تكون ، ولكن خذها أولاً إلى الحمام وإلى طبيب الأسنان » .

إنّ قلّة من النساء هي التي تقبل هذا التقسيم أو الفصل بين الجنس والحب في علاقتهنّ بالرجال . فتهيّج النساء ليس سهل التحوّل والتنقّل مثل تهيّج الرجال . وهنّ أقلّ ميلاً لاعتبار شريكهنّ مجرد أداة جنسية ، فضلاً عن حساسيتهنّ تجاه غُفلية الجنسية الذكرية ، والتي لا تريد الشخص في الغالب بل الأنثى ، شكلها وقوامها ، أطرافها وكاحليها . وعلى أية حال ، فإنّ عدد النساء اللواتي ينظرن إلى هذا الفصل على نحو واقعي بالنسبة لهنّ ، فضلاً عنه بالنسبة للرجال ، هو الآن عدد أكبر منه في السابق . ولقد قالت لي إحدى المريضات : « أريده كرجل ، ولا أريده بحدّ ذاته » .

تشعر معظم النساء أنّ « الحبّ اللا شخصي » - وهي عبارة ملائمة وقعتُ عليها في كتابٍ نُشرَ مؤخراً - هو حبّ مبخّس . فهنّ يفرقّن بين الطابع اللا شخصي للجنس والطبيعة الشخصية للعاطفة ، ليس لدى الرجال وحسب بل لديهنّ أنفسهنّ أيضاً .

وهنّ يشعرن في الاتصال الجنسي مع رجل لا يحببنه أنهنّ أكثر وحدةً مما لو كنّ وحيدات . وإليكم ما قالته إحداهنّ عن عاشقها : « ليس صديقاً لي . إنني أتمتّع به في الفراش وحسب . جسدي يقول نعم ، لكنّ عقلي يقول لا . أكرهه وأكره نفسي لذلك . أريد أن أجعله يشعر بالصّغار . يجب أن يشعر كما الكلب » . وثمة نادرة مشهورة عن امرأة رفضت في اليوم التالي أن تتعرّف على الرجل الذي نامت معه في الليلة السابقة . وهي تفسّر ذلك بأنه لم يكن قد قُدِّم إليها رسمياً . ومن المفترض ، على أية حال ، أنّ نوعاً من الإسقاط هو شغّال في هذه القصة : اللا شخصية في العلاقات الجنسية هي بالأحرى خاصية ذكرية . إنّ الدافع الجنسي مثله مثل مارد جبّار أعمى يبحث ، مثل السجين ، عن مخرج . وشهوة الإنتزاع ، والعاطفة اللاحقة ، سوف تقوده إلى الباب . وما من رجل ترعرع في ثقافتنا يمكنه أن ينسى كلياً أنه عانى من الحاجة الجنسية إبّان سنوات نضجه وبعدها في الغالب . ولكن ما من رجل ينكر أنّ إشباع الرغبة الجنسية الخام هو مصدر للمتعة فقير نسبياً ، مجرد إرضاء ميكانيكي للحاجة . إنّ الشباب ليشعرون باندفاع الدم الحار ويتعذّبون لذلك . وثمة وقت في حياة كل شاب لا يمكنه التفكير فيه بالمرأة إلاّ بصيغة الجمع .

فلنعد إلى سؤالنا : **هل العلاقات الجنسية علاقات شخصية ؟** ليس ثمة جواب عام ممكن . فالعلاقات الجنسية قد تكون شخصية أو لا شخصية . ومن الممكن أن تغيّر طابعها ، حتى بالنسبة للشخص ذاته . ويمكن لزوجين أن يواصلا علاقاتهما الجنسية مع أنّ أحدهما متباعد عن الآخر تباعد الكواكب . « وما الحب سوى القُبل التي نطبعها ونتلقّاها ؟ » . إنّ الحب ، في الحقيقة ، هو أكثر من ذلك ، أو هو شيء آخر على الأقلّ ، لأنّ القُبَل أيضاً يمكن أن يكون لها طابع لا شخصي . وفي عودةٍ إلى لبّ الموضوع ، فإنّ الجواب على هذه الإشكالية هو أنّ العلاقات الجنسية ، مأخوذة على هذا النحو ، ليست علاقات شخصية ، ولكنها يمكن أن تكون، وربما يجب أن تكون ، ولكن ليس بالضرورة أن يحصل ذلك .

ثمة سؤال ثانٍ ، ليس أقلّ إدهاشاً ، وهو ، بمعنى ما ، نسخة من السؤال

الأول : هل العلاقات الجنسية هي علاقات جنسية وحسب ؟ وسؤال ثالث مرتبط صميمياً مع السؤال الثاني : هل العلاقات الجنسية هي علاقات ودّية ؟ ولا بدّ من فهم هذين السؤالين أيضاً بمثابتهما استفساراً عمّا إذا كان يمكن الادعاء أنّ هذه الخاصية متضمّنة في صلب هذه العلاقات وعمّا إذا كانت ملازمة لها على الدوام . ويمكن الإجابة على السؤال بسهولة من قبل القارىء الذي قبِلَ أطروحة هذا الكتاب . فعندما يكون الأشخاص المعنيون في حالة حب ، لا تكون العلاقات الجنسية محض علاقات جنسية ؛ فهي تعبيرات عن الحنان أيضاً ، عن الشراكة الأشدّ حيمية . ونحن نعلم أيضاً أنّ بضعاً من نزوعات الأنا تدخل على نحو غير مرئي إلى التجربة الكليّة . والحب بحدّ ذاته ينتمي إلى هذه المجموعة من دوافع الأنا التي لا تربطها بالدافع الجنسي صلة قرابة أو نَسب . كما أنّ هنالك أيضاً إرضاءات لا جنسية في العلاقات الجنسية . ومن السهل ملاحظة هذه الإرضاءات لدى الرجال أكثر منها لدى النساء ، ليس لأن المرأة « لا تفشي سرّها » ، كما قال كانط ذات مرة ، وحسب ، بل لأنّ هذه الإشباعات الأخرى هي أشدّ وضوحاً لدى الرجال بكثير . فالجنس لديهم هو مسألة هيبة Prestige أيضاً . ليس مجرد فرصة لإزالة توتر جنسي ، بل فرصة أيضاً لإثبات رجولتهم ، وقوتهم . ليس مجرد إشباع لحافز فيزيائي ، بل هو أيضاً علّة إشباع ذاتي انفعالي . وهكذا يختلط مع الإرضاء الجنسي شعور بالإنجاز بل وبالانتصار أحياناً ، ويتشابك كلا الانفعالين على هذا النحو بحيث يصعب التمييز بينهما في بعض الأحيان . وكثير من الرجال يشعرون بالشرف وبالمجد في هذا الإثبات للذات أكثر مما يشعرون بهما في الإشباع الجنسي بحدّ ذاته . ويتّضح هكذا أنّ هذا هو الميدان الذي يمكن للرجل أن يثبت فيه أنه الأقوى .

لكنّ هذه المفخرة تتعالى على ما هو فيزيائي ، وتنفذ إلى النطاق الذهني والروحي . وبهذا المعنى يكون طموح الرجل وثيق الصلة بعاطفته تجاه موضوع الحب . وحتى حنانه يكون مشبوباً بهذه الخاصية الخفية ، ومتشرّباً بهذا العنصر الغريب : « كيف استطعتُ أن أحبّك ، ياعزيزتي ، كل هذا الحب ! إنني أحبك أكثر من الشرف » . ما من امرأة تقول هذا . بل وتمضي الصلة الخفية بين الجنس والطموح

بعيداً جداً لدى الرجال ، بحيث لا تتحدّد القدرة الجنسية لدى كثير منهم بوجود الثقة بالنفس أو غيابها وحسب ، بل إنّ القدرة الجنسية تؤثر على الثقة بالنفس أيضاً . ولقد أتيحت لي ملاحظة عدد كبير من الرجال ممن استعادوا ثقتهم بأنفسهم بعد الاتصال الجنسي ، وقبل ذلك كان قد أصابهم الهمود . وآخرين كذلك ممن كانوا يرغبون بالاتصال الجنسي لأنهم يشعرون بالهمود ، فهم يعتقدون أنه يساعدهم على النجاة منه . ويبدو أنهم كانوا يستمدون منه إثباتاً لذواتهم ، وإسناداً لأناهم . وأحد الرجال كان يشعر أنه مدفوع لإقامة علاقات جنسية مع زوجته (التي انفصل عنها بسبب عدم الانسجام) كلما شعر بعدم الرضا عن النفس بخصوص العمل أو أي سبب آخر . وكان عليه أن يعوّض إحساسه بالفشل بهذه الطريقة ، والتي كانت تمنحه ليس العزاء وحسب بل وشعوراً بالقوة أيضاً . والغريب في الأمر أنه كان يحصل على الأثر ذاته تقريباً عن طريق الاستمناء باستيهامات سادية ؛ وهكذا كان يتغلّب على شعوره بانعدام الأمن .

يبدو أيضاً أنّ إرادة القوة ، والهيمنة ، تكتمل في الفعل الجنسي[1] . واللذة فيه ليست لذة جنسية فقط . فالافتخار بانتزاع المرأة ، والانتصار العسير الذي ينطوي عليه القيام بما هو محظور يمكن أن يكون لهما حصّة فيه أيضاً . ولقد تذكّر أحد المرضى على نحوٍ دقيق شعوره بالذهول والمختلط مع هذه الثقة المستعادة بالنفس بعد أن كان قد

1 ـ إنّ شعور المرء بالعار لدى اكتشاف أنه عنين هو أكثر ارتباطاً بهذه القوة منه بالحافز الجنسي ، رغم أنه من الواضح أنّ حقل الفعل هو الحقل الجنسي . وليس مصادفةً أنّ كلمة عنةimpotenceليست مقصورة على الجنس وحده وأنها تعني الافتقار إلى القدرة ، والافتقار إلى وسائل تحقيق غاية ما . وعندما يكتشف رجل ، وهو في الفراش مع امرأة ، أنه عنين ، فإنه يشعر بالعار بسبب غياب « الرجولة » وكأنه مفتقر للشجاعة والعدوانية ، وكأنه حَمَلٌ في إهاب ذئب . وهو العار ذاته الذي يشعر به شخص حين يقطع على نفسه وعداًلا يستطيع وفاءه .

خاض تجربته الجنسية الأولى . لقد ارتبك إذْ وجد نفسه يفكّر : « جي ، يمكنك أن تفعل ذلك للنساء ! » .

وما هو طموحٌ بالنسبة للرجل هو شيء فارغ بالنسبة لامرأة . إنّ الافتخار بكونها مرغوبةً ، وتعني الكثير لرجل ، وتشغل مركز أمانيه ، وتراه تحت سلطتها كليةً هو أمر يمتع المرأة دون شك أكثر من اللذة الجنسية المحضة . فهو يمنحها شعوراً جديداً بالجدارة الشخصية ، وإحساساً جديداً بقيمتها . وكثير من النساء يتمتعن بسلطتهنّ على الرجال لأنها تجعلهنّ يشعرن للمرة الأولى أنهنّ أنداد للرجل . أن تكون مرغوباً يعني أن تكون جذاباً . فالجنس بالنسبة لهنّ ، ليس إشباعاً فيزيائياً وحسب ، بل وأيضاً نَقْف لتفاهتهنّ بطرف الاصبع . والبنات غالباً ما يختبرن جاذبيتهنّ ؛ إنهنّ فضوليات لمعرفة أية مشاعر يمكن لهنّ إيقاظها لدى الرجال . وحاجتهنّ للانتزاع تأخذ هذا الشكل في غالبية الحالات . حتى أنهنّ يستخدمن الجنس في بعض الأحيان إذْ يأملن بلوغ هذا الهدف من خلاله[1] . ولا تكلّ النساء أبداً من سماع كلمة « أحبك » ، لكنهنّ لا يأخذن القول على أنه يعني « أريدكِ جنسياً » . فباعتقادهنّ أنه يمكن أن يعني العكس تقريباً ، أي « لا أريدكِ جنسياً فقط » . وهذا التأكيد على كونهنّ الموضوع الوحيد للعاطفة غالباً ما يتمّ التعبير عنه من قبل النساء اللواتي يردن أن تكون حتى تعابير الإطراء التي تُبذَل لهنّ جديدةً وموحيةً بمواهبهنّ الشخصية (« أنت تقول ذلك لكل الفتيات ») .

ثمة نزوع واحد غريب على النساء ، ولكن ليس على الرجال . وأنا أشير هنا إلى استخدام العلاقات الجنسية كوسيلة لتبخيس الموضوع . لستُ أعني أنَّ النساء لا يرغبن

---

1 ـ أفضت إليّ فتاة بأنها كانت تؤمن على مدى سنوات عدّة أنّ الرجال عموماً لا يستخدمن النساء إلّا باعتبارهن شركاء جنسيين . وشكّت في أنّ الرجال يريدون رفقة النساء لأسباب أخرى . وفي اعتقادها أنّ الرجال هم أكثر اكتفاءً بذواتهم وأكثر استقلالاً بكثير من النساء . ولقد عبّرت هكذا عن وجهة نظر تحملها نساء كثيرات سراً ـ بالضدّ من آمالهنّ وأمانيهنّ .

أحياناً بإذلال الرجال الذين يُقمنَ معهم علاقات جنسية ، وإنما أنَّ النساء يستخدمن أسلحة أخرى . فهنّ يُبدين عناد الضعيف ؛ ويثأرن بجعل الرجال يفشلون . ونادراً ما يشعرن أنّ الفعل الجنسي بحدّ ذاته يمكنه إنزال الإذلال والتبخيس بالرجال . ولقد مضت أكثر من أربعمئة سنة منذ أن كتب بنفيتو سيلليني في مذكراته عن واحدة من موديلاته : « لقد اضطجعتُ معها لأناكدها وأناكد عائلتها » . أما المرأة فلا تستخدم مثل هذه الوسيلة للثأر . ويمكنها أن تشعر أنّ العلاقات الجنسية مُذلّة لها وحدها وحسب إذا ما استسلمت دون إرادة منها ؛ لكنها لا تستطيع أن تعتبر هذه العلاقات مبخّسة للرجل . ولا تعني وجهة النظر هذه أنّ النساء قد لا يشعرن بالعداء تجاه الرجال ؛ ولكنها تعني فقط أنّ ثأرهنّ لا يتخذ شكل الإغواء .

يمكن للحيوان الذكر استعمال المرأة جنسياً دون الشعور بأية عاطفة ، ولكن دون عداء أيضاً . أما المرأة التي تُستعمَل على هذا النحو فسوف تشعر بالعداء دوماً لأنها تشعر بالإيذاء والإنجراح في احترامها لذاتها . بل إنّ الأنثى من الجنس البشري والمُنتهكة على هذا النحو لهي ألدُّ من الذكر بكثير . وثمة إمكانية أخرى أقرب إلى متناول المرأة بينما هي بعيدة كل البعد عن مخيّلة الرجل ؛ أعني ، الاستسلام إلى عروض الرجل دون أسف . ويمكن لهذه الإمكانية أن تصبح واقعاً ، خاصة حين تغري امرأة رجلاً . فهي ، وقد مارست عليه سلطتها بأسلوب بالغ الغنج ، قد تتخلّص من الشعور بالإثم . وقد تشعر أنّ سلوكها السابق يُلزِمها بالاستسلام له ، ليس لأنها متهيّجة جنسياً ، بل لأنها تشعر بمسؤوليتها عن كونه هو متهيّجاً . وقلّة قليلة جداً من النساء هنّ اللواتي ينلن أي إشباع من مثل هذه العلاقات الجنسية « الغيرية » .

من المؤكد أنّ الأسف لا ينتمي إلى ميدان الحوافز الجنسية . بل هو ينبثق من تربة دوافع الأنا . وكذلك نزوع آخر - التعطش للثأر - والذي يحتّل مكانه بين الحاجات التي يمكن إشباعها في العلاقات الجنسية مع النساء . فالمرأة المنتهكة أو المهجورة يمكن أن ترحّب بعلاقات جنسية مع رجل آخر انتقاماً من العاشق السابق الذي غشّها أو أذلّها . وهي تتمنّى أن تغيظه ولو في استيهامها على الأقل .

ولقد تحدثنا سابقاً عن الدوز الذي تلعبه النزوعات المنحرفة في العلاقات الجنسية . فهي تقدّم للجنسية إرضاءات أنويّة مرَضية . وهكذا يعني التعذيب نفس ما تعنيه الملاطفة في هذه التخلّعاتdisliocationsالغريبة ؛ فالتمرّغ في الشرّ يمكنه أن يشبع النزوعات الجريئة . تتحول التربيتة إلى ضربة ، والقبلة إلى عضة ، والعناق إلى خنق . ويمكن للتبخيس أن يصبح شرطاً ضرورياً للمتعة الجنسية . كما يمكن في هذه الإسرافات إشباع شعور سرّي بالإثم ، فضلاً عن النزوات الجريئة . ولقد قال أحد الرجال ، أثناء التحليل النفساني : « إذا ما التقينا في قاع المدينة ، نكون في السماء السابعة » . وبينما الحب لا يهتمّ إنْ كانت الثمرة محرّمة أم لا ، فإنّ الانحراف يستسيغ الثمرة لأنها محرّمة . وفي الانحرافات ينال النزوع المتمرد المستتر إشباعه الخبيث[1] . وهكذا تكون الإجابة عن سؤالينا قد تمّت : العلاقات الجنسية ليست جنسية محضة ؛ فهي تُشْبعُ أيضاً دوافع الأنا ، كما أنها ليست ودّية بالضرورة .

وإليكم السؤال الرابع : **هل العلاقات الجنسية أنانية أم غيرية ؟**حين يُستخدم الشريك كأداة جنسية فقط ، تكون طبيعة الجنس أنانية صرفة بالطبع ، ولكن ماذا لو كان الشريك محبوباً ؟ إنّ الجنس دون عاطفة يولّد شعوراً بالوحدة ؛ أما الجنس متضافراً مع الحب فهو مصدر متعة مشتركة . فهو هنا لا يعمل على أن يبدو الجسدان ملتحمين

---

1 ـ ثمة إغراء غريب في تبخيس الذات الذي يعبّر عن نفسه في اختيار شريك جنسي أدنى أو في اختيار ممارسات جنسية يتمّ الشعور ، على نحو واعٍ أو لا واعٍ ، بأنها مُذِلّة . ويبدو أنّ الباعث الأساسي في هذه الحالات يكمن في تضافر الإشباع الجنسي مع الحاجة إلى عقاب الذات أو تحقيرها . ويتجلّى هذا الموقف في أفعال واستيهامات يكون فيها أيضاً للمكابدة الجريئة حصّة عظيمة . فالفرد الذي يعتبر ، في لا وعيه ، النشاط الجنسي شريراً أو محرّماً يتمتع من خلال خرقه التحريم أو الشرّ بجرأته القوية واستقلاله ، وبالإحساس بسيادته الخاصة ضد العوامل المقيِّدة أو الكافّة .

وحسب ، بل وتبدو النفسان متحدتين أيضاً . ليس ثمة هو وهي ، وإنما الواقع الانفعالي الذي لا يقبل القسمة لكائن واحد . إنّ المرأة التي قالت أثناء التحليل : « نام معي ، ولم أَقُم بأي دور في ذلك » ، من المستحيل أن تكون في حبّ مع الرجل . فالجنس يمكن له أن يترك أثنين وقد انفرد كل منهما بنفسه ، أما الحب فلا .

إنّ كون العلاقات الجنسية أنانية أم غيرية يتوقف كليةً على ما إذا كان الفعل الجنسي مترافقاً مع الحب أم لا . فإن تواجدت علاقات الجنس والحب سويةً ، كفّت الإشكالية عن الوجود ، ذلك أنّ متعة أحد الشريكين هي في الوقت ذاته لذّة للآخر . وهما أنانيان وغيريان . كلاهما أو لا أحد . وبدقة أشدّ : إنهما فوق مثل هذا التوصيف . ومنذ بضع سنوات خلت نشر طبيب هولندي ،يدعى ثيودورفان ديرفيلد ، بعض الكتب عن الحياة الجنسية أوصى فيها بتقييد جنسي للرجل ، واحترام بالغ اللطف للمرأة وتقدير دائم لها ولدورها المختلف في الاتصال الجنسي . وهذا الكاتب ليس وحيداً في هذه التوصية ، ذلك أنّ عدداً هائلاً غيره ألمحوا إلى أنّ المرأة تحتاج إلى تقدير عظيم في الفعل الجنسي ذاته .

مثل هذه التعليقات تخلّف في بعض الأحيان انطباعاً بأنّ المرأة ، لأنها امرأة ، تتمتّع بالجنس أقلّ كثيراً من تمتّع الرجل . بل وهنالك تقليد قديم مؤدّاه أنّ النساء خاضعات للاتصال الجنسي خضوع الضحايا كارهاتٍ ودون إرادة . إنها كذبة مبتذلة ، لكنّ ما هو أكثر أهمية أنها كذبة سيكولوجية . فالنساء ،في الواقع ، قادرات عموماً على نيل متعة في الجنس أعمق وأبقى من متعة الرجل . وحماسهنّ ، إذا ما كان كاملاً ، يبلغ لحظة « غياب » تقارب اللذة فيها حدّ الإغماء ، والإحساس بأنّ الأجراس جميعها قد بدأت تقرع . من الذي لفّق خرافة أنّ النساء غيريات في الجنس ، وأنهنّ لا يرغبن سوى بمنح الرجل لذّته ويستطعن التضحية إلى حدّ نكران متعتهنّ الخاصة ؟ من الذي اخترع عبارة « لو أنه فقط ينال إشباعه . . . » ؟ إنها حكاية خرافية ، ولكنها ليست حتى جميلة[1] .

---

1 ـ نساء كثيرات يخلطن إمناء الرجل مع الإشباع . لكنّ قذف السائل المنوي =

إنّ امرأة تحبّ وتثق في أنها محبوبة من جانب الرجل سوف تمنح له نفسها بكل كيانها . ولن يعرقلها ما يشعر به كثير من الرجال من شكّ في كفاءتهم تجاه المهمة . ولن تحتاج لأن تثبت لنفسها أنها سوف تقوم بوظيفتها جيداً ككائن جنسي . فالتحقّق من كونها محبوبة يجرف بعيداً كل الشكوك المتكوّنة في دماغها ، كما أنّ إشباعها ، الذي لا تعيقه المخاوف التي تُغير على الرجل ، يبلغ أعماق كينونتها ، الأمر الذي لا يحسّ به الرجال . واستسلامها ليس أقلّ جنسيةً لأنه أكثر من جنسي . أما إشباع الرجل ، من جهة أخرى ،فيمكن أن يبقى في المجال الجنسي .

إنّ من يكون غيرياً في الجنس ، وينكر على نفسه المتعة دوماً وعلى نحو واع ولا يفكر إلاّ بمنح اللذّة للشريك ، سوف لن يوّفر الإشباع لا لشريكه ولا لنفسه . وأناً

ليس له دوماً طابع الرعشة لدى الذكر . ويمكن للقذف أحياناً أن يترك الرجل غير مشبع أبداً وحافزه ناشطاً . ويمكن لضروب الكفّ الانفعالية ، والقلق ، والعداء أن تغيّر طابع الرعشة الذكرية من انفجاريتها المعتادة إلى إطلاق لطيف ، كما يمكن أن تحوّلها من تعبير درامي إلى آخر غنائي . ومثل هذا القذف اللاإرادي أو المبتسر لا يدلّ على ذروة المتعة الجنسية ، وإنما على هبوط مفاجىء . ولقد تمّ تجاهل ظاهرة الإمناء المبتسر حتى في أدبيات التحليل النفسي ، وغالباً ما أسيء فهمها . ومن الممكن مقارنة هذه الظاهرة على أفضل وجه بتلك الحالة التي يعرض فيها شخص ما على طفل قطعة كراميل في طرف عود ، تاركاً إياه يلعقها ، ثم يسحبها في لحظة يريد الطفل وضعها في فمه . إنّ « توقيت » القذف المبكر يخفي مقصداً لا واعياً . وهو يخلق انطباعاً بأنّ خدعة تُلعَب على المرأة ،حيث يتركها الرجل تتوقع الإشباع لكنها تُصاب بخيبة أمل . وإذا ما كان هذا هو الأثر المحقّق ، فلابد أنه واحد من بواعث الفعل اللاواعية ، فمهما تكن البواعث الفردية (النقمة على المرأة ، الشعور بالإثم ، الخ .) ، يجب أن لا يفوتنا أنّ هنالك أيضاً آثاراً سيكولوجية على الرجل . وهو يدرك ذلك بألم ، وغالباً ما يشعر بالعار . فهو حين يخدع المرأة يخدع نفسه أيضاً ، وغالباً على نحو أقسى .

لا أتحدث هنا عن الاهتمام والاحترام الضروريين بالطبع واللذين يجب بذلهما للمرأة باعتبارها كائناً بشرياً حراً ومكافئاً يتمتع بإرادته ورغباته الخاصة . فجسد المرأة هو جسدها بالطبع ، وما من عاشق أو زوج يمكنه التصرّف به ضدّ إرادتها .

إنني أتحدث عن الاهتمام المدروس والواعي بالمرأة كما لو أنها من نوع آخر ، راغب عن الجنس ، بينما البهيمة ، الرجل ، وحده الراغب فيه . ولكن أليس احترام المرأة والاهتمام بها علامة على الحب ؟ كلا ، فهما إذا تمّت ممارستهما منهجياً وتمّ التخطيط لهما حريٌ بهما أن يدلاّ على العكس . وعندما يكون احترام المرأة وتقديرها مفهومين ضمناً ، فلا ضرورة للتفكير بهما على نحوٍ واعٍ أثناء الاتصال الجنسي ، ذلك أنهما سيعبّران عن نفسيهما تلقائياً .

إنّ من حقّ النساء أن يشتبهنَ بالإحترام المفرط لضعفهنّ الجنسي وهشاشتهنّ . وهنّ يدركن بدهاء أنّ الاهتمام واللطف الزائدين اعتراف غير مباشر بعنّة الرجل . ويعلمن ، أو بالأحرى يحسسن ، أنّ مثل هذا الاهتمام الفائق ليس تعبيراً عن الحنان بل هو بديل له . وهنّ يشتبهن بالرجال « الغيريين » في الجنس . ويعلمن ، بحكمة مستمدّة من أجسادهنّ ، أنّ المرء في سعيه خلف لذّته الخاصة يقدّم لذّة كبيرة لشريكه الجنسي . وعندما تطرح النساء جانباً برقع الاحتشام ، يكنّ عادةً أكثر أمانة من الرجل حيال حاجاتهنّ الجنسية . شيء ما يهتف لهنّ أنّ التطلّع الدائم لإشباع الآخر الممكن يعني حرمانه من لذّته فضلاً عن لذّتكِ أنتِ . والنساء اللواتي يحتفظن بغرائزهنّ الطبيعية هنّ « أنانيات » في الجنس . ورغم أنّ هذه الاستنتاجات قد تنطوي على مفارقة ، إلاّ أنها صحيحة . وأقول ، دون أن أتجاهل الحدود الضرورية التي أشرت إليها ، أنّ من يرغب بإشباعه الحسي الخاص هو وحده من يمكنه أيضاً توفير الإشباع للآخر .

لقد نشأنا ، نحن الكائنات البشرية ، خلال حقبة مديدة من الزمن ، على الاحتفاظ باحترام واعٍ شديد بعضنا للبعض الآخر . وسوف يتحقق كل محلّل نفساني ذي تجربة طويلة من حقيقة أنّ الرجال الذين لا يحسبون إلاّ لإشباع زوجاتهم والمستعدين لإنكار إشباعهم الخاص ولفترة طويلة ، سوف ينتهي بهم الأمر إلى كره

زوجاتهم . وسوف يتأكّد هذا المحلل أيضاً أنّ النساء اللواتي يأخذن على عاتقهنّ الدور ذاته سوف يصبحن عدوانيات تجاه أزواجهنّ بصورة لا واعية على الأقلّ . فالممارسات غير العادية في الجنس والتي تؤدّى لمصلحة الشريك وحسب ، كالتأخير والإرجاء الواعيين للقذف ، والتي تستمر شهوراً عدة ، سوف تخلق عداءً وحقداً لا واعيين يتجليان ليس في الجنس وحده ، بل وفي علاقات الزوجين الأخرى أيضاً . فنحن لم ننشأ على أن نكون قادرين على التضحية بأنفسنا لفترة طويلة ، حتى من أجل من نحبّ . كما أنّ ادّخار الطعام والتطلّع إلى أكل الآخرين يمكنه غالباً أن يشحذ شهيتك لكنه لا يُشبع جوعك أبداً .

وحدها الأنانية المفهومة بوضوح في الجنس يمكنها أن تأتي للشريك بالإشباع إذا كان الشريك أنانياً أيضاً . فأن تنتظر الآخر أو الأخرى حتى يقذف يمكن أحياناً أن لا يكون ضاراً ، لكن هذا التأخير الواعي وخلال سياق طويل ينتقم لنفسه بايقاعه الاضطراب في العلاقات الانفعالية للشخصين المعنيين[1] . فمثل هذا التأجيل لا يمكن الصمود أمامه دون أذيّة سيكولوجية . والاتصال الجنسي عملية اجتماعية لا تكون مشبعة إلّا إذا نال كلا الشريكين حصته من الإرضاء . إنّ اللحن يكون ناشزاً أو منسجماً تبعاً لكون الأصوات ما تزال تكافح لبلوغ النغمة أو أنها قد بلغتها . وبالمثل فإنّ الرغبات الجنسية لدى اثنين والمعبّر عنها في الاتصال الجنسي تبلغ هدف الإشباع المشترك أو تخفق دونه مكافحةً من أجل هذه الغاية . وتؤمّن العاطفة المتبادلة هذا النوع من الإرضاء بالطريقة الأمثل ، ولو أنها ليست الطريقة الوحيدة . ويتعامل المحللون النفسانيون مع كثير من الرجال الذين يعانون من القذف المبتسر (الاسم التقني هو القذف

---

1 - إنّ الإرجاء المُفتَعَل في الإستهلال يحدّ من لذّة الرعشة ، وفي بعض الأحيان يُبطلها . والمحافظة على إرجاء مديد هو أحد إنجازات قوة الإرادة الذكرية ، ونقُل ، إنه نسخة جنسية لتمرين اليوغا . ولكن يبدو أنّ سرّ الجنس يتمثّل في أنّ الجنس يجب ألّا يكون بمثابة الواجب ، بل المتعة . وليس نافلًا تذكير الرجال العصريين أنّ بلوغ الرعشة يُفترض أن يكون لذّة .

المبكر(*)) ومع كثير من النساء الباردات جنسياً أو اللواتي لا يستطعن نيل الإشباع نظراً لأنّ استجابتهنّ تحصل متأخرة جداً . وكلما حلّلنا مثل هؤلاء الأفراد نجد عداءً خفياً ، وحسداً وروح ثار تجاه الشريك . فالجسد معاند وكاره لأنّ الروح معارضة لهذا الشريك . أما الحب فيؤالف بين الواحد والآخر ، ويجعل قلبين يخفقان بايقاع واحد . وليس صحيحاً أنّ « التواقت » ، والتزامن بي الجنس ، هو نتيجة للاهتمام والاحترام .

ليس من الممكن تحديد الوقت الصحيح بواسطة حيل ميكانيكية كتلك التي يصفها كثير من الأطباء واختصاصيي الجنس . وكل من يحاول بلوغ هذا الهدف بطريقة ميكانيكية محضة يمكنه في أفضل الأحوال أن يأمل بأن يصبح حِرَفياً ، ولكن ليس فناناً ، في الحب . ذلك أنّ على الشخص أن يكون متآلفاً انفعالياً ، وإلاّ ضاعت كل الجهود . فالدافع الجنسي يأخذ الأمور على محمل الجد ولا يحب المداخلات الزائدة عن طريق الحيل والألاعيب الماكرة . وفي ميادين الجنس ، كما في كثير من الميادين الأخرى ، الحقيقة هي : ليس ثمة تقنية ؛ ثمة صدق وحسب . ولدى كلا الشخصين ثمة مؤشر غير مرئي يقيس الوقت[1] . وإشباع الأول يقدّم مقياساً لإشباع الآخر . أما أنْ تلعب خارج الوقت فيعني ، جنسياً ، أنّ هنالك اضطراباً انفعالياً ، حتى ولو كان اضطراباً خفيفاً وحسب .

ليس صحيحاً أنّ الرجل يمكن أن يكون مُشبعاً تماماً حين يحقق ارتياحاً فيزيائياً بينما تبقى شريكته غير مشبعة . فمثل هذه الحالة لا يسري مفعولها إلاّ بالنسبة للرجل غير المثقف الذي لا ينشد سوى التخلّص من ضغط جنسي خام . أما بالنسبة لكل الرجال الآخرين ، فإشباع المرأة هو ضروري أيضاً لأنّ الإرضاء الجنسي بالنسبة لكليهما هو

---

* ـ ejaculatio praecox

1 ـ ليس لدى الأطفال والحيوانات إدراك للزمن . وكلما عدنا إلى شكل من الوجود شبيه بالحيواني ، فإنّ مرور الزمن يفقد معناه بالنسبة لنا . وإذا كان الإنسان يقيس الوقت في الاتصال الجنسي ، فإنه يعمل ضد تيار الطبيعة الذي يريد توجيهه عن طريق صعود وهبوط الحاجات الغريزية .

انفعالي فضلاً عن كونه فيزيائياً .

لعلّه مرّ زمن كان فيه الاعتقاد بأحادية جانب الإشباع الجنسي اعتقاداً صائباً ، وذلك حين كان الرجل رجل كهوف وكان الفعل الجنسي اغتصاباً سادياً . وحينئذٍ ما كان من الممكن وصف اللذة بأنها أنانية لأنّ الآخر ما كان مُعتَبَراً فرداً من الناحية السيكولوجية . كانت المرأة مجرد أداة جنسية . ويترك التحليل النفسي أحياناً لدينا انطباعاً بأننا بلغنا الآن الطرف المعاكس . فكثير من رجال اليوم ـ وعدد أكبر من النساء ـ مستعدون لإنكار إشباعهم الخاص إذا ما استطاعوا ضمان إرضاء الشريك . ولكن ليس بالإمكان وصف هذا الإنكار بأنه غيريّ بالمعنى الحقيقي ، لأنّ إشباع الشريك بمفرده لا يتمّ الشعور بأنه كامل . أما خارج هذه التضحية الدائمة بالنفس فتنمو الكراهية ، ببطء شديد ، ولكن على نحو مؤكد . والفرد الذي ينكر على نفسه الإشباع ينكره أيضاً على الآخر . ومن يأثم هكذا بحقّ نفسه قد يشعر أنه بالغ النبل واللطف ، لكنّ الطبيعة لا تحبّ الإعتداد بالنفس والاعتقاد بأننا أقوم من غيرنا في الجنس . وهي تعاقب أولئك الرجال والنساء الذين يتنصّلون من إرثهم الحيواني ، كما تعاقب من يغشّها بينما هو يزعم أنه يصدر عن أنبل البواعث .

التخييل في الجنس

لقد رأينا أنه عندما تفهم النفوس بعضها البعض الآخر ، فإنّ الأجساد تفهم بعضها أيضاً . وهكذا يعكس الاتصال الجنسي موقف شخصين ، أحدهما تجاه الآخر ، في أجمل ظلاله وتدرجاته الدقيقة . أما العوامل الميكانيكية فلا تقرّر ما إذا كان المحبّان متناغمين ، ومتوافقين جنسياً . فهذه المسألة لا تقرّرها الميكانيكا ، وإنما انفعالاتها ، والانفعالات ليست كلها واعية بالضرورة . وهذه القوى غير المرئية هي المحدِّدة للنّجاح أو الإخفاق في الجنس والحب . ويتجلّى جزء ـ بل الجزء الأكثر جوهرية ـ من هذه الانفعالات في التخييل ، في الأشكال الفردية للاستيهام الذي يتحكّم بالحياة الجنسية ، شريطة أن يكون مُثاراً بما يتعدى الضغط العضوي الخام . ولقد التقينا عامل الاستيهام من قبل في خلق مثال الأنا ، الذي يحلّ محلّه موضوع الحب لاحقاً . كما التقيناه ثانية عندما أشرنا إلى أنّ كل شخص يشكّل لذاته نوعاً من الهيئة المُتخيَّلة بمثابة شخص من الجنس الآخر .

تعْنى الفكرة الجديدة عن التخييل والتي أودّ أن أقدّمها بالخيال الفردي أيضاً . فمقارنة الدور الذي يلعبه الاستيهام في الجنس مع دوره في الجوع أو العطش تُظهِر الأهمية البالغة للتخييل بالنسبة للتهيّج الجنسي . وهذا الموضوع يستحق كتاباً بحدّ ذاته . وأنا أدعو بالتخييل الجنسي إجمالي الاستيهامات والصور البصرية المُتخيَّلة التي تثير عفوياً الرغبات الجنسية لدى الشخص . ولدى كثير من الناس يوقظ التخييل خليطاً من نزوات الجنس ، والعدوان ، والحنان . كما أنّ الحب يعمل في بعض الأحيان كقوة

مضادة في وجه تطور الصور الجنسية . وأعرف فتاة اعتادت أن تهيّج نفسها باللقطات الجنسية بحيث كانت تمارس الاستمناء كوسيلة للارتياح ، ولقد اشتكت هذه الفتاة أثناء التحليل النفساني : « إنّ التفكير بشارلي يفسِد عليَّ ذلك » . وعندما حاولت أن تستوهم استيهامات جنسية مع شارلي ، لم تُفلح ؛ أي ، لم تشعر أنها متهيّجة . لكنّ تخيّلها صورة زنجي يغتصبها على سطح منزل أيقظ لديها مشاعر جنسية ناشطة جداً . وبعد مرور بعض الوقت ، فقدت هذه الصورة الذهنية قوتها المهيّجة لأنها كلما استحضرتها ، كانت صورة المحبوب المنافسة تظهر وتعترض الشعور الجنسي . إنَّ حالة التبخيس المتّصل بالجنس ، والمألوفة كثيراً في ثقافتنا ،هي المسؤولة عن هذا الانشقاق في التخييل . وقد قالت الفتاة نفسها ، بعد تقبيل جندي بالكاد تعرفه : « لقد زعمتُ لنفسي أنه كان شارلي » . فقوة التخييل تعمل هنا بطريقة يتمّ فيها استبدال شخص معين بآخر . وفي هذا الاستبدال أمكن للفتاة أن تتمتّع بالقبلة للحظة ، ولكنها من ثمّ فكرت : « إنّ ذلك ليس حقيقياً ما لم يأتِ عفوياً »،وخبا تهيّجها . ومثل لقطات الفيلم السينمائي ، فإن الصور Imagesيمكن تسريعها أو تبطيئها بل ويمكن إيقافها في مراحل مختلفة ؛ كإيقافها ، مثلاً ، على إمرأة تتعرّى . وبالطبع ، فإنه ليس بمقدورنا هنا مناقشة العديد من خصائص التخييل الجنسي مثل الثبات والتغيّر ، وتراكب المشاهد والأشخاص ، وزيادة ونقصان قوة التهيّج ، والدوام والتنوّع .

غالباً جداً ما يبزّ التخييل الجنسي الواقع بدرجة كبيرة ، بحيث تجعل قوةُ التهيّج التي في الصورة الحالة الواقعيةَ مخيّبة . (« إمضِ ودعني أحلم بك ») . لا بدّ أنّ مقارنةً مثل هذه بين الواقع غير المُشبع والتخييل الفتّان هي التي أملت على الكاتب الفييني كارل كراوس تعليقه الساخر : إنّ الإتصال الجنسي بديل بائس للعادة السريّة . وغالباً ما يجرّب الشباب صوراً مختلفة إلى أن يجدوا الصورة الأكثر إشباعاً . وفي الواقع ، فإن السيكولوجيين يتوصلون إلى الفهم الأوضح للتخييل الجنسي من التحليل النفسي لاستيهامات الاستمناء . وإختيار الموضوع في الاستيهامات ليس اختياراً واعياً دوماً . ففي بعض الأحيان تظهر صور لم يتمّ استدعاؤها . ولقد قالت فتاة أثناء التحليل ، بينما

هي تفكر في هذه الاستيهامات : « من سيكون هذه الليلة ؟ » .

يمكن لنا أن نكشف في تخييل شخص ما عن الظروف الفردية لحبّه وعن اللقطات النوعية التي توقظ لديه الرغبات الجنسية . ويمكن أن ندرك أية أهمية هي أهمية التخييل الفردي إذا ما أخذنا بالحسبان أنه يحدّد طابع حياة الشخص الحبية في تعبيراتها الجنسية والحنانية . وعندما يقع شخصان في حب بعضهما ، فذلك يعني أن تخييلين قد توافقا . وها أنا أسارع وأضيف أن الشخص لا يدرك التخييل الذي يخلقه أو الذي يُخْلَق لديه إلّا إلى حدٍّ معين . بينما يبقى جزء عظيم منه لا واعياً عموماً .

يمكن للشريك أن يشعر بوجود الأثر السيكولوجي للتخييل الجنسي ، مهما يكن هذا الأثر ، على نحو لا واع . ولقد أحسّت إحدى المريضات أنّ لدى زوجها صور منحرفة عند الإتصال الجنسي واضطربت بشدة لمعرفتها ذلك بحيث لم يعد بمقدورها أن تمنح له نفسها بحماس . وسألت إمرأة أخرى زوجها : « هل أنت هنا حقاً ؟ » . لقد شعرت أنّ لديه استيهامات أخرى بينما كان يعانقها . ومن جهة أخرى ،فإن الصور اللاواعية التي يكمل بعضها البعض الآخر يمكن أن تعزّز الإشباع الجنسي لكلا الشريكين . وثمة سمات ملحوظة أخرى للتخييل : فالمواقف الجنسية التي لا تؤدي إلى الإرضاء يمكن مواصلتها في الاستيهام إلى أن تنتهي بالإشباع . كما أن الصور تكون خاضعة للاضطرابات الانفعالية التي تخضع لها التجارب العملية نفسها : كانت إمرأة شابة تتهيّج كلما تذكرت أنّ حبيبها أطلق عليها أسماء دلع ولاطفها ، لكنها « تتجمّد » كلما تذكرت تعليقاً جرح كبرياءها .

إننا نستمد معرفة أفضل بدور التخييل إذا حاولنا تحديد العملية الانفعالية الأساسية في الإتحاد الصميمي الوثيق بين إثنين متحابّين . قلنا سابقاً أنّ اللّذة في هذا الإتحاد ليست أنانية ولا غيرية ، أو أنها أنانية بمعنى جديد ؛ أعني ، أنّ الذات تتوسّع أو تتضخّم ، وأنها تستدمج شخص موضوع الحب كجزء منها ، كما لو أنّ شخصين تمّ جعلهما شخصاً واحداً . إنّ هذا ليبدو صوفياً Mysticalأو ، إنْ شئتم ، شعرياً ، ولكن يمكن ترجمته إلى لغة سيكولوجية علمية وحتى إلى مصطلحية إغريقية أو لاتينية طنّانة ،

إن كان ذلك ضرورياً . وبعبارة واضحة ، إن الرجل أو المرأة في حالة الحب يشعر أو تشعر بالمتعة الجنسية للشريك وكأنها المتعة الخاصة من خلال اضطلاع لا واعٍ بدور الآخر . أقصد أن الرجل يختبر في تخييله بصورة لا واعية ما تشعر به المرأة في التهيّج والإشباع المتزايدين ، وأنّ المرأة تماهي إحساساتها وانفعالاتها الخاصة مع تلك التي للرجل . وتحدث عملية تبادل الأدوار اللاواعية هذه في حين تبقى هوية الفرد الشخصية والجنسية على ما هي عليه وبصورة واعية . والتحول التخييلي هو في الحقيقة توسيع أو تضخيم لشخصية المرء الخاصة بمعنى أن تصبح مندمجة مع شخصية المحبوب . وهذا التغيّر الذي يحدث يكافىء ، انفعالياً ، إمتصاص المرء شخصية أخرى إلى شخصيته ، كما يكافىء تمدّد الذات وزيادة الحساسية الانفعالية الخاصة . ولكن أليس من الصعب تخيّل مثل هذا التحوّل والإمتصاص ؟

كيف يمكن لرجل بأي حال من الأحوال ، وحتى على نحوٍ مؤقت وعابر ، أن يشعر بما تختبره إمرأة في الإتصال الجنسي ، وكيف يمكن لإمرأة أن تشعر بما يختبره رجل ؟ أليس فانتازياً أن نزعم أنّ شخصاً قد يتبادل بشكل لا واعٍ وتخيّلي الانفعالات والأحاسيس مع فرد من الجنس الأخر ؟ إنّ مثل هذا التغير يوازي الحالة الموصوفة في حكاية خرافية عن سلطان يكتشف ، بينما هو خارج في نزهته ، أنه بقوله « Mutabor » (وهو اللفظ اللاتيني المقابل لـ سوف أتغير) يتحول إلى لقلق ويمكنه أن يفهم ما تقوله اللقالق . فلماذا لا يكون الخيال الجامح قادراً على اجتراح مثل هذه المعجزة أيضاً ؟ خاصة وأنّ أرضية مثل هذه الاستحالة اللاواعية لمدةٍ تستغرق بضع ثوان هي أرضية مُعدَّة سيكولوجياً . ولقد تحدثنا سابقاً عن تلك الأفكار والأوهام سريعة الزوال في مرحلة الطفولة المتأخرة ، والتي يتخيل فيها الصبيان أو البنات أنفسهم من الجنس الآخر ويدهشهم أنهم يرغبون بأن يكونوا كذلك . وهذه الاستيهامات تنتعش الآن بشكل لا واعٍ في العلاقات الجنسية . ويمكن بسهولة تمييز أنّ الباعث الأقوى لمثل هذا التحوّل العابر اللاواعي هو رغبة المرء في أن يكون مرغوباً من قبل الشريك الجنسي إلى أبعد حدّ . وواضح أيضاً التأثير الشديد الذي يمارسه تهيّج الشريك على التهيّج الحسيّ

الخاص ، ذلك أنّ التهيّج يتساوق مع إدراك المرء أنه مطلوب أو محبوب ويتطابق معه في بعض الأحيان . وعليّ أن أذكركم بأننا لم نقل أنّ إستيهام أحد الشريكين يعكس بالضرورة الواقع الانفعالي للآخر . ولعلّ انفعالات وأحاسيس الرجل تختلف عن تلك التي تتخيل المرأة أنها له . ولعلّ المرأة تختبر ـ غالباً جداً ـ إحساسات مختلفة تماماً عن تلك التي يفترض الرجل أنها تشعر بها .

إنّ توافق التخييل مع العملية الانفعالية الواقعية لدى الشخص الآخر ليس أساسياً ، وإنما الأساسي ، والذي له السيادة ، هو المحاولة اللاواعية لاختبار مشاعر الشريك . كما نعتقد في الوقت ذاته أنّ في الحب ثمة فهماً واقعياً للشخص الآخر ، نوعاً من التخاطر Telepathy الذي يمكّن الواحد من التفكير والشعور بما يختبره الشريك . وليس ذلك نتيجة جهد واع من التفكير والحدس ، وإنما هي عملية إتصال Communication لا واعية ، تمكن مقارنتها بالارسال البرقي اللاسلكي أو الراديو .

ويجب ألاّ ننسى أنّ فهم حركات ، وايماءات ، وأنفاس ، وترنّمات الشريك ، وتفاصيل أخرى من سلوكه تساعد على مثل هذا الإتصال . فنحن نفسّر كل ذلك بصورة لا واعية كتعبيراتٍ عن انفعالاته . فتفاعل المشاعر اللاواعية يعبر عن نفسه في أفعال ممارسة الحب Love – making ، والتي لا تتطابق مع الإتصال الجنسي ولكنها هنا متوافقة معه . وتهيّج أحد الشريكين ينبّه الآخر . ويتمّ هنا أيضاً إمتصاص دوافع من ميدان الأنا إلى المجال الجنسي . وتعكس العمليات الجنسية في هذه الحالة مشاعر الحنان كما لو كانت شعوراً واحداً ، تمكن مقارنتة مع داخل وخارج القفّاز . وليس ثمة شكّ في أن الانفعالات اللاواعية لشخصين ، حتى لو لم يكن هنالك حنان لدى أي طرف ، يفهم بعضها البعض الآخر ، أما الجنس فيمكن أن يكون شيئاً إفرادياً بالنسبة لأي منهما .

إذا افترضنا أنّ هنالك مثل هذا الإتصال اللاواعي الذي يفعل فعله في الجنس ، وأنّ ثمة تفاعلاً سرياً للدوافع والانفعالات بين الشريكين كما في التخاطر ، فإنّ سؤالاً آخر يطرح نفسه ـ وهو ليس بالسؤال النهائي بالتأكيد ، ولكن له طابع النهائية ـ : هل

الإشباع الأحادي الجانب في الجنس ممكن ، وفي أية ظروف ؟ ويمكن لنا أن نعتبر هذا السؤال كمواصلة للبحث السابق عما إذا كانت العلاقات الجنسية غيرية أم أنانية . وما من شكّ في أنَّ مثل هذا الإشباع أحادي الجانب ممكن . وفي إرضاء الحاجة الجنسية القاسية والخام تصبح هذه الإمكانية واقعاً . وما يجب بحثه هو فقط نوعية هذا الإشباع .

إنَّ الرجل الذي يغتصب إمرأة راغبة عن ذلك ، مثل رجل ما قبل التاريخ في لوحة فيليسيان رويس «La chasse de la femme»(*) ، ينال إشباعه ، ولكن من المشكوك به ، حتى بالنسبة إليه ، ما إذا كان إشباعه جنسياً محضاً . أليس إغراء الانتهاك Violation هو الذي يحث الذكر ، ولذّة كسر مقاومات الأنثى الجسدية والعنيفة ؟ إنَّ أخذ ذلك في الحسبان يجعلنا أقرب إلى الجواب . فالإشباع أحادي الجانب لا يكون ممكناً إلاّ حين يكون للفعل الجنسي طابع ساديّ ، وحشي . وبالطبع فإنَّ من الممكن حتى عندئذٍ أن يتمتّع الشريك أيضاً بمثل هذه التجربة ؛ أي ، إذا كان هذا الشريك مازوخياً ويشارك في شهوة الآخر بالوكالة . ولكن تبقى مثل هذه التركيبة استثنائية . والجواب العام على سؤالنا هو أنَّ الإشباع الجنسي المقصور على شخص واحد هو ممكن فقط عندما يكون للفعل الجنسي سمات العنف والوحشية ، سواء في التخييل أو في الواقع .

إذا استبعدنا هذه الحالات ـ وعددها قليل بحيث يمكن إهماله ـ فإننا نتوصل إلى استنتاج مدهش مفاده أنْ ليس ثمة إشباع جنسي أحادي الجانب . ولعلّ من الأفضل أن نصف هذا القول بأنه لا يُصدَّق أو يصعب الاعتقاد به أكثر منه مدهشاً ، ذلك أنه يتعارض مع كل ما تعلّمنا أن نفكِّر به . انظروا ما الذي ينطوي عليه هذا الجواب . إنه يضع حداً لتلك القصة الخيالية التي تقول أنَّ أحد الشريكين في الفعل الجنسي يمكنه أن يتمتع بينما لا يتمتع الآخر . وهو يفضح زيف تلك الخرافة التي تزعم أن المرأة تستطيع التضحية بنفسها ـ تستطيع ترك الرجل يقطف لذّته بينما هي متورّطة في الأمر جسدياً

* ـ « صيد المرأة » ـ بالفرنسية في النص الأصلي .

وحسب . فنتيجة موقفها هذا هي أنَّ الضغط الفيزيائي لحاجة الرجل الجنسية هو وحده الذي يتمّ تفريغه أو إنقاصه ؛ لكننا لا يمكن أن ندعو هذا الارتياح لذَةً ، ومن المؤكّد أنه ليس إشباعاً كاملاً . فالفعل يصبح مجرد وظيفة بيولوجية تزيل إحساساً منغّصاً ، ولا شيء أكثر . وإنه لمن الصعب على رجل بلغ مستوىً ثقافياً معيناً ونضجاً معيناً لمشاعره أن يستعمل امرأة ببساطة باعتبارها مجرد أداة جنسية بينما هي لا تشارك في لذّته الحسية .

لقد أجرتْ إحدى السيدات المقارنة الطريفة التالية : « إن المرأة مثل سيارة الإطفاء . تقف لأيام منتظرةً في المحطة ، لكنها يجب أن تكون مستعدة دائماً للخدمة حين يندلع حريق » . ولعل لهذا التذمّر ما يبرره ، لكنّ الحريق سوف لن يخمد تماماً إذا لم تقم سيارة الإطفاء بعملها . وبعبارة أخرى ، فإنَّ المرأة يمكن أن تُسْتَعمَل جنسياً ، لكن النتيجة لن تكون مشبعة للرجل . فحاجاته الجنسية المحضة قد يتمّ تسكينها نوعاً ما ، وينقص التوتر في داخله ، لكن ذلك ليس بالكافي سيكولوجياً . وهو ، في الواقع ، قليل جداً بالنسبة للرجل المثقف والذي لديه حاجات انفعالية لا يمكن إشباعها منفصلةً .

نحن نعود بهذا الإلتفاف إلى أهمية التخييل الجنسي . ليس بمقدوركم أن تسألوا جادّين ما إذا كانت العلاقات الجنسية واقعية أو تخييلية في جوهرها . فهي واقعية وتخييلية ، أي ، رغم أنها مادياً نشاطات واقعية ، إلاّ أنها في الوقت ذاته مُعدَّة من خلال الاستيهام ومترافقة معه . فأنت لا تعانق الفتاة الواقعية فقط ، بل ومعها فتاة من بين الكثيرات اللواتي حلمت بهنَّ في أحلام يقظتك واللواتي كُنَّ هناك قبلها . كما أنَّ الفتاة لا يقبّلها رجل واقعي وموجود وحسب ، وإنما يقبّلها أيضاً البطل أو الشخصية الرئيسية في كثير من الصور اللاواعية والتي قد لا تشبهه البتّة ، ولكنها تحوّلت إليه وتولّفت في شخصه . ونحن نعرف النموذج الفردي الذي يُصاغ على غراره موضوع الحب الفعلي ؛ أعني ، مثال الأنا . وهكذا فإنَّ الإشباع الجنسي الكامل يكون مستحيلاً دون إعداد في الاستيهام . (وأنا أتحدّث هنا عن أشخاص ناضجين بلغوا مستوى ثقافياً معيناً ، ولكن هل يستطيع الآخرون حقاً نيل إشباع كامل بالمعنى الذي نفهمه

للإشباع ؟ لعلّ حاجاتهم يتمّ إشباعها ، لكنها حاجات محدودة جداً أو متواضعة) .

ليس الإعداد أو التمهيد في الاستيهام ، وحده ، شرطاً ضرورياً للإشباع ، وإنما العلاقات الجنسية تترافق على الدوام مع تخييل لا واعٍ . ويتوقف الإرجاء والإطلاق في الجنس ، وإلى حدٍّ بعيد ، من حيث الطابع والتوقيت ، على هذا التعاقب في الصور ، والتي يمكن مقارنتها بموجات تيار خفيّ . وقد أفضت إليَّ مرةً أثناء التحليل إحدى السيدات أنّ شعوراً مدهشاً تملّكها في البدء أثناء الاتصال الجنسي مع زوجها . فقد اعتادت على التساؤل مندهشةً : « كم يداً يملك الرجل ! » . وحين نخمّن ما رمت إليه ، لا نستطيع أن نصف ذلك بالتفكير الواقعي . وهو ينتمي بالتأكيد ، مهما يكن ، إلى ميدان تلك الصور الرائعة التي ترافق المشاعر الجنسية .

ما نعنيه يتعدّى التفاصيل ؛ إنه يتعلّق بالطابع العام للحالة الانفعالية . ألَمْ نَقُل أنَّ المتعة الأساسية في الاتصال الجنسي ليست تلامسْ جلدين وإنما التبادل اللاواعي لدورين ، والتفاعل السرّي لانفعالين ؟ لعلَّ هذا المفهوم الجديد يكون مدهشاً ، ولذا سأحاول إيضاح معناه من خلال مقارنة بين المُرسِل والمُستقبِل لموجات الراديو . فهذان الشخصان يكونان متوالفين ؛ حيث الأول ، وليكن امرأة ، يدير جهاز الراديو على محطة بثّ معينة ، ويتلقّى بوضوح رسالة ، ويستجيب لها . فأن تكون متوالفاً يعني أن تكون مركّزاً على هذه المحطة وطول الموجة المحددة وعليها وحدها . ونحن نفهم أنّ الاقتصار على هذا الطول للموجة هو أمر هام ، لأنه يزيل كل الموجات الأخرى ويستبعد الأصوات المتداخلة الصادرة عن محطات أخرى . أمّا الإرتكاس إلى الرسالة المُسْتَقبَلة فيكون متوافقاً مع محتواها وطابعها . ولقد افترضنا أنَّ الاستجابة في الجنس قائمة على تماهٍ لا واعٍ مع الشخص الآخر ، مع موضوع الحب . ويمكن لمقارنتنا أن توضّح أيضاً التأخر البسيط في ارتكاس المرأة[1] . فالأصوات بحاجة إلى وقت معين كي تصل إلى الأذن والدماغ ، كما أنَّ الارتكاسات قد تكون بطيئة باعتبار كثير من الظروف المحيطة .

---

1 ـ ليست المقارنة اعتباطية كما قد تبدو . فقد اشتكت إحدى المريضات من =

ولتقل ، إنّ الرجل هو أحد المقاييس المتقدّمة في دوره كناقل ، كما يجب أن يكون .

إنّ النقطة الأساسية في العملية هي التماهي المتبادل في التخيّل . فهو يؤدي إلى جمع ، أو بالأحرى إلى مضاعفة ، للذّة المرء الخاصة مع متعة الشريك المتخيَّلة أو المتوقّعة . وليس بالإمكان إطلاق صفة المشاركة في متعة الآخر على ذلك ، فالشعور بها لا يتمّ على أنها كذلك . إنها بهجة المرء الخاصة ، كما لو أنّ الواحد هو الآخر . واسمحوا لي أن أشدّد على أنّ هذه العملية لا واعية إلى حدٍّ بعيد ؛ فالشخصان يبقيان غير مدركين لتغيّر الأدوار . أما إذا كان التخييل واعياً ، إذا كان مخططاً له أو مُعدّاً قصداً ، فإنه يعكّر التجربة أو يقلّل من حدّتها . فهو حين يتركّز بصورة واعية يؤدي إلى مراقبة الموضوع بدلاً من تماهاته مع الذات ، أو أنه يحوّل الاستيهام في أقنية جنسية مثلية .

يمكن الإجابة عن السؤال الذي انطلقنا منه على ضوء هذه المعرفة السيكولوجية . فالإشباع الجنسي الأحادي الجانب ليس ممكناً لأنّ الشخص الواحد يدرك على نحوٍ واعٍ أنّ استجابة الآخر الملائمة مفقودة أو أنّ ارتكاسه من نوع خاطىء . ويمكن تشبيه الحالة عندئذٍ بالحالة التي يرسل فيها مرسل الراديو رسالة لا تستطيع بلوغ المستقبل . فهو يتحدث بوضوح ، لكنه لا يتلقى أية استجابة لأنّ موجات أخرى تداخلت معه . والتماهي لا يمكن أن يحدث على اعتبار هذا الغياب للاستجابة ، ونتيجة لذلك فإنّ متعة الشخص الآخر هي أيضاً تتضاءل بصورة كبيرة . وهكذا تنتهي المحاولة بنجاح ضئيل جداً ، نجاح يقارب الفشل . فمن الذي يودّ أن يتكلّم بينما الشخص الآخر لا يصغي إليه ؟

إنّ لمقارنتنا ميزة تتمثّل في أنها توضح الحالة اللاواعية ؛ كما أنّ لها ، مهما يكن ، كل إشكاليات اللغة المجازية . ونأمل أن يكتشف العلم ، في المستقبل القريب ،

تجربة جنسية غير مشبعة ومن خراقة الرجل قائلةً : « لم يكن طول الموجة الذي يناسبني إطلاقاً » .

ما يجعل شخصين « يطقطقان click» (كي نستعمل تعبيراً أمريكياً عامياً) في علاقاتها الجنسية . وربما لن تكون السيكولوجيا من يحلّ اللغز في النهاية . ولعلّ البحث في الإفرازات الداخلية أو في تيارات الدماغ الكهربائية يقدّم معطيات ليس بمقدورنا تخيّلها الآن . ولكن بغضّ النظر عمّا يُكتشَف ، فإنه سيكون واضحاً أنّ العوامل الحاسمة لا تحدّد الحافز الجنسي الفردي وحسب ، وإنما أيضاً الشخصية التي تعبّر عن نفسها في الجنس والحب .

ويبقى السؤال لماذا التجربة الجنسية هي في آن تعبير فيزيائي محض وفي آنٍ آخر تبلغ كمالاً عميقاً وقوياً . ومن المؤكد أنّ كون التجربة يمكن أن تصبح تجربة كاملة تهدّىء كل قلق وتشبع كل مطلب ، وتعمل على تزامن إيقاعين تماماً ، ليس ظاهرة جنسية محضة ، وإنما تنفذ إلى لبّ الشخصية . وليس صحيحاً أنّ مثل هذا الكمال غالب الحدوث . فكثير من النساء والرجال يموتون قبل أن يجرّبوه البتة .

وقد تكون مقارنتنا مفيدة في توضيح طبيعة العديد من الاضطرابات التي تحصل في هذا التبادل اللاواعي للانفعالات والأحاسيس . فمثل هذه الاضطرابات يمكن أن نجدها في محطات الإرسال كما في محطات الاستقبال . فالخوف ومشاعر الإثم ، والعداء والنقمة خاصة ، والكبرياء الجريحة والافتقار إلى الثقة بالنفس هي عوامل يمكنها أن تثبّط الإنجاز أو حتى تمنعه . وبالطبع ، فإنَّ الإرضاء الجنسي يمكن بلوغه دون الشعور بالعاطفة تجاه الشريك . بل ويمكن بلوغه بمساعدة استيهامات وحشية وسادية ، ولكن تبقى حقيقة واضحة أنّ التهيّج الجنسي في الحالة السويّة متنافر مع العداء أو النقمة . فالحاجة إلى الانتزاع ، وإلى العدوان والتملّك العنيفين يمكن أن تترافق مع الحافز الجنسي ، لكنّ الضغينة والعداء يحبطان مقصده . فهما يعملان كمنبّهات مضادة . وغالباً ما عبّر رجال ونساء أثناء التحليل النفساني عن أنهم يفضّلون أن يكون لهم اتصال جنسي مع شريك حيادي بدلاً من علاقاتهم أو علاقاتهن مع زوجاتهم أو أزواجهن الذين يحبونهم ولا يتعدّى الأمر معهم حدود النزاع . إن البواعث اللاواعية يمكنها أن تُبطِل كل الأفكار والنزوات الواعية وتمحق قوتها .

ثمّة مثل صيني يقول : « المكان الأشدّإظلاماً هو تحت المصباح » . إنَّ هذه العوامل الخفيّة ليست من طبيعة جنسية ؛ فهي جميعاً تنتمي إلى مجموعة دوافع الأنا . والطابع المتغطرس للخافز الجنسي يجعلنا لا نرى حقيقة أنّ القيمة الانفعالية للتجربة الجنسية تعتمد على أثر هذه الدوافع ، وأنها تقرّر ما إذا كانت التجربة تبلغ إلى مجرد تماس البشرتين أو أكثر من ذلك .

وبهذا الصدد ، كما في غيره ، يتضح أنّ سوء التقييم التحليلي النفسي للجنس ، والذي اعتبر الحب بمثابة سمة مميزة للرغبة الجنسية المفوَّتة ، هو غلط فاضح . وما بدا في البداية مجرد مبالغة وإفراط يظهر الآن بمثابة تشوّش وخلط بائس - وفي عواقبه ـ مفزع غالباً . ففي دراستهم سيكولوجيا هذه الاضطرابات ، ركّز المحلّلون اهتمامهم على العوامل الجنسية ، وطابع الجنسية الطفلية ، والتثبّت على موضوع الحب الأول ، وهلمجرا . لكن كل الإخفاقات الانفعالية والعيوب ، والعنّة والبرودة الجنسية ، والإمناء السريع عند الرجال والارتكاس المتأخر لدى النساء يمكن ردّها إلى نزوات العداء والنقمة ، وإلى مشاعر الخوف والكراهية . وإذا ما عدنا إلى مقارنتنا ، فإنّ هذه الأعراض تعني : « لا أريد سماع رسالتك » أو « لا أميل للطريقة التي ترسلها بها » . إنّ الكفّ الجسدي ليس إلاّ التجلّي الخارجي للتداخل ، وللاضطرابات الجوية في المجال الانفعالي بين شخصين . فما يحدث في العلاقات الجنسية نادراً جداً ما يتحدّد بالعوامل الجنسية وحدها . وما يحصل عند اتحاد جسدين هو تعبير عمّا يحدث في الحياة الانفعالية لهذين الشخصين .

الكرامة البشرية في الجنس

احتجزتْ الحورية كاليبسو أوليس التائه سبع سنوات في جزيرتها . وعندما التقته شعرت أنَّ ثمة تحفّظاً بينهما ، وقالت للملك إيثاكا : « فلنمض إلى الفراش كي يتآلف أحدنا مع الآخر » . لقد فكّرت الحورية باستخدام العلاقات الجنسية بقصد التغلّب على التحفّظ والحذر بين شخصين . وهو أسلوب كان مألوفاً لدى الذهنية الإغريقية وغريباً على ذهنياتنا . ولكن ما يتغلّب على الهوّة بين الحورية وأوليس ليس الجنس وحده ، بل أيضاً اللطف والحنان المعبّر عنهما في دعوة كاليبسو البسيطة . وإشباع الجوع الجنسي الخام.ما كان هو الذي أجبر التائه على المكوث سبع سنين على جزيرة كاليَبسو .

وإذا أردنا الكشف عن البواعث اللاواعية للإخفاقات والقصورات الجنسية فإنَّ علينا البحث ليس في ميدان الجنسية ، وإنما أبعد من هذا النطاق بين الانفعالات الشخصية . فالكتاب المقدّس يخبرنا أنّ الله خلق البشر . خلقهم ذكراً وأنثى . وليس مصادفةً أنّ التفريق الجنسي موضوع في المقام الثاني . وهكذا فإنَّ البشر يجب النظر إليهم ككائنات بشرية أولاً ومن ثم كرجال ونساء .

يطوّر كل جنس إحساساً بقيمته وكرامته الخاصة يكون من الصعب أحياناً على الجنس الآخر أن يفهمها . وثمة مآسٍ ومهازل يومية في المعركة من أجل الكمال . وتُخاض الكثير من هذه الصراعات في ميدان الجنس ، على الرغم من أنّ منشأها ليس هناك .

وسوف أقتصر هنا على بعض الملاحظات في سيكولوجيا البرود الجنسي لدى

النساء . وهو مثل عنّة الذكر ، ومثل الإمناء الباكر جداً والظواهر المشابهة ، له طابع التدمير اللاواعي للشريك الجنسي . ولدى تحليل البرود ، فإنَّ الأثر الانفعالي يمكن اعتباره ثانيةً المفتاح النفيس المؤدي إلى البواعث الخفية . فإذا ما كانت نتيجة مثل هذا الإخفاق هي خيبة أمل الشريك ، فإنّ هذه النتجية تكون مطلوبة ومرغوبة بصورة لا واعية ـ على الرغم من كل النوايا الحسنة الواعية . ويمكن تشبيه الوضع بذاك الموصوف في القول المأثور : تستطيع أن تقود الحصان إلى الماء ولكن لا تستطيع أن تجعله يشرب .

وليس صحيحاً ، كما يؤكد المحللون النفسانيون ، أنّ التهويل الجنسي ، والتثبّت على الأب ، وعوامل مشابهة أخرى هي الأسباب الرئيسية لبرود النساء . فالحب يتغلّب عليها كلها ، بما فيها الطهرانية Puritanism . فحين لا تشعر المرأة بأي شعور أثناء الاتصال الجنسي ، فإنها لا تحبّ الرجل ـ في تلك اللحظة على الأقل ـ أو لعلها لا تعتقد أنه يحبها . وليس ثمة أي تلميح مفيد إلى هذه الحقيقة السيكولوجية . وارتكاس المرأة لا يتطابق مع كراهيتها للرجل ، ولا حتى مع عدائها تجاهه . وغالباً ما ينجم الإخفاق عن الكبرياء الجريحة أكثر منه عن المقت . وبعبارة أخرى ، فإنّ المرأة تشعر أنه لا يحترمها أو أنها لا تحترمه .

والمرأة عموماً هي أكثر صدقاً مع جسدها منها مع عقلها . ولا يمكن لأحد أن يؤكّد أنَّ النساء عاجزات عن الإفصاح وعيّياتٍ في موضوعات أخرى ، أما في هذا الموضوع المحدّد فهنّ غالباً ممنوعات من التعبير عن انفعالاتهنّ العميقة .

ثمة فارق مميز بين سلوك الرجال والنساء فيما يخصّ الجنس. لنفترض أن هنالك جدالاً بين رجل وزوجته وأنّ بعض الكلمات الجارحة صدرت عن كلا الجانبين . وكان الرجل سابقاً قد نسيَ ، إن لم يكن قد غفر ، بعض التعليقات المهينة التي تلفّظت بها زوجته . وهو يأمل أنّ الشمس سوف تغرب على حنقها وأنه عندئذٍ سوف يسترضيها بمقاربتها جنسياً . ولخيبته الشديدة ، فإنّ محاولته تثبت فشلها ليس حين ترفضه وحسب ، بل وأيضاً حين تستسلم له بعدها . فهي تبقى دون شعور . الرسالة

مسموعة ، ولكن ليس ثمة استجابة وشيكة أو في المتناول . ولا بدَّ من تلقينه أنّ الجنس لا يمكنه أن يؤثر على الحب ، ولكنّ الحب يمكنه أن يغيّر المشاعر الجنسية . والمرأة يمكن أن تُدفَع أو تُقحم في الجنس ، ولكنّها يمكن أن تُهدى وحسب إلى الشعور بالعاطفة . ويمكن للرجل أن يمتلكها جنسياً ، لكنها لا تعود إليه إلاّ في الحب . وحقيقة أنّ الرجل يريد الجسد وأنّ المرأة لا تستطيع فصْلَه عن النفس ليست بالسبب الوحيد للصراع بين الجنسين ، وإنما هو واحد من الفروق الأساسية التي غالباً ما تخلق الصراع .

إلى هذا الحدّ هي حساسية كبرياء المرأة بحيث أنها غالباً ما تشمئز من نفسها حين تستسلم للرجل الذي أهانها . وعلى النقيض من نواياها الواعية فإنّ جسدها يبقى متحجراً وانفعالاتها منغلقة ، كما لو كانت تقول : « لست هنا سوى بجسدي » . ولقد قالت إحدى النساء مرّة ـ معبِّرةً عن شعور تشاركها فيه الكثيرات من أخواتها : « كنتُ غاضبةً عليه لأنه جعلني أستسلم وحانقةً على نفسي لأنني تركته يفعل ذلك » . وفي عيادة التحليل النفسي يمكن سماع توصيفات مماثلة لانفعالات النساء يومياً تقريباً . ولقد جمعتُ بعضاً من هذه التوصيفات ، وسوف أورد نخبة منها كي أُثبت كم هي ارتكاسات النساء الانفعالية متشابهة : « أستطيع أن أنام معه ليس لأنني مثارة جنسياً ، وإنما لأنني مغرمة به كشخص . ليس وحده من يكون متحفظاً حين أكون معه ضدّ إرادتي ، بل أنا أيضاً أكون متحفظة تجاه نفسي . وحين أفكر أنني أدعه يضطجع معي أشعر بالإشمئزاز من نفسي . أين كبريائي ؟ » . « لم أكن موجودة باعتباري أنا » . « كما لو كان الأمر رسالة » . « كنتُ أفضّل قلع الأسنان » . « شعرت أنني لا أحترم نفسي وليس لديّ كرامة ـ أحطّ من دودة » . « لقد صرت نائيةً فجأة ، لأنه بدا غير مدرك لوجودي كفرد ، وإنما فقط كامرأة قد يستعملها » . « كنت بالنسبة له وببساطة كمحطة بنزين » . « شعرت كأنني لن أستطيع أبداً أن أشعر بالنظافة ثانية » . « لا يمكنه أن يفعل لي ذلك . لست واحدة من فتياته الراقصات » . « لقد استسلمت له وكرهت نفسي لذلك . لقد جعلني أشعر أنني رخيصة » . « لم يكن لديَّ أي احترام لنفسي . شعرت وكأنني عاهرة » . « شعرت أنني منحطة وعلمت أنني سأكره نفسي في

الصباح » . « أشعر أنني عارية من آخر مزقة لديّ من احترامي لذاتي » « لقد استسلمت له ، لكنني لم أحب نفسي بعدها » . « لقد اهتم بي جنسياً وحسب ، وليس كشخص . إنني أموت ، فأنا أشعر أنني رخيصة كالوحل » . ولقد قالت لي مريضة أنها أثناء الاتصال الجنسي مع زوجها راحت تفكر بتفاصيل التسوّق الذي كان عليها القيام به من أجل الغداء في اليوم التالي . كما قالت لاحقاً عن علاقاتها : « لم تكن شيئاً نقوم به سويةً » . إنها لكلمات قوية ، ولكنها ليست أقوى الكلمات المستعملة بهذا الصدد .

النساء نزّاعات إلى الشكّ والإشتباه حين يعتبرهن الرجال مجرد أدوات جنسية ـ وحين لا يمارس الرجال معهنّ الحب ، وإنما يتظاهرون بذلك . . وهنّ لا يملنَ إلى جعل الرجل يفكّر بأنه انتزعهنّ ، بل يفضّلن أن يفكر أنهنّ استسلمن . ولهذا التفضيل صلة بالخزي الاجتماعي أقلّ من صلته بالإحساس بالقيمة الذاتية ، وصلته بحفظ ماء الوجه أقلّ من صلته بنظرهنّ إلى وجوههنّ في مرآة الحكم على الذات . وهنّ يعلمن أنّ الجنس لا « يعمل » إلاّ حين يشعرن أنهن قريبات انفعالياً من الرّجل ؛ وليس ثمة طريقة أخرى لجعله يعمل بالنسبة لهنّ . فهنّ يردن العيش مع رجل ، وليس النوم معه وحسب .

لقد كان باسكال محقاً في قوله أنّ للقلب أسبابه التي لا يعرف عنها العقل شيئاً . ولكن كان عليه أن يضيف أنّ الجسد غالباً ما ينمّ عنها ويكشفها . ويُثبِتُ البرود الجنسي لدى النساء هذه المعرفة اللاواعية . فالبواعث على الافتقار إلى التهيّج لا تكون واعية دائماً ؛ وغالباً ما تتصارع الرغبة مع الكبرياء ، لكنّ الكبرياء تكسب عادة . وإليكم بعض الأمثلة التي توضح أنّ النساء لا يكنّ بالضرورة مدركات لما يبعث على المقاومة والإحجام الجنسي . لقد حكت لي مريضة أنها وجدت ، الأمر الذي أذهلها ، أنّ التهيّج الذي شعرت به في البدء لدى الاتصال الجنسي مع زوجها توقف فجأة ، على الرغم من أنها لم تعرف له سبباً . ولقد وجدنا في التحليل أنها لا بدّ أن تكون قد فكّرت في نفورها من زيارة كان عليها القيام بها إلى بيت عمها أهل زوجها في اليوم التالي . وكان زوجها قد حثّها على الذهاب .

مريضة أخرى ، وهي فتاة شابة كان خطيبها قد عاد للتو من رحلة عمل دامت عدة شهور ، أدهشته برودتها التامة ولأول مرة ، رغم أنها شعرت بتوق شديد إليه أثناء غيابه . أما الباعث الذي كان خفياً حتى عليها هي نفسها فهو التالي : كانت قد وضعت ثوبها بإهمال على كرسي حين تعرّت . والتقطه الشاب . وبينها هو يبسطه على نحو مرتّب ، صدر عنه تعليق نصف مازح مفاده أنّ أثواب السيدات ينبغي ترتيبها على هذا النحو . وقالت الفتاة ، بَرِمَةً : « رائع ، ياسيد ، فأنت خبير » . ولم يكن صعباً اكتشاف أنّ هذا التعليق يقدّم مفتاح موقفها البارد بعد عدة دقائق . لا بدّ أنها فكّرت في لا وعيها أنّ الرجل تعلم التعامل مع أثواب النساء أثناء رحلته ، ولا بدَّ أنه قد خاض « تجارب » أخرى .

مريضة أخرى تذكّرت فجأة أنّ زوجها لم يُبْد تعاطفاً حيالها حين مرضت ، وجعلها هذا التفكير تتجمّد فجأة . « للحظة يشعر تجاهي بالحنان ، وفي اللحظة التالية لا يهتمّ كم أكون بائسة إذا ما أمكنه إنفاذ مشيئته وحسب » . وثمة فتاة أخرى كان عليها ، وقد مضت إلى الفراش مع عاشقها ، أن تنهض كي تحضر شيئاًما . وحين لامست قدماها الأرضية علّقت نصف جادة : « إن كنت تريد أن تكون لطيفاً حقاً عليك تأمين خفّين ، نمرة ستة ، لي » . فقال ، مازحاً : « في هذه الحالة ، عليّ تأمين عددٍ منها ، نمرة خمسة وسبعة ومقاسات أخرى عدّة » . وكانت الفتاة ، وهذا ما أدهشها ، باردة تماماً أثناء الاتصال الجنسي الذي حدث بعد نصف ساعة .

وغالباً ما تحتجّ النساء بهذه الطريقة اللاواعية ضد فقدان الاحترام أو الاهتمام ، ويعبّرن عن وجهات نظرهنّ الرافضة لمعاملتهنّ باعتبارهنّ مجرد قطع من اللحم . وليست مقاومتهنّ موجهة ضدّ الجنس ، بل ضدّ الجنس الخالي من الاحترام أو العاطفة . ويكشف عدم استجابتهنّ ارتكاسهنّ الانفعالي . حيث يتمّ ترحيل تضارب الإرادات بين الجنسين إلى ميدان العلاقات الجنسية . ويمكن للمحلّل حلّ الكثير من إشكاليات التنافر الجنسي حين يقاربها باعتبارها تجلّيات ممكنة للنقمة اللاواعية والكبرياء الجريحة .

والرجل ليس خالياً من الإحساس تجاه ارتكاس المرأة أو بالأحرى تجاه غياب هذا الإرتكاس . فهو يشعر أنه هامد قليلاً ويدرك أنه قد أخفق . وهذا الإدراك لا يكون واعياًدوماً ، ولكنه دوماً النتيجة الانفعالية . وفي بعض الأحيان يقتصر الأمر على شعور الرجل بأنه غير متوالف مع شريكته ، ولكنه يؤول هذا التنافر بصورة لا واعية باعتباره تعبيراًعن تباعد نفسي . وإذا كان ما افترضته صحيحاً ، أي أنَّ كلّاً من الشخصين يفهم الآخر بصورة لا واعية ،فإنه عندئذٍ سيحسّ بالمعنى العدائي لهذا العَرَض ، أو بمعناه الرفضي على الأقل . وإنني لأجرؤ على المضيّ أبعد من ذلك . فحتى عندما يحيِّره الأمر بصورة واعية ،فإنّ الرجل سوف يفهمه بمثابته ثأراً أو نقمة على الأذيّة التي أنزلها بتقدير شريكته لذاتها . وتدعم هذا القول حقيقة أنّ افتقار الشريكة للاستجابة الجنسية هو لطمة توجَّه إلى كبريائه الذكري ، كما لو أنّ سلوكها يعني ضمناً إخفاق فحولته ، يعني عنّته الجنسية .

ويفهم الرجل بصورة لا واعية أنّ هذا العقاب يتماشى مع الجريمة . فإذا ما كانت كرامته كرجل تعاني من الإخفاق ، فذلك لأنه أهان الكرامة الإنسانية لزوجته أو لمحبوبته . أيمكن لنا إذن أن نظل نردّد أن النساء لا يستخدمن العلاقات الجنسية أبداً كوسائل للتعبير عن مشاعرهنّ السلبية أو العدوانية ؟ لم يصدر عنّا مثل هذا التأكيد ، ولكن قلنا فقط أنهنّ لا يعتبرن الفعل الجنسي بحدّ ذاته مبخّساً للرجل . وثأرهنّ أكثر حذقاً بكثير من قسوة الرجل الذهنية . فلأنهنّ أُهِنَّ وانتُهكن كنساء يهاجمن الموضع الأشدّ ضعفاً لديه ، كبرياءه كرجل . وهنّ يعلمن بصورة لا واعية أنْ ليس ثمة إشباع جنسي أحادي الجانب على الرغم من اعتقادهنّ الواعي أنّ بمقدور الرجل التمتع حتى ولو لم يضطلعن انفعالياً بدور في العلاقات الجنسية . وهل من الضروري أن أضيف أنني بعيد كل البعد عن اعتبار النساء ملائكة ؟ إنّ هنالك نساء قاسيات ومستبدّات بما فيه الكفاية لا يُشبعهنّ أن يكنّ خليلات للرجل بل يردن أن يكنّ سيدات له وأن يسحقنه . فتحجُّر القلب ليس مقتصراً على الذكر . وكونغريف محقّ في قوله : « لا تعرف السماء سورة غضب مثل سورة حبّ انقلب إلى بغضاء ، ولا يعرف

الجحيم روحاً منتقمة كروح امرأة مزدراة » .

تعبّر النساء عن كبريائهن الجريحة ، جنسياً ، بواحد من اتجاهين ـ ضد الرجل أو ضد أنفسهنّ بإذلال مازوخي للذات . فهنّ يُردن إمّا تبخيس الرجل أو تبخيس أنفسهنّ ، كما لو أنهنّ يماهين أنفسهنّ مع الرجل ، كما لو أنهنّ يدمجنه بكيانهنّ . الخيار الثاني فيؤدي غالباً إلى عدم الإخلاص أو إلى العلاقات الجنسية غير الشرعية ويتصرفن كما لو أنهنَّ فقدن كل قيمة لذاتهنّ لأنّ الرجل المحبوب لم يهتمّ بهنّ ، كما أنهمّ ما عدن يخشين أن يكنّ « رخيصات » لأنه يعتقد أنهنَّ بلا قيمة أبداً . ولقد قالت إحداهنَّ وهي مغتاظة بعد أن هجرها الرجل إلى امرأة أخرى وانغمست في علاقات جنسية غير شرعية : « بعدما فعله بي لم يعد مهمّاً إنْ كان هو أو غيره » . وفي بعض الأحيان ، تبدو العلاقات الجنسية غير الشرعية بالنسبة للمرأة وكأنها ليست سوى إجراء انتقامي ، ضرب من الثأر من الرجل وتقليد كاريكاتوري غاضب لموقفه ، كما لو أنها ترمي إلى القول : « انظر ، ذلك هو ما فعلتَه وما تعلمتُه منك » . وغالباً جداً ما يكون التحدي والاستهزاء ، فضلاً عن الحقد ، لا واعياً عند مثل هؤلاء النسوة . فالصلة الانفعالية مع ذكرى الكبرياء الجريحة يتمّ اعتراضها ومقاطعتها كما لو أنّ التذكر كان مؤلماً جداً .

اسمحوا لي للحظة أخرى أن أعود إلى القول أنه ، باستثناء السادية ، ليس ثمة إشباع جنسي أحادي الجانب ؛ لكنني الآن سوف أستعمل هذا القول في الدفاع عن الرجل . فالرجل الذي نشأ في ثقافتنا نادراً ما يشبعه الجنس الخام ، على الرغم من كل تبجّحه . فهو غير فاقد للحسّ كما يحصل غالباً أن تتخيّله النساء ـ وعلى الأقلّ هو غير فاقد للحسّ والشعور في عقله اللاواعي ـ ولو أنه غالباً ما يزعم لنفسه أنه بحاجة للارتياح الجنسي وحده وليس إلى الرفقة والمشاركة أيضاً . وهو رومانتيكي في الأساس ، ويشعر أيضاً أنّ الأجساد تبقى غريبة عن بعضها البعض إنْ لم تتّحد النفوس . وقد يخدع نفسه لبعض الوقت ، لكنه لا يستطيع أن يخدعها إلى الأبد . وقد يَصْفُر أغنيةً داعرةً في عتمة وحدته الانفعالية ، لكنه يعلم نوعاً ما في أعماقه أنّ العلاقات الجنسية

وحدها سوف لن تشبعه . ألم يلفّق خرافة أنّ كل حيوان يكون حزيناً بعد الاتصال الجنسي (« amne animal post coitum triste »)(*) ؟ يجب أن يعلم أنّ ذلك ليس صحيحاً ، ذلك أنه ، هو الحيوان الذكر ، لا يشعر بالهمود إلاّ حين لا يكون بمقدوره نيل إشباع كامل . وهو لا يستطيع نيل هذا الإشباع إذا كان الجنس والتعاطف منفصلين أحدهما عن الآخر- اللهم ما لم يكن حيواناً ذكراً بالفعل .

ثمة أيضاً شيء ما لديه يبحث عن العاطفة ويُصاب بخيبة الأمل إن لم يجد سوى الجنس . وقد يعني له الارتياح الفيزيائي أكثر مما يعنيه للمرأة ، لكنه لا يعني كل شيء بالتأكيد . وأحياناً قد تجده عقب العلاقات الجنسية غير جائع جنسياً أبداً ، وإنما جائع للعاطفة . كما يمكن أن يشعر بالوحدة ، أيضاً ، رغم اتحاد جسده مع جسد الأنثى . وهو يعلم أنّ كل تجربة جنسية هي تجربة مختلفة ، وأنّ قلّة قليلة منها تجارب كاملة . لعله لا يعرف هذا الدرس جيداً كما تعرفه النساء ، لكنه يعرفه فضلاً عن أنهنّ قادرات على تعليمه إياه . والرجال قادرون جيداً على الشعور بالتعارض بين الحافز الغُفْل إلى الإشباع الجنسي وبين الحاجة إلى شخص معين والرغبة به . وهذا التعارض قد يطمسه تهيّج الفعل الجنسي على نحو مؤقت ، لكنه لا يلبث غالباً أن يعود مباشرة بعد الرعشة . وإليكم كيف وصف أحد الرجال تجربة جنسية : « كان الدافع قوياً ، لكنّ الرغبة كانت ضعيفة » . وتابع : « إنْ كان يمكنك أن تنال مثل هذه اللذّة الكبيرة مع امرأة لا تكترث بها ، فكيف هو الجنس إذاً مع امرأة تهمّك » . لقد تعلّم الرجال إطالة التسلسل المتصاعد نحو ذروته والذي يبدأ بالتشويق susppense الذي يخلقه إحجام المرأة ، ومن ثم يفضي إلى استسلامها ، فتشوّقها ، وفي النهاية إلى انغماسها في النشوة ecstasy. وهذه المراحل المتعاقبة تصبح أهدافاً مرغوبة على نحو لاهث . وعبر هذا الطريق الطويل نصل ثانية إلى النتيجة السيكولوجية التي مفادها أنّ العلاقات الجنسية لا تبلغ إشباعاً كاملاً إلاّ إذا أشْبِعت في فعلٍ واحدٍ كلاً من الدافع الجنسي وحاجات الأنا ، ومن بين هذه الأخيرة المطلب الأحدث سناً ، والذي ندعوه بالعاطفة . وليست هذه الرؤيا بالتي يمكن أن

---

*- باللاتينية في النصّ الأصلي .

ندعوها حسيّة . فهي ، مهما يكن ، شيء آخر من الأشياء في السماء والأرض والتي حلمنا بها في سيكولوجيتنا .

الرغبة بأن تكون مرغوباً

يمكن حتى لحركة ثورية في الأصل مثل التحليل النفسي أن تصبح محافظة وأن تلجأ ، في النهاية ، إلى الإذعان الرجعي . كما أنّ كثيراً من العقول الثورية ، وهم مقاتلو الأمس ، تعبوا ، وهم يوقفون الآن قضيتهم على العقائد الجامدة والأفكار المسبقة . لكنّ تقدّم العلم لا يحتمل مثل هذا الملجأ . ولسوف تكون هيئة التحليل النفسي حوالي العام 2000 من حقبتنا جدّ مختلفة عن مفهوم جمعية نيويورك للتحليل النفسي عام 1945 . ولا يحتاج المرء لأن تكون لديه موهبة النبوءة كي يتنبأ بأنّ الاهتمام سينصبّ على الشخصية البشرية الإجمالية أكثر بكثير منه على المكوّنات الجنسية . وإنني لواثق أنّ صورة التحليل النفسي عام 2000 سوف تكون أقرب إلى الصورة التي رسم ملامحها التحليل النفسي ـ الجديد منها إلى نظرية اللبيدو . وسوف يتبينّ عندئذٍ أنّ الدافع الجنسي الخام لا يمكن أن يكون له تلك القدرة التي يعزوها له فرويد وأنّ تلك الخلائط الباكرة من الحوافز الجنسية وغير الجنسية ستكون ملحوظة على نحو واضح في تلك الظواهر بالذات التي تخلّف لدينا انطباعاً بأنها جنسية « محضة » .

إنّ إعجابي بفرويد ليفوق إعجابي بأي واحد من أتباعه وربما بمعظمهم . ومع ذلك فإنني أرى أنّ عظمة فرويد ليست قائمة على نظرية اللبيدو وإنما على مآثر أخرى . وأنا مرتبط بفرويد ، لكنني لست مُستعبَداً له وإعجابي لا يحول دون رؤية الحاجة إلى تغييرات ، ولا يلزمني بعقيدة متعصبة كتلك التي تقيّد كثيراً من المحلّلين النفسانيين ، « اللبيدو هو اللبيدو ، وفرويد هو نبيّ اللبيدو الملهم » .

حتى عند أولئك الأشخاص الذين تقف لديهم الجنسية في المقدمة وتبدو متحكمة بالحياة الانفعالية ، ليس الدافع الجنسي البدئي وحده أبداً هو الذي يحدد استيهامات وأفعال الفرد . والرجل الذي يغتصب امرأة ويقتلها منتشياً ليس مقسوراً على ذلك بالجنس وحده . فالشهوة النهمة لدى الذكر ، أي الشبق satyriasis ، والرغبة القهرية المشابهة لدى المرأة ، أي الغلمةnym phomania ، ليست أبداً ظواهر جنسية محضة .

ليس ضرورياً أن نتفحّص حالات مرضية كي ننفذ إلى طبيعة الخليط الغريب الذي غالباً ما دعوناه بالجنس دون تمييز بين الدوافع المختلفة . فالتحليل السيكولوجي للحياة الجنسية السويّة لدى الرجال والنساء يثبت النظرية القائلة أنّ ثمة في الأفعال والاستيهامات الجنسية ما يتعدّى الجنس . ويثبت ، أيضاً ، أنّ « يتعدّى » هذه والتي هي حاضرة في العلاقات الجنسية غالباً ما تحدّد طابع الفعل الجنسي الفردي ، وما إذا كان مُشبِعاً أم لا ، ومكانته في حياة الفرد الانفعالية .

كل بحث في تطور الحياة الجنسية ، إذا ما جرى دون أفكار مسبقة ، سوف يتوصل إلى حقيقة مدهشة مفادها أنه عند نقطة معينة يقتحم المشهد عامل جديد ويكتسي بالدلالة . إنني أشير هنا إلى استجابة الشريك . فكثير من النساء والرجال يشعرون أنّ الجزء الأشدّ أهمية في ممارسة الحب هو إيقاظ الحب . وإذا ما نظرنا إلى الدافع الجنسي الخام ، هذا الحافز إلى التخلّص من توتر عضوي - فما هي علاقة هذا الدافع المنفلت من عقاله بارتكاس الموضوع ؟ إنّ موضوع الحافز الأولّي ليس سوى أداة للذّة ، وقلّما يتمّ اعتباره بمثابة شخصية . فكيف يمكن لنا تعليل الأهمية المتزايدة لاستجابة الموضوع ما دمنا نفترض أنّ الفعل لا يزيل سوى التوتر الجنسي وحده ؟ إنّ شخصاً خاضعاً لتوتر الحافز الجنسي لن يكترث بمسألة موقف الموضوع ؛ فانفعالات ومشاعر المرأة التي لا تُستعمَل إلاّ لإرضاء الدافع الجنسي سوف لن تكون موضع اهتمام طالما أنها لا ترفض الرجل . أما إذا رُفض الرجل ، المُساق بمثل هذه الرغبة ، فإنه يشعر بالضيق ولعلّه يستخدم العنف لتحقيق هدفه . وثمة طريق طويل من صورة المرأة التي تمّ كسر مقاومتها ، والتي استنزفتها جهودها المبذولة في ردّ المهاجم ، إلى صورة المرأة التي تحتفي

بالرجل وترحّب به .

يستحق هذا التغيّر العظيم أن يحتلَّ مكانه هامة في تاريخ التطور الذي يؤدي من إشباع الدافع الجنسي الخام إلى التوق الذي ندعوه حباً . إنّ الحاجة الجديدة إلى الاستجابة لم تظهر في البدء كمطلب غيريّ ؛ فهدفها هو زيادة وتعزيز متعة المرء الخاصة . وكما تمّ الاحتفاء باستجابة المرأة ، في البدء ، باعتبارها محض حدث مدهش . أما لاحقاً فقد نُظِر إليها كمصدر للذّةٍ إضافية . ولقد نبعت الخطوات المتعاقبة في هذا التغيّر من ممانعة المرأة لطواعيتها وفي النهاية لتوقها . وبالنسبة للرجل البدائي ، فإنّ فتنة الجنس كانت في الحقيقة فتنة الاختلاف الجنسي . ولاحقاً ، أصبحت فتنة الجنس تعبيراً واعداً بلذّة جنسية أرفع بالنسبة للرجل . وبدا مظهر المرأة وموقفها ، وإيماءاتها وسلوكها وكأنه يعد بأنها ستستجيب طواعيةً بل وبحماس في بعض الأحيان لمقاربتها جنسياً من قبل الرجل الذي اختارته . وهكذا غيّر الوعد بإشباع جنسي أعظم طابعه إلى **Promesse de bonheur**(*) .

وبعد قليل أصبحت استجابة الشريك ، فضلاً عن بلوغ المرء إشباعه الفيزيائي الخاص ، هدفاً انفعالياً . وفي النهاية أصبحت شرطاً ضرورياً لإرضاء عميق ، وأصبحت الاستجابة مع هذا التطور ضرورة انفعالية بالنسبة للكثيرين ، أصبحت **condition sine qua non**(**) . وهنا يكمن خطّ التحديد الذي يَسِمُ الانتقال من فعل فيزيائي محض ، فعل يستعمل شخصاً بمثابته أداةً للّذة ، إلى فعل شخصين يبحثان عن متعة مشتركة ، من نشاط أناني إلى نشاط اجتماعي . وما اعتيد على فعله لشخص آخر أصبح نوعاً من التجربة التعاونية . ولقد تجاوز الفعل الجنسي في هذا الطور من تطوره نطاق اللذّة المشتركة وأضحى تعبيراً جسدياً عن العاطفة . وهو في هذا التحول يزيل حدود الخوف ، وعدم الثقة ، والعداء التي تفصل الجنسين ، وتفصل

* ـ « وعد بالسعادة » ـ بالفرنسية في النص الأصلي .

** ـ باللاتينية في النصّ الأصلي .

الرجل والمرأة الفرديين .

إنّ الرجل ، الذي كان متطَفّلاً مرةً والذي نظرت إليه المرأة باعتباره رجلاً ما ، يُحتفى به الآن كضيف وكصديق . وما كان مستعداً لانتزاعه لأنه مُحتبَس عنه يُقدَّم له الآن كهبة . وما كان يريد أخذه يُمنَح له الآنَ بابتَهاج . الأيدي التي رفضته ممدودة إليه ، وحيث وجد الممانعة والمقاومة من قبل تُبذَل له آيات الثناء والتقدير . تلك هي الدلالة الانفعالية للاستجابة .

وأودّ أن أطرح مشكّلة ، فات السيكولوجيين حتى ملاحظتها ، ويمكن هنا عرضها وحسب ، وليس حلّها .كيف نشأت هذه الحاجة الجديدة ، رغبة المرء بأن يكون مرغوباً ؟ ولماذا نالت أهمية متزايدة إلى جانب الدافع الأوليّ للإشباع الجنسي ؟ من الواضح أنّ هذه الرغبة مرتبطة صميمياً بالتخييل الذي ناقشناه من قبل . ومن أجل مقاربة هذه المشكلة علينا أن نعود إلى الدور الذي يلعبه الخيال في الإشباع الجنسي . فطابع هذا الإرضاء يتوقف إلى حدّ بعيد على نوع التخييل الذي يسبق ويرافق الفعل الجنسي .

ولكنْ أليست الحاجة الجنسية الحبيسة أو المكبوتة ، الليبيدو ، هي العامل الأشدّ أهمية في هذا الإشباع ؟ لا شكّ ، ولكن ثمة عوامل أخرى تتطلّب هي أيضاً أخذها بالحسبان . اسمحوا لي أن أجري مقارنة . إنّ البشر يشربون بسبب الظمأ . فهل يشرب البشر فقط بسبب الظمأ ؟ لا ، بالتأكيد . إنهم أيضاً يشربون لشعورهم بالوحدة ، بالهمود ، وبالإحباط ـ فهم يطلبون الإثارة والرفقة . وهكذا يبقى الظمأ هو الباعث الرئيسي على الشراب ، لكنه ليس بالباعث الوحيد . وبالمثل ، فإنّ الضغط الجنسي ليس هو وحده الذي يسوق الرجال والنساء إلى الفعل الجنسي . فالوحدة والفراغ ، والفشل والإحباط ، والكبرياء الجريحة واليأس تجد عزاءً لها في الإشباع العابر للنشاط الجنسي . فالطفل لا يكون جائعاً بالضرورة حين يطلب قطعة كراميل ليلعقها . إنّ توق المرء لأن يكون مرغوباً ، والذي لم يلعبْ أي دور في الدافع الجنسي الأولي ولكن الحاحيته ازدادت في زمننا ، يُبدي عن عامل آخر يفعل فعله مقترناً مع الشهية الجنسية .

ومما ينطوي على مفارقة أنّ دور هذه الحاجة لا تمكن ملاحظته جيداً في سيكولوجيا الفعل الجنسي السويّ كما في تخييل الانحرافات والاستمناء . وليس لهذا الترافق علاقة مع شدّة الحاجة ، وإنما مع الفرص الأكثر ملاءمة للملاحظة . ومن الواضح أنه في التهيّج الجنسي السويّ أيضاً ، اقتناع المرء بأنه مرغوب يعزّز من شهيته الجنسية ، ويزيد من رغبته . ويعمل ارتكاس الشريك بمثابة منبِّه ، تتنوّع شدّته ،بالطبع ، بتنوّع الأفراد ، ولكنه على الدوام أداة في الحصول على الإشباع .

وتثبت الملاحظة التحليلية النفسية أنّ هذا الارتكاس يكون متوقّعاً مسبقاً في التخييل الذي يسبق الفعل الجنسي ويتمّ الاستمتاع به خلاله . وتتضح أهمية هذه الاستجابة حين تُقارن التجارب الجنسية التي تمّ الشعور خلالها بالاستجابة مع غيرها من التجارب التي افتقدت إليها . كما أن الرجل أو المرأة اللذين أُصيبا بالإحباط يعودان في الخيال إلى علاقات جنسية سابقة كانت أكثر إشباعاً . بل وفي بعض الأحيان تكون هذه العلاقات ذكريات تجارب مع الشخص نفسه . ومن المحتمل أن يكون لذكريات من هذا النوع تأثير على ثبات الولاء أو الإخلاص الجنسي حين يتمّ الشعور بها كوعود بإشباع مقبل . ومن جهة أخرى ، فإنّ غياب الاستجابة يتمّ الشعور به بمثابة رفض ، حتى ولو كان الشريك راغباً بالإتصال الجنسي .

يمكن إيضاح ما قلناه في هذه النظرة العامة إلى سيكولوجيا الارتكاس من خلال بعض الأمثلة المقبوسة من الملاحظة التحليلية ا لنفسية . فأحد الشباب قطع علاقته مع فتاة يحتقرها ، وأقام علاقة مع فتاة أخرى . وفي علاقاته الجنسية مع الفتاة الثانية شعر أنه غير مُشْبَع ، ووجد لدهشته أنّ تخييله يرتد دوماً إلى خليلته التي تركها . وعلى الرغم من أنه لا يتوق إليها في وعيه ويفضّل الأخرى عليها ، فإنّ استيهامه كان مثقلاً بذكريات من تجاربه الجنسية معها . وحاول ، بمساعدة فتاته الحالية ، والتي كانت جدّ راغبة بالتعاون ، أن يمثّل ثانيةً هذه المشاهد المُتذكَّرة ، ولكنه اكتشف أنه عندما يفعل اثنان الشيء نفسه فإنه لا يبقى الشيء نفسه . وكان عليه أن يُقر أثناء التحليل النفساني أنه كان يفضّل الفتاة الأخرى بقدر ما يكون المقصود هو المظهر والطبع ، ولكنّ تفوقها لم

يمنع معاودة الصور التي تدور حول موضوعه السابق . إنَّ ما افتقده لدى الفتاة الثانية كان استجابةً شخصيةً معينة أبدتها الأولى . وقد استحضرت هذه الذكرى نفس الايماءات والكلمات ، وملاطفات محددة ، بل وترانيم بعينها للتنهّد والحديث ، والتي كانت قد شحذت رغبته أثناء النشاطات الجنسية . ولقد حاول دون جدوى أن يتخيّل أن الفتاة الثانية هي الأولى ؛ بل ودرّبها على التلفّظ بالكلمات نفسها ، والقيام بالحركات نفسها . ولكنه لم يستطع ربط الصور نفسها بها . لا بدّ أنه شعر في لا وعيه أنّ استجابة خليلته الأولى كانت تعني تمتّعها بالإتصال الجنسي معه أكثر من خليلته الثانية أو بطريقة مختلفة عنها . فالأولى في استجابتها كانت تحقّق على نحوٍ أفضل الشروط الضرورية لإثارة هواه . فقد أرضتْ رغبته في أن يكون مرغوباً»[1] .

إنْ كان المقصود هو الدافع الجنسي الخام وحده ، أي الحاجة الملحّة للتخلّص من توتّر عضوي وحسب ، لا يعود بمقدورنا تفسير سبب عدم إشباع الحافز مع الفتاة الثانية مثل الأولى أو لماذا أحيا الاخفاق في نيل الإشباع منها ذكريات تجارب جنسية سابقة ولماذا حافظت هذه الذكريات على قدرتها التهيّجية القوية في تخييل الرجل . لماذا يستحضر الذهن بصورة ناشطة ومهيّجة حركات معينة ، وكلمات وايماءات الشريك الجنسي السابق ، ولماذا تجرى المقارنة بين كلا التجربتين ؟ ولماذا تبهت التجربة الجنسية الجارية مع الفتاة الثانية حين تُقارن مع التجربة المتذكَّرة ؟

نحن نتحدث عن الإشباع الجنسي كما لو كان تجربةً عمياء لا تميّز بين الأشخاص وتبقى هي نفسها في جميع الأوقات ومع كل شريك ، لكنَّ هذا الافتراض لا يصحّ إلّا في ميدان الدافع الجنسي البدئي . أما حين تتحد عوامل أخرى مع الجنس ، فإنَّ السؤال التالي يكون قيّماً : إلى أي حدّ يكون الإشباع مشبعاً ؟ ليس ثمة درجات وحسب

---

1 ـ إنَّ التمييز الذي عرضته إحدى الشابات في أكسفورد ، مسيسيبي ، على ويليام فوكنر يعبّر على أفضل وجه عن اختلاف موقف المرأة : « إن كنت أميل إليه ، فإنني أتركه . إن كنت أحبه ، فإنني أساعده » .

وإنما فروق دقيقة وظلال في نوعية الإشباع الذي يمتنع عن التوصيف السيكولوجي ويروغ منه ، فالتجربة الجسدية مشروطة أيضاً بما يجري في الذهن ، وخاصة في شكل التخييل المتعلّق بالشريك المحدّد . ثمة عامل شخصي ، مجهول غالباً أو غير مميّز على الأقلّ ، يدفع المرء إلى التمييز بين التجارب التي تكون العلاقات الجنسية فيها بمثابة العنصر المشترك الوحيد .

أما المثال الثاني ، والذي اخترته . بسبب سوائه Normality ، فيثبت أهمية العامل الشخصي السيكولوجي بطريقة هي أكثر إدهاشاً بَعْد . رجل تخاصم مع زوجته قبل وقت قصير من مضيّهما إلى الفراش . لم ينم وشعر بحافز جنسي مبهم . وحاول عبثاً أن يربط هذه الحاجة بزوجته ، المستلقية قربه . وبالطبع ، كان يعلم أنّ مقاربة زوجته جنسياً لم تكن ممكنة فقد كانت منزعجة منه إلى أبعد حدّ . وإلى جانب ذلك لم يشعر هو نفسه برغبة جنسية تجاهها في تلك اللحظة . وفي بحثه عن صور ملائمة لرغبته تذكّر أحداثاً جنسية من حياتها الماضية ، وخاصة في السنة الأولى لزواجهما ، وتهيّج بشدّة . لقد تذكّر خاصةً إتصالاً جنسياً في غابة في فصل الصيف . وأثاره تذكّره تهيّج زوجته في ذلك الحين ، كيف التصقت بجسده بشدّة وضغطته ، وما قالته آنئذٍ ، وهلمجرا . كان يعلم أنه ليس بمقدوره في تلك اللحظة القيام بإتصال جنسي مُشْبع مع زوجته ، المستلقية إلى جانبه ، لكنه استمنى بصورتها المتخيّلة حين نالها في الماضي . لقد استبدل زوجته الفعلية الحاضرة بصورتها حين بدت مرغوبة وخاصة حين بدت راغبة به . ولقد حصل أن نظر إليها وهو يمارس العادة السرية فتراجع تهيّجه وكأنما أصابته حالة من الجزر ، ولكن المدّ عاد ثانية حين تذكّر التجربة السابقة من جديد .

ليس هذا المثال الذي أوردناه بالمثال النادر الحدوث[1] . وغالباً ما يسمع المحلّل

---

1 - بينما لا تستبعد القسوة أو حتى التعطش للدم الموجّهة نحو الموضوع التهيّج الجنسي - بل هي غالباً تعمل في الانحرافات بمثابة عوامل مهيّجة - إلّا أنّ العداء ، والنقمة والضغينة تمنع تطور الرغبة . وحتى في الحالات النادرة حيث تُخلي هذه القاعدة المكان للإستثناءات فإنّ التيارات المضادة المكبوتة تتداخل مع الإشباع .

النفساني رجالاً يقرّون بأنهم شعروا بعدم الإشباع أثناء الإتصال الجنسي أو بعده مباشرة وأنهم استمنوا عقبه ، مثارين بصور من عندهم . فالتهيّج الجنسي أوقظه الإتصال مع الزوجة ،لكن هذا الإتصال لم يُرْضِ الرغبة ، ولا الإمناء تمكّن من تسكينها . ويخمّن السيكولوجي ـ وهو تخمين كانت قد ثبتت صحته في حالات كثيرة ـ أنّ الرجل لم يتمكّن من بلوغ إشباع كامل لأنّ وساوس أخلاقية أو جمالية منعته أن يطلب من زوجته ممارسات جنسية معينة (ممارسات شاذة ، مثلاً) وأنّ الفعل قصّر عن إشباعه لأنّ هذه الشروط الخفية لم تتحقّق . لكن هنالك ، على أية حال ، حالات أخرى تُفْتَقَد فيها استجابة المرأة أو يتمّ الشعور بأنها غير مُشبِعة . أما الصور التي تُسْتَحضَر أثناء الاستمناء فهي تمثّل وضعية تتحقّق فيه الشروط الضرورية .

يمكن تقييم أهمية الاستجابة في الجنس على أفضل وجه من خلال البحث التحليلي في استيهامات الاستمناء . وليس هذا بالأمر الغريب كما يبدو للوهلة الأولى . فهنا تتأمن شروط أكثر ملاءمةً للملاحظة إذْ يمكن عزل سمات خاصة للاستيهامات . فالغياب المادي الحقيقي للشريك الجنسي يشترط بالضرورة بديلاً متخيَّلاً . وما يستدعيه الخيال ليس ، بالطبع ، إلاّ تلك المشاهد ، والمواقف ، والكلمات المرغوبة إلى أبعد حدّ . ومن الملحوظ ، فوق ذلك ، أنّ تخييل الاستمناء غالباً ما يوقظ ذكريات تجارب جنسية واقعية ، ومن المميّز أن التهيّج الجنسي فيها يزداد حين تُسْتَحضَر استجابة الشريك الحنونة أو المشبوبة .

صحيح أن الاستيهامات المصاحبة للاستمناء غالباً ما تحدث قبل أن يكون الشخص قد أقام أي إتصال جنسي ، ولكن الرغبة في الاستجابة تلعب دوراً مهماً إذا كان الحالم ناضجاً ، حتى عندما تسبق الفكرة التجربة . وأعرف رجلاً غالباً ما يعود في ذكرياته إلى تجربة محددة حصلت قبل عشر سنين ويتهيّج لها دائماً . فحين كان في السادسة عشر قام أبواه برحلة وتركاه في البيت وحده مع الخادمة التي تكبره بعدة سنوات . وفي إحدى المرات ، وبينما هو عائد متأخراً ليلاً إلى البيت ، نادته الفتاة من غرفتها . وحين دخل وجدها عارية في السرير . ولقد تمّ ترصين هذا المشهد في أخيلته

بكل التفاصيل التي يتذكّرها . إنه يسمعها تناديه « يا صغيري العزيز » ، ويشعر بها تقبّله على نحو متواصل وتشدّه إلى جسدها . ويزداد تهيّجه حين يسترجع أنها هي نفسها التي تناولت قضيبه وأولجته في فرجها . ويتخيّل أنه يشعر ثانية بحركاتها المحمومة إثر ذلك ، وأنّ جسدها برمّته يرتعش من جديد ، وأنها تتأوّه وتتنهّد وتلفّ ساقيها حوله متشبّثةً . ويتخيّل أنه يسمع صوتها منادياً « حبيبي ! » « أوه ، هذا حسن ! » و « هيا ! هيا ! » . وهو حين يتخيّل حنانها وحماسها المتّقد ، فإنه يختبر قذفاً مشبعاً جداً .

إنني أعتبر من الضروري تسجيل هذا الاستيهام بكل تفاصيله النوعية على نحو دقيق لأنّ التفاصيل العرضية والتي تبدو غير ذات دلالة في الظاهر هي هامة من أجل الفهم السيكولوجي لمثل هذه الاستيهامات . فالأشخاص الذين يصدمهم بسهولة هذا الوصف ، والذين يرغبون بكبت هذه المادة الموحية أو الإباحية ، يدفعون ثمن محافظتهم على « البراءة » افتقاراً للفهم . إنّ العوامل الهامة في مثل هذا الاستيهام هي الدور المزدوج الذي يلعبه الرجل ، حيث يقوم بكل من دوره ودور المرأة الغائبة ؛ ودلالة الكلمات (والتنهدات ، والهمهمات) باعتبارها منبّهات ؛ وزيادة الرغبة عبر كون المرء مرغوباً .

وإذا ما كنّا قد أسّسنا لأهمية الاستجابة في هذه الأمثلة من الحياة الجنسية للرجال ، فإن دور الاستجابة كعامل أساسي بالنسبة للنساء واضح بما فيه الكفاية ، لأنّ رغبة الرجل الجنسية هي عموماً شرط لازم لرغبات المرأة الجنسية . وتخييل المرأة ليس أقلّ حيوية من تخييل الرجال بالتأكيد ، لكنّ منطلقه السيكولوجي هو عادة التفكير بأن رجلاً واحداً أو كثيراً من الرجال يرغبون بها .

كتب فرويد مرة أنّ الليبدو ذكوري في طابعه ، حتى حين يوجد لدى النساء . وهذا القول لا يبدو لي صحيحاً . فلو كان صحيحاً ، فإن النساء كجنس ما كنّ قادرات على الشعور بالرغبة الجنسية . وثمة نواة من الصواب في تأكيد فرويد هي حقيقة أنّ العدوانية في الدافع الجنسي ذكورية ، حتى حين توجد لدى النساء . وأنا أقصد أنّ العدوانية لدى معظم النساء هي أقلّ تطوراً منها لدى الرجال . كما أميل إلى الزعم بأنّ

هذا الافتقار ليس قائماً على عوامل سيكولوجية بقدر ما هو قائم على عوامل بيولوجية .

وإذا ما أخذنا هذه الاعتبارات بالحسبان فسوف نفهم بسهولة أنّ التماهي اللاواعي أو الواعي مع الرجل الذي يخطب ودّها ويرغب بها يصبح ضرورة بالنسبة لتخييل المرأة كي تشعر بالإثارة الجنسية . فتخييل النساء محكوم بالصيغة التالية : إنه منجذب إليّ ، يرغب بي ، يحبّني . وليس لخيالهنّ من طريق آخر في عرضه لهذا التصاعد Cresendoسوى الاضطلاع بدور الرجل في استيهامهنّ . وفي حين يمكن أن يُفْتَقَد انتحال دور مزدوج في استيهامات الرجال ، نجد أنّ هذا الانتحال قلّما يغيب في تخييل النساء . وليس طابع الجنسية النسوية المنفعل أو الترقّبي بالأحرى هو المسؤول وحده عن هذا الفارق . فثمة عوامل سيكولوجية مشروطة بنموذجنا الثقافي تفعل فعلها أيضاً على النساء . ففي حين يمثّل تهيّج المرأة الجنسي المتزايد ، واستسلامها وحماسها إضافةً جدّ ملذّةً إلى إشباع الرجل الفيزيائي ، فإن التهيّج والفعالية الكافيين من جانبه هما منطلق ضروري لإيقاظ رغبة المرأة . ويمكن للمرأة أن تشكّ كثيراً بجاذبيّتها ، لكنّ عدد اللواتي يمكنهنّ الشكّ بقدرتهنّ على استنهاض فحولة الرجل هو عدد ضئيل جداً . (ومن المؤكّد أن ثقة الرجال بقدرتهم على إثارة المرأة جنسياً لا توازي ثقة النساء) .

يفسّر هذا الفارق السيكولوجي ، مع كل أصدائه ، سبب وقوف ارتكاس الرجال الجنسي حيال جاذبية النساء بمثابة منطلق لمعرفة الذات في تخييل النساء . فمن دون هذا الارتكاس ما كان التهيّج الجنسي ليتطوّر ، أو أنه كان يتوقف في الحال[1] . ويمكن القول عموماً أنّ تخييل النساء يبدأ باستيهام أنّ رجلاً يشعر بالانجذاب نحوهنّ ،

---

1 ـ هذا الارتكاس الذكريَ يكون متأخراً في بعض استيهامات النساء ، ولكنّ ذلك لا يتعارض مع القول الوارد أعلاه ، فهو لا يعني سوى أنّ الإرجاء ممتع وتبدو القدرة على انتزاع الرجل الممانع تحت ضوءٍ هو أكثر سطوعاً حتى . ولقد سبق لي أن ناقشت عامل الإرجاء في الجنس في كتابي « المازوخية لدى الإنسان الحديث » ، فارار ورينهارت ، 1942 .

يخطب ودّهنّ ، يغازلهنّ ، ويرغب بهنّ ، يتلفّظ بكلمات عذبة ومُطرية ، يُطلق عليهنّ أسماء الدلع ، يقبّلهن ، ويقاربهنّ جنسياً . وفي الغالب ، فإنّ الاستيهام لا يبلغ هذا الطور الجنسي . وإليكم كيف تصف إحدى الفتيات الصورة التي تفضلها : « أزعم أنني رجل وأقول لنفسي : أحبُكِ ، أحبكِ . وذلك من المفترض به أن يكسر مقاومتي لا أن يهيّجني جنسياً » . أما في تخييل الرجال ، فالمقاربة الجنسية هي أكثر مباشرة ؛ ولا يُستخدم الحنان إلاّ كوسيلة لجعل المرأة مستعدّة للعلاقات الجنسية . وعموماً ، فإنّ عاطفة الرجال تظهر بمثابة شرط لازم في استيهامات النساء ، في حين أنّ حنان المرأة وحماسها هما النتيجة النهائية في استيهامات الرجال ، وذلك بالانسجام مع الطبع الترقّبي المنفعل والديناميكي الفعّال لدى كل من الجنسين .

إذا أرادت إمرأة أن تتمتّع باستيهام جنسي محض ، فإنها عليها أن تلعب دور الرجل أو الفتى الذي يقاربها جنسياً . عليها أن تتخيّل أنها هذا الرجل وأن تختبر تهيّجه . وتشعر معظم النساء مثل تلك الفتاة التي قالت أثناء التحليل : « بالطبع أريد الجنس ؛ لكنني أريد أيضاً ما هو أكثر من الجنس » . وفي لعبها ذلك الدور المزدوج ، دور الرجل الفعّال والراغب ، فضلاً عن دورها هي ، على المرأة أن تتخيّل أنها الرجل الذي تهيّج إلى درجة بحيث يمكنها التمتّع بما لديه من هوى متزايد ، وكذلك بمقاومتها الخاصة ، واستسلامها النهائي . وغالباً ما تعمل الفتيات ، في تخييلهنّ ، على إرجاء قبولهنّ ، حيث يخشين أن يسيء الرجل فهم استسلامهنّ السريع . (« ما الذي سيظنّه بي ؟ قد يعتقد أنني متهتّكة ») . ويتضح تماماً طابع هذا الأداء للدور المزدوج حين لا تكتفي المرأة بالتخيل وحسب ، وإنما تقوم على نحوٍ ما بحركات الرجل ، وإيماءاته ، وأفعاله الجنسية . وبذلك تلتحم انفعالات الرجل وانفعالات المستوهمة في النهاية . ولقد وصفت إحدى الفتيات هذا الطور بالعبارة التالية : « لم أكن أعلم أبداً من هو الذي يشعر بماذا » .

الاستجابة

إنّ التعارض بين تخييل النساء،الذي يكون فيه تهيّج الرجل الجنسي شرطاً أساسياً ضرورياً لرغبتهنّ الخاصة ، وبين تخييل الرجال ، والذي يكون حماس المرأة في استيهاماته بمثابة المكافأة ، هذا التعارض يقودنا إلى طرح بعض الأسئلة الشائقة . وهي أسئلة لم يطرحها البحث السيكولوجي بسبب افتقاره إلى الشجاعة ، ولذا فإننا لم نسمع بها من قبل . لكن حقيقة أنها لم تبرز إلى السطح لا يعني عدم أهميتها ووثاقة صلتها بالموضوع . ليس ثمّة أي شكّ أبداً في أنّ شخصاً ما يمكن أن يبقى فاتراً غير متهيّج ،بينما يُثارُ شخص آخر جنسياً ويقارب الأول . وهنالك أمثلة كثيرة تثبت هذه الحقيقة ، خاصةً عند نساءٍ رفضن رجالاً يلحّون عليهنّ .

إليكم هذا السؤال الشائق من الناحية السيكولوجية : هل يمكن لرجل يهيّج المرأة جنسياً ،ويلاحظ أمارات رغبتها ، ألاّ يتهيّج هو نفسه رغم ذلك ؟ وإلى أي حدّ يمكن لهذه الإمكانية أن توجد لدى المرأة ؟ ومن الواضح بالطبع الفارق بين ذلك وبين المقاربة الجنسية لذكر غير مرغوب . فالرجل يرغب في أن يهيّج المرأة ويوقظ رغبتها قصداً . إنّ الإجابة على هذا السؤال تقدّم معلومات تتعلّق بدور الاستجابة الجنسية . والإجابة هي أنّ بمقدور رجل أن يهيّج إمرأة جنسياً عامداً دون أن يكون متهيّجاً هو نفسه . فهذه الإمكانية موجودة ، لكنها نادراً ما تتحقّق . فثمة ، مثلاً ، أنماط سادية ممن يمكنهم ملاحظة كل أمارات التهيّج الذي عملوا هم أنفسهم على إثارته ، دون أن يستشعروا أي أثر للرغبة الجنسية .

وحتى لو استبعدنا هذه الحالات المرضية ، فإنّ جوابنا يبقى بالإيجاب ،ولكن مع تحفّظات شديدة ؛ لأنّ الشخص السويّ لا يمكنه ممارسة مثل هذه اللامبالاة الواعية إلاّ لفترة وجيزة وعبر إجهاد أعظمي لقوة إرادته . إنّ المحافظة على مثل هذا الموقف « الانعزالي » لا تمكن إلاّ بتحكّم بالنفس عظيم . كما لا تمكن المحافظة عليه إلاّ بدوام وجود قوة الإرادة هذه . وإذا كان هذا الاستنتاج صائباً ، فإنّ تهيّج الشخص الآخر يعمل عندئذٍ بمثابة منبّه قويّ ، لا بدّ من مقاومة شديدة تجابهه . والسؤال هو التالي : لماذا تكون المقاومة ضرورية إنْ كانت رغبة المرء الخاصة هي مجرد تعبير عن دافع جنسي أولي ، عن حافز للتخلّص من توتر عضوي ؟

ها هنا نوع من البرهان غير المباشر أو ، لنَقُل على نحوٍ أدقّ ، البرهان التجريبي على أنَّ في الرغبة التي تدفع رجلاً إلى إمرأة أو إمرأة إلى رجل ما يتعدّى الدافع الجنسي العضوي البسيط . فما يفعل فعله هنا ليس الدافع الجنسي البدني وحده ، وإنما دافع مزدوج حاضر لدى الفرد . ذلك أن الأثر الناجم عن إثارة المرأة يرتدّ على الرجل الذي أثارها ، كما لو أنّ شخصاً يحاول إضرام النار في بيت جاره فيحترق هو ، أيضاً . ولكننا لم نستطع تفسير انتقال التنبيه الحسي إلى المثير . ففي قيام الرجل بتهييج المرأة يتمتّع هذا الرجل بكل من قدرته على إثارتها ورغبته في انتزاعها . ولعلّ هنالك دوافع أخرى تفعل فعلها من مجال الأنا ، فمن المؤكّد أن ما يؤدي إلى هذه النتيجة ليس الدافع الجنسي الأوليّ ، والفجّ . وهذا دليل لا يدع مجالاً للشكّ فيما يتعلّق بالأهمية السيكولوجية للاستجابة الجنسية . وحتى حين تتهيّج المرأة عن طريق بعض الوسائل الميكانيكية التي يطبّقها الرجل ، فإنّ ملاحظته لرغبتها الجنسية سوف تثير التهيّج لديه .

أما إذا كان جائزاً توسيع معنى كلمة « استجابة » بحيث تتضمّن معنى الارتكاس ، فإنّ ممارسات منحرفة معينة سوف تدعم حجّتنا . فالملاحظات الخاصة بالأشخاص الجنسيين المثليين ، والساديين والمازوخيين لا تترك مجالاً للشك في أنّ تهيّج الشريك هو عامل عالي القيمة في إشباعهم الخاص . وكما في الحياة الجنسية السويّة ، فإنّ إدراك الاستجابة ، وأكثر من ذلك ملاحظتها المباشرة ، تعزّز من التهيّج إلى حدّ

كبير . وهي لدى بعض الأشخاص لا تشحذ الشهية وحسب ، بل وتوقظها أيضاً . ويشبه الأمر شخصاً قد لا يدرك أنه جائع حتى يرى شخصاً آخر يأكل بمتعةٍ كبيرة .

يتمتّع المرء ، وعلى نحو خاص ، بملاحظة استجابة الآخر في النشاطات المنحرفة التي يلعب فيها الاذلال والتبخيس أو تحقير الذات أدواراً حاسمة . فمثل هذه الملاحظة الشهوانية تُشرِكُ في اللّذة الجنسية الصرفة إشباعاً آخر مصدره دافع السلطة . ذلك أنّ انتزاع الآخر ، والإحساس بالسلطة ، وأيضاً إنزال العار بالآخر ، أو استنفار صفاقته هي عوامل تلعب دورها في نوعية هذه المتعة المنحرفة وشدّتها . أما في الانحراف المازوخي فيتمّ بلوغ هذا الارضاء بمباهاة الشريك السلبي ذاته مع الشريك الإيجابي .

لنعد الآن إلى سيكولوجيا النساء ، وسوف يتّضح أن التماهي اللاواعي مع الشريك المستجيب هو اللحظة الأساسية في السيرورة الدينامية . ويمكن لنا بسهولة أن نبينّ أنّ لدى النساء عموماً فرصة أفضل من فرصة الرجال للبقاء غير متورّطات انفعالياً في التهيّج الجنسي ، حتى ولو كنّ قد أثَرْنَ بأنفسهنّ هذا التهيّج . ومشهد الرجال المثارين من قبل نساء هو أكثر شيوعاً من مشهد النساء المثارات بالمثل من قبل رجال . ولكنّ النساء ، شأن الرجال ، لا يمكنهنّ ملاحظة ما أثرنه من تهيّج متعمّد والبقاء هادئاتٍ مع ذلك ، إلاّ بإبداء قوة إرادة عظيمة . وغالباً جداً ما يكون ارتكاس النساء متأخراً ، لكنهنّ يبدين في النهاية ارتكاساً مماثلاً كما الرجال . وإليكم مثالاً مقنعاً : جاءت إحدى الفتيات إلى التحليل حيث كانت تعاني من حالات همود ، ومصاعب في عملها ، وعدداً من الأعراض الهستيرية . وكانت السمة الأبرز في قصتها المرضية حالة استمناء قهري ، كانت تقوم به يومياً ، وفي بعض الأحيان عدة مرات في اليوم . وبالطبع فإنّ استمناءً بهذا الإفراط هو نادر جداً لدى الفتيات الشابات اللواتي لم يكن لهنّ من قبل أي إتصال جنسي ونشأن في مستوى ثقافي معين . وكانت مريضتي هذه والتي تنتمي إلى عائلة كاثوليكية ذات قواعد صارمة فيما يتعلّق بالسلوك الجنسي ، تشعر بالعار والإثم لانصياعها للغواية كل يوم تقريباً .

كان الانطباع الأول المتكوّن لديّ من خلال التحليل أنها تهيّجت أثناء حفلات

« تقبيل » عابرة مع شباب وأنّ هذا التنبيه أدّى إلى نشاطات استمنائية . ولكن ثبت أنّ هذا الانطباع خاطىء حيث كانت تستمني ولو لم تلتقِ هؤلاء الشباب ، وحيث أنّ الصور التي أثارتها جنسياً لم يكن لها علاقة بهم . وسرعان ما اتضح أنّ تهيّجها الذاتي كان قد بدأ قبل بضع سنوات ، بعد أن قطعت علاقتها مع شاب ظلّ صديقها المثابر لفترة طويلة .

وهذه العلاقة لها قصة غريبة . فالفتاة كانت قد استمهلت الفتى لبعض الوقت قبل أن تجد نفسها في حبّ معه . وكان ثمة بعض حفلات « العناق » ، المقتصرة على القُبل والضمّ . وكانت تتمنى أن تتزوج من هذا الرجل ؛ وقالت أنها غالباً ما قبّلته بحماس كي تجعله يتمنّى الزواج منها .وكانت تدرك أنّ هذه المداعبات تهيّجها جنسياً لكنها لم تتح له البتة لمس جسدها . وبعد أكثر من سنة أعلن هذا الفتى أنه ما عاد بمقدوره رؤيتها أبداً لأنه ، وكما قال لها « أُثير إلى درجة بالكاد يمكنه تحمّلها » . ورجته : « لا تذهب أرجوك » . وشعرت بجرح عميق . وسرعان ما حاولت لقاءه ثانيةً . وبعد شهور عدة من الترقّب القلق أعيدت العلاقة . وطلبت منه أن لا يسرف في معانقتها لأنها لا تستطيع أبداً أن تمنحه نفسها»[1] . لقد علّمتها أمها أنّ عليها أن لا تسمح أبداً لرجل أن يمسّها لأنه « سيفقد كل احترام لكِ » . وفي الحال بلغ الشابان تلك المرحلة

1 ـ العناق أقلّ إمتاعاً للفتيات مما نتوقع . كما أنّ التهييج الجنسي ، والذي لا يكتمل ، هو أيضاً غير ملذّ بالنسبة للنساء . ولقد وجد ر . س . وهيلين م . ليند في Middletown(نيويورك ، 1929) أنّ « معظم النساء يسمحن بالتقبيل والعناق لا لأنهنّ يتمتعنّ به بل لخشيتهنّ من أنهنّ لن يكنّ محبوبات إن رفضنه » . ولقد اشتكت إحدى الفتيات أثناء التحليل من الطبيعة غير المشبعة للعناق : « لا أميل إليه . إنه حارّ وصعب ويشعرك بالقلق . وإذا ما مضيت بعيداً ، احتاج للمضيّ أبعد ، ولا أستطيع » . وليس ثمة شك أنّ المعانقة المستمرة طويلاً ، وخاصة « المعانقة الثقيلة ». (يقول الفرنسيون : « Tout excepte' ca » ـ « كل شيء إلا هذا») هي ضارّة انفعالياً لأنها توقظ رغبات جنسية تبقى محبطة .

ذاتها التي بلغاها من قبل . هو يلحّ في طلب الإشباع الجنسي ؛ والفتاة تصده ، رغم خشيتها أن يتركها . وفي جهد يائس للتمسك به ، قررت أن تريحه جنسياً دون أن تتورط هي نفسها جسدياً أو انفعالياً[1] . كانت تستمنيه كلما طلب ذلك ، وكان يطلب ذلك يومياً وعدة مرات في اليوم غالباً . واستسلمت الفتاة كارهةً لهذه الممارسة ، لكنها ظلّت تؤكّد أن عليه ألاّ يلمسها . (« ما الذي سيظنه بي ! ») . واستمر هذا النشاط الجنسي أحادي الجانب شهوراً عدة ، زاد خلالها اشمئزاز الفتاة . كما شعرت بالإثم إذْ خشيت أن يتأذى الرجل بمثل هذا النشاط الجنسي المفرط . وغالباً ما كانت تناشده « دعنا نتوقف عن ذلك » ، لكنه أصرّ بل ازداد طلبه . وأضحت المريضة جدّ « عصبية » ومثبطة الهمة ، وخاصة أنه كان قد اختفى كل غزلٍ من جانبه و« تجاهلني كشخص وأراد الجنس وحده » . وفي النهاية قطعت العلاقة وسافرت إلى مدينة أخرى . وبعد فترة قصيرة بدأت تستمني وتستسلم للغواية أكثر فأكثر رغم مشاعر الخجل العميقة .

إنّ تخييل هذه الفتاة لا يدع مجالاً للشكّ بشأن السمة الأبرز لدافعها القهري : لقد تماهت مع هذا الرجل . وفي الاستيهامات المصاحبة للاستمناء لم تكن تستمني كفتاة ، وإنما كفتى . لقد واصلت تهييجه ، في تخييلها ، ولكنها لعبت دوره أيضاً . وقامت في الوقت ذاته بقلب الأدوار بصورة لا واعية في استيهاماتها ؛ لقد تخيّلت ما كانت ستشعر به لو أنّ الرجل فعل لها ما كانت قد فعلته له . ولقد احتالت هكذا في أن توحِّد في شخصها فردين اثنين . وكان من الملحوظ أيضاً أنها تبلغ في استمنائها وبانتظام رعشة مهبلية عميقة .

وبالطبع لا بدّ أن الفتاة قد شعرت بالتهيّج هي نفسها عندما ساعدت الرجل

---

1 - غالباً ما تستعمل النساء الجنس كطريقة لكسب عاطفة الرجال ، وغالباً جداً ما يستعملنه للتمسك بهم . ولقد قالت إحدى الفتيات : « عندما تكونين صعبة المنال قد تجدين أنهم يتركونك وحدك » .

بنشاط على التخلّص من توتره الجنسي ، رغم أنها لم تسمح لنفسها بالشعور في وعيها بالإثارة . لقد قررت على نحو ثابت أن لا تتورط ، وأن تحتفظ بتحكّمها بذاتها . ولقد أفلحت وقتها ، لكنها أخفقت بعد ذلك . فخلال استمنائها القهري استرجعت ما لم تكن قد شعرت به على نحو واعٍ من قبل ؛ وشعرت أيضاً بما لا بدّ أنّ الرجل كان قد عاناه .

إنّ الطبيعة الجنسية لاستمنائها لا يمكن ، بالطبع ، أن تكون موضع شكّ . ومع ذلك فإنّ ما يبعث على هذا الفعل القهري ليس الجنس وحده . فقد شعرت في لا وعيها بالإثم لكونها عذّبت الرجل بتهييجه ومن ثم امتناعها عنه . كما أن حالات الهمود ، ومخاوفها من أنها قد تمرض بسبب إفراطها في الاستمناء ، وأعراضها الهستيرية تعكس أيضاً نزوعات العداء والتنافس الموجّهة ضد الرجل . والمسحات السادية التي أبدتها ضدّه كانت الآن موجّهة ضد ذاتها . ومن الواضح بما فيه الكفاية ، في هذه الحالة من الاستجابة المتأخرة ، الدور الذي يلعبه التماهي مع الرجل الذي قلّدت الفتاة رغباته الجنسية « النهمة » .

يثبت فهم الحالات المشابهة لهذه الحالة وجهة النظر التي مفادها أنّ من الضروري للنساء أيضاً القيام بتضحيات عظيمة إن أردنَ البقاء فاترات غير متهيجات بينما هنّ يهيّجن الرجل جنسياً . ولم أرَ حتى الآن أية حالة ، ما عدا الحالات المشار إليها قبلاً ، تتعارض مع هذا الاعتقاد . فمن الواضح أنّ ما من شخص يمكنه أن يثير جنسياً ويشكل متعمّد شخصاً آخر لفترة من الزمن مهما تَطُل ويمكث هو نفسه ساكناً مع ذلك . ومن الواضح أنّ التماهي اللاواعي للشخص المهيِّج مع المهيَّج يمتلك قدرة انفعالية[1]أعظم مما أسبغناه عليه من قبل .

1 ـ نقلت إليَّ مريضة نثرات من الصور التي تراودها قبل أن تغفو ، وقالت : « ألفّق قصصاً عن شارلي على هواي . أقول لنفسي تلك الأشياء التي أودّ أن يقولها لي ، ولكنّني لا اشعر على هذا النحو إن لم يشعر هو حيالي على هذا النحو » .

إنّ القدرة اللاواعية لاستجابة الشريك تمثّل عنصراً جديداً في ديناميات الجنس . لقد أراد رجل الكهوف إشباع الحافز الجنسي الضاغط وحده . ولم يكن يبالي بما تشعر به المرأة . أما بالنسبة للرجل المثقف من زمننا فقد أصبحت استجابة المرأة ضرورة انفعالية . وغياب هذه الاستجابة يضرّ بإشباعه الجنسي والانفعالي الخاص . ونحن منساقون إلى نتيجة مفادها أنّ بعض التغيرات السيكولوجية ، التي نجهل طبيعتها ، هي التي أيقظت هذه الحاجة الجديدة .

إنني لو تجاسرت على تخمين الاتجاه الذي علينا أن نبحث فيه عن هذه العوامل الخفية ، فإنّ تهوّري لا يمكن غفرانه إلا بغياب أي مفتاح آخر . وباعتقادي أنّ تغيّراً في ثقة الرجال بأنفسهم ربما قد شكّل العامل الأشدّ أهمية . ويبدو أن الرجل الحديث وبصورة لا واعية يشكّ في أنه جذاب ؛ بل ويفكّر أحياناً أنّ جسده قبيح ومنفّر . ويمكن التغلّب على مثل هذا الشكّ بالنفس بحدود معينة إذا ما تمّ القيام بالمقاربة الجنسية للمرأة ، ولكنه قد يتلبّث طويلاً جداًعند مستوى أعمق . أما الاستجابة الانفعالية من قبل المرأة ، في الوقت الراهن على الأقل ، فتكنس بعيداً هذا الشكّ . ويبدو لي أنّ رغبة المرء بأن يكون مرغوباً تبدأ بالشكّ في أنه مرغوب . ولا يمكن لهذا الشكّ أن ينتهي إلاّ بتجلٍّ واضح للاستجابة التي تثبت أنّ الرجل يشبع أماني ورغبات المرأة . وفي كثير من الحالات ، يبلغ حماس المرأة حدّ امتلاك الرجل الذي تقيّده باستسلامها . ويكمن سرّ هذا النصر في حقيقة أنّ المرأة تشبع إحساس الرجل بالقوة وتسبغ عليه مجد الفحولة . وغالباً ما تشتكي الزوجات من أنّ أزواجهنّ غير المخلصين يلتمسون الإشباع في أحضان نساء أقل قيمة . والكثير من هاته الزوجات لم يختبرن الرعشة أبداً ، وهكذا يحرمن أزواجهنّ بصورة لا واعية من إشباع الأنا الذي لا ينفصل عن الإرضا الجنسي العميق . وغالباً ما يلتمس الرجل هذا الإشباع ، الضروري جداً بالنسبة له ، لدى موضوعات أدنى .

وعند مستوى أرفع ، يعكس حافز المرء لأن يكون محبوباً الشكوك ذاتها . ولا بدّ أننا جميعاً نشكّ أحياناً في كوننا محبوبين . كلنا عراة تحت ثيابنا ، ولدينا أسباب للاعتقاد

أنّ أجسادنا العارية ليست جذابة . فنحن نعرف عيوبها ، ضعفها المستتر أو بقعها المنفّرة . ولكننا أيضاً عراة تحت الأقنعة التي نرتديها أمام الآخرين وأمام أنفسنا . ونعرف في لا وعينا ليس أننا نبلاء وحسب بل أيضاً أننا وضيعون ، ليس أننا لطفاء وحسب بل أيضاً أننا قُساة ؛ كما نعرف في لا وعينا كثيراً من الحقائق غير السارة عن أنفسنا . إنّ شعورنا بالإثم يحدّ من ثقتنا بالنفس . الأمر الذي يبرر شكوكنا بأننا غير محبوبين . وحين ننشد الحب ، حين نريد أن نكون مطلوبين ومحطّ إعجاب واحتفاء ، فإننا نفعل ذلك بصورة رئيسية ، لأنّ كوننا محبوبين يعني غفران أغلاطنا ونواقصنا ، سوء أفعالنا وجرائمنا التي نقترفها في أفكارنا .

أن تكون محبوباً يعني أن تكون لك قيمة مميزة ، وأن تحظى بالغفران ، وأن تنتمي . والرغبة بأن تكون مطلوباً هي واحدة من الحاجات الانفعالية الأقوى التي ترافقنا خلال حياتنا . إنّ كونك مطلوباً ، ومحبوباً ، يسكّن الشعور بالإثم الفردي ، ويؤكّد مجدداً أننا غير متروكين وحدنا وغير مرميين جانباً . والحاجة الجديدة للاستجابة في الحب وفي الجنس يمكن ردّها إلى نفس المصدر شأن النزوات المتجّذرة في مآثر أخرى . فهي أيضاً تنبثق من الإدراك اللاواعي ذاته لقصورنا والجهد المبذول للتغلّب عليه . ذلك أنّ اقتناع المرء بأنه غير مرغوب يمنع تطور رغبته الخاصة . واعتقاد الرجال والنساء بأنهم غير محبوبين يمكن أن يدفعهم إلى نكران كل حب . ولقد قالت إحدى المريضات : « إنني جدّ خائفة من أن أُرفَض ، ولذا أرفض نفسي ، كي لا أعطي الفرصة لأي واحد آخر » .

إنّ فهم الأهمية المتزايدة للاستجابة وديناميات التماهي اللاواعي في التخييل والنشاط الجنسيين يتيح لنا صياغة قانون خفيّ يبدو أنه يتحكّم بعمليات الجنس في زماننا . ثمة مطلب داخلي يدفعنا لأن نفعل للآخرين ما نتمنى أن يفعلوه لنا . ولا مناص من الاقتناع الراسخ أننا في الجنس أيضاً لا ننال سوى ما نعطيه . وأنتم تقرأون وتسمعون الكثير اليوم عن « الجنس الفاتن » ؛ ولكن ما يعنيه ذلك ليس الدافع الجنسي ، الأوّلي ، الخام . فقدرة هذا الدافع على أن يكون فاتناً أو مجيداً لا تتعدّى قدرة

عمليات الإطراح . والفتنة لا يمكنها أن تنشر عبيرها إلا بتضافر الحافز الجنسي مع نزوات الحنان . وتثبت أهمية الاستجابة وعملية التماهي في الجنس أنهما ناتجان عن مثل هذه الخلائط .

إنّ لهذا الكتاب طبيعة التحدّي ، وينطبق عليه ذلك أيضاً من حيث طابعه حين أؤكد بجرأة ووضوح أنّ المكافأة في الجنس ليست الإشباع الفيزيائي وحسب وأنّ قوة الجنس ومجده ليسا جنسيين فقط .

إلتقاء وانصهار

نحن معنيون عند هذا الحدّ باندماج الحافز الجنسي ، والحاجة إلى الانتزاع ، والعاطفة . فقد كان من الضروري أن نفصل ونفرّق هذه الدوافع والحوافز التي قلّما نميّز بينها حين نتحدّث عن سعادة الثنائي الشاب جون وجين . ومن الضروري الآن أن نفهم أنّ ما يجعلها سعيدين هو اختلاط هذه الحاجات المختلفة . فجذب المرأة للرجل وجذب الرجل للمرأة هو تضافر للفتنة الجنسية مع الفتنة الشخصية . والاعتقاد بأنّ الرجل يمضي من الجنس إلى الحب بينما تأتي المرأة من الحب إلى الجنس قد يكون صحيحاً ، لكنّ القاعدة تخضع لعدد هائل من الاستثناءات الناجمة عن الفروق الفردية . كما أنّ امتلاك النساء حافزاً جنسياً أضعف من حافز الرجال هو أمر مشكوك فيه إلى حدّ بعيد . ولقد تخلّف لدينا هذا الانطباع من نماذج السلوك ، والتي هي نماذج مختلفة بالنسبة لكلا الجنسين في ثقافتنا ، ولكنه نجم أيضاً ، وعلى نحو أكثر تحديداً ، من حقيقة أنّ العدوانية والدافع إلى الانتزاع هي أكثر تطوراً وشدّة لدى الرجال . فاختلاف الخليط ناجم عن أنّ في الجنسية الذكرية قسطاً أكبر من دوافع الأنا الانتزاعية قياساً بالجنسية النسوية . وعلينا أن نأخذ بالحسبان أيضاً أنّ عوامل الكفّ والإعاقة تعمل عملها لدى المرأة ، لكنها لا تعيق التطور الكامل لجنسية الرجل .

تمكن مقارنة عملية اختلاط الدوافع الثلاثة : دوافع الجنس ، والقوة ، والحنان ، بخليط لا يمكن فصل مكوّناته أو إدراكها منفردة أبداً . فليس ثمة أي جدار بين هذه النزوات المختلفة ، وإنما مجرد غشاء يسمح بالتناضح Osmosis وهو تناضح

كامل لدرجة أنّ التعبير عن أحد الدوافع يمكن أن يظهر بمثابة تجلٍّ لدافع آخر . وهكذا يتشابك الجنس ، والعدوان ، والحب ، ويصبح الفصل بينهم متعذراً . فالنفس في الجسد ، والجسد في النفس . واقتران العاطفة والجنس هو الوقت المناسب واللحظة التي تسبق فوات الأوان في الحياة البشرية . وسحر جسد المحبوبة وسحر عقلها متّصلين بحيث يتعذّر على المحبّ التمييز بينها . فكلاهما يزرعان الاضطراب في أحاسيسه ، وكلاهما يرتقيان بأفكاره . وهذا التضافر هو من النوع المعقّد الذي يصعب نقضه ، شأنه شأن سجّادة شرقية تشكّل فيها الخطوط المجدولة لوحةً واحدة ، ولكنّ الخيوط المتحابكة يصعب اقتفاء أثرها .

ثمة أنهار ثلاثة قادمة من اتجاهات مختلفة يجري بعضها نحو البعض الآخر ، وتتحد مياهها لتشكّل تياراً قوياً يجرف كل عائق . ويمثل التقاء هذه الأنهار محصلة أعظم في قوتها من مجرد جمع تياراتها الفردية . فمن أجل تقدير القوة الناتجة ، تتوجّب مضاعفة قوة كل نهر بالأخرى وليس مجرد إضافتها . ذلك أنّ كل نهر يكتسب من الآخر سعةً وعمقاً . وحين تنظر إلى هذه اللوحة ، سوف تدرك تماماً أنّ الحب الرومانسي ليس حافزاً جنسياً راكداً ، وإنما هو رافد عميق وسريع من دفق دوافع الأنا الأقدم . ولقد كان منفصلاً يتبع مجراه الخاص إلى أن انضمّ إلى تيارات الجنس والهيمنة . وعند هذا الحدّ فكّر الشعراء بتوحيد الحب الأرضي والسماوي ، هذا الحدّ الذي يتمّ عنده تجسير الهوة القديمة بين الحاجات الجسدية والحاجات الثقافية ، وحيث تتمّ تلبية الحافز الجنسي والتوق إلى العاطفة . إنّ الجنس يأتي بالإشباع ويأتي الحب بالسعادة باعتبارهما اسهاميهما الخاصين في البهجة التي يشعر بها جون وجين في لحظات تحققهما العامر بالنشوة . ويمضي الابتهاج اللاذع والإشباع الرائق في طريقيهما ؛ وإجابة الجسد تصبح في الوقت ذاته استجابة العقل . ويكون إشباع الجنس كاملاً لأنه في نفس الوقت التعبير الدقيق عن الحنان وانتصار الأنا . ولا يعود بمقدور الشريكين في هذه التجربة العميقة الإشباع تمييز ما هو ملذّ وما هو ممتع ، ما الذي يُعطى وما الذي يُؤخذ . يتداخل هكذا العقل والجسد بحيث تنال مطالبهما في الإشباع اشتداداً متواقتاً ومتبادلاً .

إن هذا التوافق والتوالف بين الدوافع العظيمة الثلاثة ليس عاماً ، كما قد يُفتَرض ، وإنما هو الاستثناء ، ويدلّ على ذروة السعادة البشرية التي لا يتمّ بلوغها البتّة في كل حياة فردية . وغالباً ما تبقى الهوّة بين الجنس والعاطفة ، بين الحنان والتملّك ، دون تجسير نهائياً . فالدافع الجنسي يستحضر إلى العقل صوراً تختلف عن تلك التي تستحضرها العاطفة . والرجل الذي يبحث عن التحقّق الكامل غالباً ما يجد الإشباع الجنسي وحده ويشعر أنّ توقه إلى الرفقة والمشاركة غير محقّق ؛ كما أنّ المرأة لا تكون قادرة في الغالب على التمتّع باللّذة الجنسية ما لم تكن واثقة من كونها محبوبة .

وكلما ازدادت متطلبات الحضارة ، كلما اكتسب ارتكاس الشريك دلالة وأهمية أكبر ، وكلما أضحى العنصر الشخصي بشكل عام وفي الإشباع الفيزيائي عاملاً حاسماً . إنّ الصعوبة تتزايد بالنسبة للرجل المثقف بشأن تمتّعه باللّذة الجنسية دون أن يقدّم مقابلاً ، ولا يمكنه فعل ذلك إلاّ إذا تواجدت الرغبة الجنسية والعاطفة معاً لدى المرأة . ليس بالمكافىء الجنسي للخبز وحده يجب أن يحيا الإنسان . فهو يرغب بما هو أكثر من إشباع الشهوة الفارغة للحظة عابرة . وهو ، وهي خاصةً ، يتمنى أن لا تكون النزوات الجنسية والحاجة للرفقة منفصلة بَعْد أبداً ، وأن يكون الشخص الواحد قادراً على تحقيق متطلبات العاطفة ، والجنس والقوة .

ليس ثّمة حلّ عام للإشكالية . وعلى كل رجل وكل امرأة إيجاد سبيل فردي لنفسه ولنفسها . فما من نزهات جماعية يمكن القيام بها إلى مدينة الحب السرّية . ولكن حين يجد ثنائي مثل جون وجين الطريق إلى مملكة الحب ، فإنهما يؤكّدان لنا أنهما يشعران وكأنهما شخص واحد . ولا تعود حدود الفردية حواجز ، ولا عوائق تفصل الجنس ، وشهوة السلطة ، والحب . ونحن جميعاً يحيّرنا مثل هذا المشهد ، حتى السيكولوجي ، الذي يشعر بفضول متزايد وهو يراقب القوى الانفعالية المتنازعة وهي تتعاون فجأة . ولسوف يمرّ وقت طويل قبل أن يتمّ إشباع فضوله برمتّه .

مقطوعة ختامية

ونحن نودّع جون وجين وكثيراً من الأزواج الشباب مثلهما ، ندرك أنّ غرامهما سوف لن يدوم طويلاً . بانتظارهما نازلات وأحزان ، خيبات أمل وصراعات من مختلف الأنواع . ومع ذلك ، فإنّ متعاً أخرى مُعدَّة لهما . وكلنا أمل أنّ شفق السعادة التي هي سعادتهما الآن سوف يرافقهما على دربهما المشترك .

نتطلّع إلى الوراء ، ونتساءل بدهشة : أهذا هو الخليط الذي يكوّن الغرام ؟ أحقاً أنّ هذه المكوّنات القليلة هي التي تخلق هذه الفتنة وهذا السحر ؟ أما من مزيد ؟ لا ، ما من مزيد . ولكنْ لنتذكّر أنه حتى الأعمال الموسيقية الأعظم التي نستمتع بها مؤلّفة من نوتاتٍ عشرٍ وحسب .

وعند أداء هذه السمفونية التي ندعوها الحياة ، يلعب الدافع الجنسي على الكمان بين العازفين الأُوَل ، لكنّ ضابط الإيقاع هو الأنا . قد يكون صوت آلته الفخمة خفيضاً بين الحين والآخر ، ولكنه يبقى مسموعاً دوماً حتى النهاية . وفي بعض الأحيان تصمت كل الآلات الأخرى في الأوركسترا . وعندها يعزف ضابط الإيقاع منفرداً ، مفعماً بالتوق والحنان ـ لحن الحب . وحين تنضمّ الكمانات الأخرى إلى النغم ، تقود الأوركسترا بانسجام عميق وتحلّق بها إلى ذروة الغبطة .

• من مطبوعاتنا في علم النفس •

جدلية اللاوعي والأنا - يونغ

القوى الروحية وعلم النفس التحليلي - يونغ

علم النفس التحليلي - يونغ

الإله اليهودي: بحث في العلاقة بين الدين وعلم النفس - يونغ

البنية النفسية عند الإنسان - يونغ

الطوطم والتابو - فرويد

أصل الفروق بين الجنسين - أورزولا شوي

التصوف البوذي والتحليل النفسي - د.ت. سوزوكي

موسوعة تفسير الأحلام - ميلر

أرقام الحب السرية - ديفيد وجوليا لين

علم نفس الجنس - إ. س. كون

الجنس والثقافة - إ. س. كون

الدافع الجنسي - ثيودور رايك

التداوي بالتنويم المغناطيسي - جان ليون بليفير

التخاطر عن بعد والاستبصار - جان ليون بليفير

الحكايات والأساطير والأحلام - إريك فروم

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339